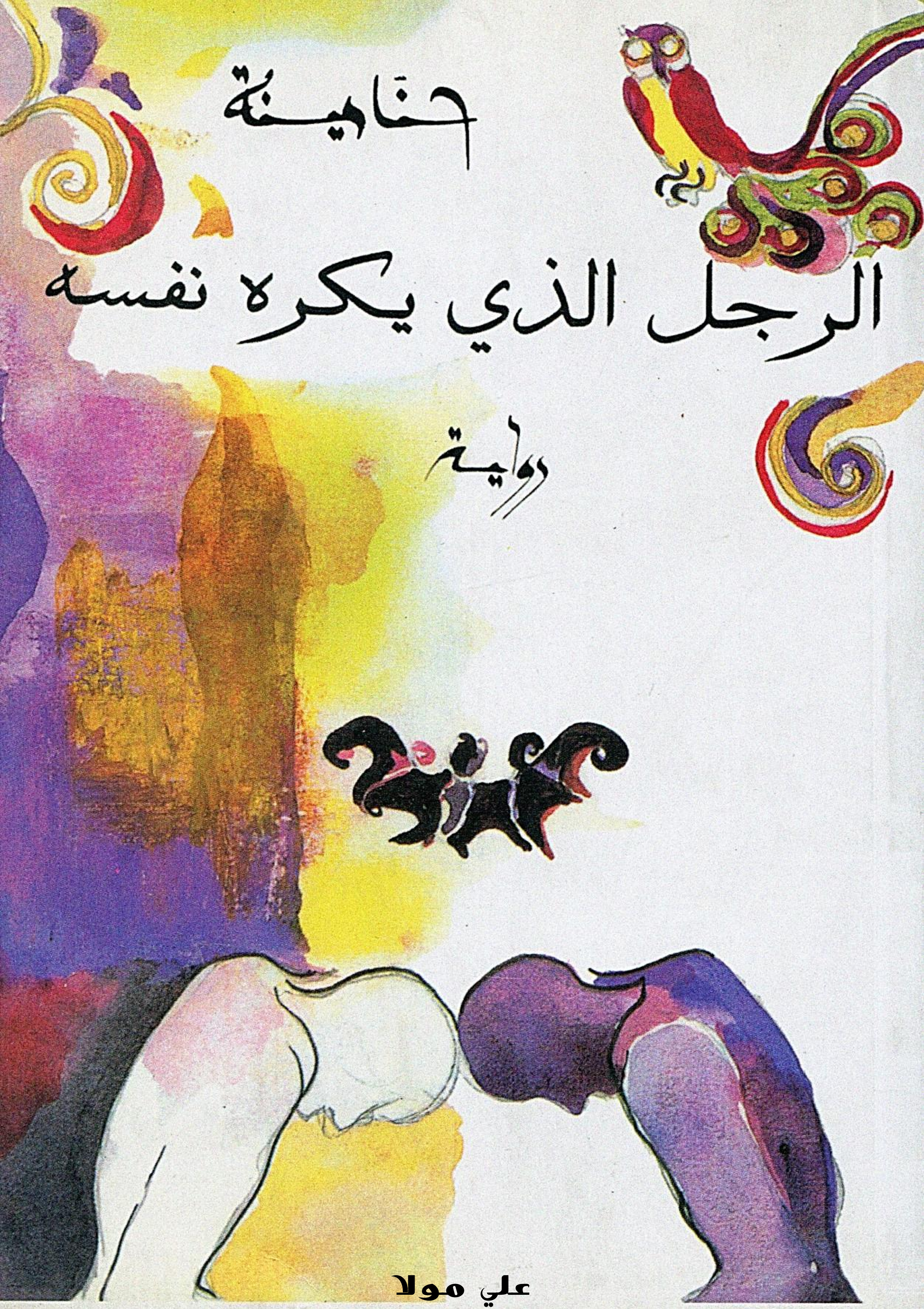
حنا مينة

الرجل الذي يكره نفسه

رواية



علي مولا

حنا مينة

الرجل الذي يكره نفسه

رواية

دار الآداب - بيروت

الرجل الذي يكره نفسه

حنا مينة/روائيّ سوريّ

الطبعة الثانية عام 2003

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

- ١ -

كان دعبس الفتفوت يكره نفسه، وكان يعرف أنّه يكره هذه النفس ويكافح ضدّ ذلك، لكنّه كان يفشل دائمًا، ومع فشله ينمو هذا الكره، حتّى صار، مع الأيام، مَرَضًا نفسيًا، يعذّبه عذابًا متواصلاً، خيّل إليه الاّ شفاء منه، سوى بإيقاف هذا الشعور المخجل، إيقافًا تدريجيًا وتامًا، ولكن بأية وسيلة؟ الجواب كان مربكًا، محيّرًا، فالوسيلة إلى ذلك مفتقدة، لنقص في القدرة على منع هذا الشعور من النموّ، رغم تصميمه على ذلك، ويقينه أن معرفة العلّة هي السبيل إلى البدء منها، خاصة إذا ما كانت علّة غير عضويّة، وهي نفسيّة بشكل واضح، يعرفها من خلال التّحليل النفسيّ، الذي يزعم أنّه قادرٌ عليه، مالكٌ لمفتاحه، وأنّ هذا الضرب من المرض يكون خطيرًا، حين يكون مجهولاً، فاذا توصّل المريض به إلى معرفته، عن طريق محلّل نفسيّ، أو بمجهوده الخاصّ، يصبح غير خطير، ويصير التخلّص منه أيسر، لأنّ النقلة الأولى، الأساسيّة، في المعالجة النفسيّة، أن تُعرف العقدة، ويبدأ العلاج على مستويين: الأول تحليل هذه العقدة، ومعرفة مصدرها، والثاني أن يكون التداوي، بعد هذه المعرفة، بالتقوية العضويّة، بواسطة

الحبوب المهدّئة والمنشّطة، وبالتغلب على الإحساس المَرَضي بمواجهته، وعدم الخوف منه، والعمل، رويدًا رويدًا، على الخروج من ربقته، بفعل ما هو معاكس له، كأن يتكلّم المريض إذا ما كان صموتًا، ويصمت اذا كان ثرثارًا، ويقاوم العزلة إذا ما كان ثمة انكفاء، وينشد الوحدة اذا ما كان راغبًا عنها، ويرتّب أفكاره اذا ما كانت مشتّتة، وينحو، في هذا الاتجاه بعزم واصرار، من غير تعجّل، لأن مجاهدة النفس، هي الجهاد الأكبر، والأطول، دائمًا.

كل هذه الأمور يعرفها دعبس الفتفوت، ويكافح ضدّها، أو بمقتضاها، فهو يحلّل نفسه، ويعيد، كل يوم أو أسبوع، هذا التحليل، ويتّخذ قرارًا بأن يتكلّم بتأنٍّ، إذا ما لاحظ أنه يتدفّق في الكلام، وأن يكبح فضوله إلى رواية حكاياته ونوادره، إذا ما كان نزّاعًا إلى قصّ هذه الحكايات والنوادر، ولو تطلّبها الآخرون، أو استملحوها، لأنه، بالانسياق مع رغبة القصّ، يحتكر الحديث، وهذا غير مستحبّ، في مجلس يريد الآخرون، أن يتحدّثوا فيه أيضًا، ولديهم، مثل ما لديه، حكايات ونوارد، وهم يرتاحون إلى الحوار المتبادل، بهدوء وعذوبة، يجعل من الجلسة مجالاً لتبادل الآراء والأفكار، وإلاّ فإنّ الجلسة تبوخ، بما ينتاب الجالسين من ملل، مهما يكن المتحدّث الفرد لبقًا، ومهما يكن حديثه حلوًا مستساغًا، فالإصغاء الطويل، مثل الكلام الطويل، يبعث على الملل والإزعاج، وهذا مكروه، حتى ولو أخفى المستمعون هذا الكره، لباقة منهم، أو مجاملة، أو مسايرة لمن أزعجهم، كيلا تتأذّى مشاعره، نتيجة تأفّفهم، ولو بغير إعلان ذلك أمامه.

إنّه التخبّط! دعبس الفتفوت كان يتخبّط، متلمّسًا، في خلواته، في العزاء مما يكابد، مصممًا، في كل خلوة، على الإقلاع عن سلوك يراه غير قويم، إلا أنه، في الغداة، كان يقع في المطبّ نفسه، ويكابد، من جرّاء ذلك، المكابدة نفسها، ليعود إلى تصميمه، كرّة أخرى، ومكابدته كرة أخرى، في دوران لا نهاية له، داخل دائرة مفرغة، معذّبة، ينشد، في غير جدوى، الخروج منها.

وذات مساء، وهو إلى مكتبه، يقرأ دون أن يفهم ما يقرأ، نتيجة التناذر الفكريّ، أحسّ باصطفاق جناحين من حوله، وبوغت على نحو شديد الإرعاب، لأن بومة كانت تحوّم في فضاء الغرفة، رغم أن كل ما في الغرفة مغلق، وبعد أن نعقت البومة، عدة نعقات، حطّت أمامه على المكتب، بعينيها المدوّرتين، وأنفها المعقوف، ومنقارها الحادّ، ورائحة نتنة تفوح منها، جعلته يخاف، ينفر، يتقزز، ثم يستجمع ما تبقّى من شجاعته، ليمسك بالبومة، فيقتلها، أو يرمي بها خارجًا، أو يتخلّص منها بأيّ شكل، غير أن يده التي امتدّت نحوها باندفاع، لم تقبض سوى على فراغ، فقط طارت البومة، وحوّمت، ونعقت، وحطّت، من جديد، أمامه على المكتب، وكلما حاول الإمساك بها، تفلّتت منه، دون أن تمسّها كفّه، كأنما هي خيال لا حقيقة، أو أنها أثير لا جسد، أو روح لا لحم فيها ولا عظم، حتى خيّل إليه، للحظات، أنّ هذه البومة طائر خرافيّ، أو جنّ، أو شيطان، أو عزرائيل، الذي ينسرب إلى من يقبض روحه، ولو كان في برج مشيّد!

ولما اشتدّ به الذعر، صاح بوجل ولكن بقوة:

ـ من أنتِ، من أنتِ؟!

وجاءه، وسط دهشٍ مرعب، صوت يقول:

ـ أنا هي أنت، فلا تخف!

ـ أنتِ هي أنا!؟

ـ ولماذا الصراخ!؟

ـ لأنني لا أستطيع غيره!!

ـ حتى بعد أن طمأنتك؟

ـ عن أيّ طمأنينة تتحدّثين يا وجه الشؤم!؟

ـ عن الطمأنينة التي تذهب بالخوف.. أنت خائف إلى درجة الموت، مع أنك تدّعي الشجاعة، بل أنت شجاع حقًا، إنما المفاجأة، التي هي لا مفاجأة، كانت قاسية، مرعبة، انخلع لها قلبك، لظنّك أني طائر خرافيّ، أو أني جنّ، أو شيطان، أو عزرائيل نفسه، وكل هذا وهم في وهم، لا أثر له في الواقع، ولا صلة له بالحقيقة، ومن العبث الإمساك بي، أو قتلي، أو إلقائي خارجًا، فأنا لم آت من الخارج، وإنما من ذاتك انبثقت، فإذا كان في وسعك أن تقضي على ذاتك، يكون في وسعك أن تقضي عليّ.. والآن، اسمح لي أن أحطّ أمامك على المكتب، ونتحدّث بهدوء، واحدنا مع الآخر، رغم أنه لا واحد هناك ولا آخر، لأننا أقنوم مفرد، في هيئتين مختلفتين، اقتضت الضرورة اختلافهما، حتى لا يكون هناك قرين، أو مثيل، أو شبه، أو بكلمة أخرى، أننا، أنت وأنا، دعبس الفتفوت، أمام دعبس الفتفوت ذاته، في كل واحد! اجلس، اهدأ، استعد شجاعتك، كن أنت، كما كنت دائمًا أنتَ، وسأكون أنا، كما كنت دائمًا أنا، وسنتحاور حوارًا صريحًا لا أكثر..

هيّا، دعني معجبة بك، ودعك معجبًا بي، كما في يوم مولدنا، وكما في يوم مماتنا أيضًا!

انهدّ دعبس الفتفوت على مقعده، مستسلمًا لقدره، وصفّقت البومة بجناحيها للمرّة الأخيرة، ثم حطّت أمامه على المكتب، بكل ما فيها من قبح ونتن، ومن عينيها المستديرتين ينبعث شعاع كامد، يذكّر بما ينبعث من تابوت فيه جثّة مسجّاة، ومن منقارها المعقوف، ينقّط سُمّ له لون السفرجل، كما ينقطّ سمّ إفعى في كأس داخل مخبر، مخصّص لجمع سموم الأفاعي. وبعد تبادل نظرات موّارة بالحقد، وبالخبث، وبالخطيئة الأولى، سأل دعبس الفتفوت، نافد الصبر، متوتّر الأعصاب، متجهّم الطلعة:

ـ مَنْ أنتِ!؟ قولي، بصراحة، مَنْ أنت!؟

أجابت البومة:

ـ هذا سؤال مكرّر، طرحته أنت وأجبت عليه أنا، وبالصراحة التي لا تدع مجالاً للشكّ.

ـ وإذا قلت لكِ إنني لم أسمع الجواب، أو انّي سمعته ولم أفهمه؟

ـ أقول لك: أنت توما!

ـ توما كان شكّاكًا!

ـ وأنت نسخة عصريّة منه.

تأمّلها دعبس بمقت وقال:

ـ أنا غير مصاب بهذه اللّوثة.

ـ أنت هو هذه اللّوثة بعينها، وشكُّك مصدره الخوف، والخوف، لديك، سببه الوسواس القهريّ، أنت، يا أنا، مصاب بعقدة وسواسيّة قهريّة، وقد نجحت بالتخفّي عليها، لكن إخفاء المرض لا يلغيه، فأنت تحمله من المهد، وسيلازمك إلى اللحد دون أن تدع أحدًا يعرف به، وتلك هي كذبتك الكبرى التي طوّفت بها على الناس، فانخدعوا بها ولا يزالون، لكنك تعرف أن ليس من خبيء إلا ويظهر، وأنّ الذين خدعتهم في الحياة، سيكشفون خدعتك بعد الممات، وأن تظاهرك بالعقل لستر جنونك، سيُرفع السترُ عنه، بطريقة ما مؤكدة، وعندئذ تبدو عاريًا كالشجرة في الشتاء.

قال دعبس بحدّة:

ـ أنا لم أخفِ جنوني.. على العكس، تباهيت به، لأنني أكره العقلاء، وأصدقائي يعرفون هذا!

تحرك البؤبؤان العكران، استدارا في عيني البومة، فأشاح عنها وهو يقول:

ـ لا تنظري إليّ هكذا، في عيني مباشرة!

قالت البومة بنبرة إشفاق مسكين:

ـ تخشى أن أعرّيك من ورقة التوت؟

ـ لا! لا أخشى! أنا لست آدم الذي ارتكب الخطيئة، ولا حاجة لي بأيّما ورقة توت أو غيرها.. ولك أقول: إنني السيف المسلول، والغمد الذي كنت فيه لم يكن للتستّر، وإنما لحجب بريقي الباهر، رحمة بأعدائي.

ـ وهل لك أعداء؟

ـ كثر! وبهم أتفاخر، لأنني، في كلّ يوم، أو كل مناسبة، ألوّح لهم بالقماشة الحمراء، كما يُلوّح المصارع للثور في حلبة الصراع، فيُستفزّون، ويثورون، ثم يتساقطون ورقًا أصفر، ويموتون لا من طعنة سيف، لأنهم لا يستحقّونها، بل من طعنة احتقار، وهكذا بهم أحيا، فلولا وجودهم لم يكن لي وجود، أو لكان وجودي خاملاً، لانتفاء الضدّ الذي به يُعرف الضدّ، ويتجلّى، سامقًا كالنخلة في البريّة.

قالت البومة:

ـ أعرف هذا، وأنت فيه على حق، لكنني، أنا، لست عدوّتك، فلماذا تنفر مني؟

ـ لأنني أكرهك!

ـ وهل يكره الإنسان نفسه؟

ـ وهل أنتِ نفسي!؟

ـ أنت قلت!

ـ إذن أنا أكرهك مرتين: الأولى لأنكِ قبيحة، والثانية لأنكِ نتنة!

ـ وإذا كانت هذه حال النفس، في كل كائن حيّ؟

ـ يكون شقيًا هذا الكائن، وإلى أبعد حدّ!

ـ لكنه يحبّ شقاءه!

ـ يحبّ شقاءه!؟

ـ وهنا المفارقة! تذكر أن هناك، في الحياة، قانون حياة، وهو باق

ما بقيتْ، وهذا القانون واضح، بسيط، مفهوم، لأنه يتألّف من كلمتين: الشيء وخلافه، لولا الشقاء ما كانت السعادة، ولولا القبح ما كان الجمال، وقس على ذلك. فاذا كنتَ تكرهني فأنا أحبّك، وإذا كنت تهرب مني فأنا ألاحقك، واذا كنت تحسب أنك خارجي، فأنا داخلُك، لأن واحدنا يكمل الآخر، ثم لا انفكاك، فهل أدركت، الآن، معنى المفارقة، وانغرازها عميقًا في وجودنا، كأحياء!؟

فكر دعبس قليلاً، تأمّل البومة طويلاً، أطرق وأغمض عينيه، قال في ذاته: «هذا فظيع لكنه صحيح! النفس بومة ـ وكما هذه نذير شؤم، فتلك وسوسة إبليس، ونحن لا نفعل سوى أن نخدعَ وننخدعَ: نَخدع لأننا نتظاهر بما ليس فينا، وننخدع لأننا نمجّد ذواتنا، التي هي على الصورة والمثال، من الذي قال إننا على الصورة والمثال؟ وماذا كان يقصد بذلك»؟

قالت البومة:

ـ كان يقصد أن الإنسان في خيره مثال لجمال الإله، وفي شرّه مثال لشوهة الشيطان!

انتهرها دعبس قائلاً:

ـ أنا لم أسألكِ تفسيرًا، ثم من قال لك إنني كنت أفكّر في موضوعة الصورة والمثال؟

ـ أنت قلت!

صاح بها:

ـ أنا لم أقل شيئًا! لم أتلفّظ بحرف، كنت أفكر فقط.

ـ وهل نسيت أننا كنا نفكر معًا؟ أنا هي أنت، وأنت هو أنا، إلامَ تنكر هذه البدهيّة؟

ولماذا لا تصدق أنني نفسك، وأن نفسك هي بومة، وأنك تكره هذه البومة، وأنت تشقى، بغير طائل، في هذا الكره!؟

ـ نعم! نعم! أنا أشقى في هذا الكره، حتى قبل أن أعرف أن نفسي بومة، وأنها على مثل هذا القبح.

قالت البومة:

ـ في القبح جمال أيضًا، فلماذا تنكر هذا؟ ولماذا تشيح عن رؤية وجهك، إذا ما طالعك في المرآة؟

قال دعبس:

ـ لأنه قبيح أيضًا، الوجه مرآة النفس.

ـ لو كان ذلك، لكانت الوجوه كلها قبيحة، ما دامت النفوس كلها قبيحة، حسب منطقك البائس هذا.

ـ هذا ليس منطقي بل هو منطقك... ألم تقولي إن النفس بومة!؟

ـ وماذا في هذا؟ للبومة جمالها الخاصّ، حين لا تكون، بما هي نفس، شرّيرة على النحو الذي تتصوّر... المسألة، يا دعبس، تتوقّف على الإنسان من الداخل، هل هو أسود أم أبيض؟ أم أنه بين بين، حتى لا تكون هناك ثنائية فقط، تتنافى مع تعدّد الألوان، كما هي في الطبيعة والأحياء؟

أضافت البومة:

ـ عندما نرى وجه الإنسان، نستطيع، إلى حدّ ما، أن نعرف ما اذا كان هذا الإنسان أسود، من الداخل، أم أبيض، فالوجه، كما قلت، مرآة، لكن بغير تعميم، بغير أحاديّة، وبغير حكم على القياس فقط، النفس، وكذلك الوجه، لهما تعدّديّة لا تُحصى، هل تفهم ما أقول؟

ـ أفهم شيئًا واحدًا، هو كرهي لنفسي، خاصّة بعد أن عرفت أن هذه النفس بومة، تقف أمامي بكلّ قبحها ونتنها... أم تريدين أن أكذّب ما أشعر وما أرى، وأن أنكر «خائنة الأعين وما تخفي الصدور»؟

خفقت البومة بجناحيها، طارت، حوّمت في فضاء المكتب، غابت، لا يدري دعبس أين، عندئذ تنفّس الصعداء، ارتاح، استرخى، همّ بالنهوض، عندما جاءه صوت عذب:

ـ ابْقَ في مكانك!

نظر حواليه، رفع بصره إلى أعلى، أَنصت مليًا، سمع اصطفاق جناحين، تابع الطائر الذي يحوّم في فضاء الغرفة تحويمه، رأى دعبس الفرحُ إليه مذهولاً، فقد كان الطائر جميلاً، أجمل من كل الطيور التي رآها في حياته، ولم يتمالك نفسه، سأل:

ـ من أنتِ أيضًا؟

أجابه الصوت العذب إياه:

ـ أنا العنقاء!

ـ العنقاء!؟ الطائر الخرافيّ!؟

ـ هي بعينها!

ـ لا أصدّق.. الخرافيّ لا يصير حقيقيًا!

ـ كل شيء يصير، ما دمنا نريده أن يصير.

ـ أنا لم أرد شيئًا، لا خرافيًا ولا حقيقيًا.

ـ نفسك هي التي أرادت!

ـ وهل تريد النفس بمعزل عن صاحبها؟

ـ النفس هي صاحبها، وهي التي تُملي، وصاحبها هو الذي يُملى عليه... أنتَ، يا دعبس، تجهل سريرتك، وهذا ليس من الغباء، فالسريرة إضمار، والإضمار لا يستعلن دائمًا، لذلك أنت معذور، وكل أصحاب السرائر المضمرة معذورون أيضًا! هناك، في الإنسان، منطقة مجهولة منه دائمًا، لكن جهله بها لا يعني أنها غير موجودة.. أنا هي سريرتك، صدّقني، وكفى تحويمًا في فضاء الغرفة، لأن لي معك حديثًا، والحديث، عادة، يكون بين جليسين، فهذا أدعى للراحة، وللفهم والتفهيم، فاسمح لي، إذن، أن أحطّ أمامك على المكتب، وأن نتحاور بهدوء، ما رأيك؟

قال دعبس مسرورًا:

ـ تفضّلي، وبكل ترحيب، أنتِ جميلة، والجمال مُرحَّبٌ به دائمًا، وهذا عُرف.

ـ عند الذكور فقط!

قالت العنقاء ذلك وحطّت على المكتب أمام دعبس، مدّ يده راغبًا

في تمسيد ريشها، إلاّ أنّ يده لامست فراغًا، فقال في نفسه مستغربًا: «يا للخيبة! لم أستطع أن أقبض على البومة، مع أني جرّبت، ولم أستطع ملامسة العنقاء رغم المحاولة، فهل هذا لأن العنقاء سريرتي، كما ادّعت، وهل هذا لأن البومة هي نفسي كما زعمت!؟ إنني، حقًا، في موقف غريب، ولو قصصت ما يجري معي للناس لرموني بالجنون، فهل صدف مع غيري ما يصدف معي؟ وهل من إنسان جالس، أو يجالس، نفسه وسريرته؟ وما هي السريرة وما هي النفس؟ وما هي الروح وما هو العقل؟ وأين مكان هذه الأشياء في جسم الإنسان؟ في القلب؟ في الضمير؟ في الحواسّ؟ الأرجح أنها في الصدر، لكن التشريح، كما بلغني، لم يجد في الصدر سوى اللحم والدم، فالقلب عضلة، والصدر قفص، والأضلاع عظام، وهذه كلها، في الإنسان، في الحيوان، في الطائر، تُرى، تُلمس، تُشمّ، الا الروح والنفس والعقل والسريرة، فانها موجودة وغير موجودة، كائنة وغير كائنة، وهي، أيضًا، تُدرك ولا تدرك، وهذا هو السرّ الأعظم!»

دفدفت العنقاء بجناحيها، كي تلفت دعبس إليها، وقالت كأنها كانت تتكلم معه:

ـ.. وعبثًا يبحث الانسان عن هذا السر، وعبثًا، اكثر، أن يعرفه، لأنه سرّ ولا سرّ في وقت واحد، وهو أيضًا، الإعجاز الذي عجز عنه الإنسان، ازلاً وأبدًا، لذلك كان شقيّاً وسيبقى شقيًا، من يسعى إلى مثل هذه المعرفة، وقد اقلع كل كائن، ما عدا الانسان، عن تفكير كهذا، فاستراح مرّة وإلى الأبد.

قال دعبس:

ـ كلمة اقلع هذه تفيد المحاولة، فهل حاولت الكائنات الأخرى ذلك وأقلعت عنه!؟

ـ من يدري؟

ـ لكنك، أنت، تدرين، أو يجب أن يكون الأمــر كــذلك، لكونك سريرة.

قالت العنقاء:

ـ أنا سريرتك أنت، لا سريرة الآخر أو الأخرى، أو سريرة أيّ كائن، من الحيوان إلى الطير إلى النبات.

ـ وهل لهذه الكائنات سرائر؟

ـ طبعًا! حتى النملة لها سريرتها!

ـ وماذا تريدين مني يا سريرتي الحسناء؟

ـ أن تكف عن سخفك!

ـ وهل أنا سخيف؟

ـ أنت متساخف!

ـ وما الفرق!؟

ـ في المحاكمة!! لماذا تحاكم نفسك على تهمة افتراضية؟ ولماذا أنت المدّعي والمدّعى عليه في آن!؟

ـ لأنني كذلك!

ـ هذا ليس بجواب.

ـ وما هو الجواب، في هذه الحال؟

ـ أن تعرف سخفك أولاً، ولا سخفك ثانيًا، وأن تكفّ عن إنماء مشاعر كهذه، ولوكها كلّ صباح وكلّ مساء.

ـ وإذا كان ذلك ليس في وسعي؟

ـ سيكون ذلك في وسعك عندما تضع حدًا لحساسيّتك المفرطة.

ـ لديّ حساسيّة مفرطة!؟

ـ ومَرَضية أيضًا!

ـ أخفتني!

ـ الخوف الأكبر قادم!

ـ متى؟

ـ عندما أكشف لك سخافاتك كلها، ومخاوفك كلها!

ـ هذا هو الهول الأعظم!

ـ وهذا هو الكشف الأعظم!!

ـ هل هذا ما يسمّونه الدينونة!؟

ـ هذه دينونة الحياة، أما دينونة ما بعد الموت فإنها مؤجّلة.

ـ ومن هو المدين ومن هو المدان في كل هذا؟

ـ المدان هو أنت، والمدين هو الضمير.. ضميرك أنت وضمائر الآخرين!

ـ وهل يتعذّب الآخرون كما أتعذّب أنا، بسبب ضميري!؟

ـ سلْهم!

ـ وهل يجيبون؟

ـ أشكّ!

ـ وهل يستشعرون ما أستشعر؟

ـ عندما تستيقظ ضمائرهم!

ـ اذن الضمائر تنام أحيانًا؟

ـ في هذه الأيام تنام دائمًا!!

ـ ولماذا في هذه الأيام تخصيصًا!؟

ـ بسبب وباء النفعيّة!

ـ وهل صارت النفعيّة وباء؟

ـ بل هي جائحة!

ـ وما العمل الآن؟

ـ أن تكون شاهدًا على النفعيّين والمنتفعين، الآن وفي المستقبل.. شريطة ألاّ تكون شاهدًا سلبيًا!

ـ وهل هذا في مقدوري؟

ـ اذا ملكت الشجاعة والعزم.

ـ ازعم أنني أملكهما!

ـ الزعم، يا دعبس، يظل زعمًا، إلى أن يصبح حقيقة.. فكّر بما أقول!

ـ نعم! عليّ أن أفكر بما تقولين.. هذه نصيحة جيّدة.

ـ ومفيدة أيضًا! أكرّر: مفيدة أيضًا، هل تسمعني!؟ وهل يسمعني الآخرون؟

ـ اسألي الآخرين!

ـ ولماذا أفعل؟ هل نسيتَ أني سريرة؟

ـ وماذا في سرائر الناس؟

ـ صراع الخير والشرّ!

ـ ومن منهما المنتصر؟

ـ الشرّ، وبصورة مؤقتة، لكن حذار من التعميم، فهناك، في كل مكان، خيّرون، وبهم سينتصر الخير، أخيرًا.

ـ أخيرًا!؟ لماذا أخيرًا وليس الآن؟

ـ لأن النصر يأتي رويدًا رويدًا، ويمرّ، في مجيئه، بكل حمآت الحياة.. لماذا العجلة؟ ولماذا أنت مستعجل على هذا النحو!؟

ـ لأنني..

قاطعته العنقاء:

ـ توما العصر!

ـ لماذا تشتمينني؟

ـ وهل الانتماء إلى العصر نقيصة؟

ـ إنني أنتمي إلى عصري، لكنني لست بتوما.. عصري سكران وأنا صاحٍ!

ـ الصحو وحده لا يكفي.. اقرنه بالعمل، وبترك الشكّ، والوسوسة القهريّة، وادّعاء السخف، ونبذ القنوط، هذه الأشياء التي هي موضة هذه الأيام.

ـ أنا لست بقانط، رجائي يسع الكون!

ـ هل أنت واثق مما تقول؟

ـ كلّ الثقة!

ـ لا أحد، في أيامنا هذه، يثق «كل الثقة» حسب تعبيرك.. نصفها، الآن، يكفي!

ـ وإذا كنت أتكلّم على المستقبل!؟

ـ واذا كان هذا المستقبل في البعيد!؟

ـ ليكن!

ـ هذا جواب جيّد!

ـ ٢ ـ

أسف دعبس الفتفوت لأن العنقاء اختفت، إنها طائر خرافيّ جميل، وهو يعرف ذلك من أمثال العرب الأقدمين. يعرف أيضًا، أنها في الصين، رمز الامبراطورة، وأن التنّين رمز الأمبراطور، فهذا يمثّل القوة، وتلك تمثّل الجمال، إلاّ أنها، في بهائها، تليق ببهاء المرأة. العنقاء، حتى في خرافيّتها، تعطي للخرافة مدلولاً رائعًا، هو أن الحياة مباركة، زاهية، ما دام فيها زهو طائر من تلاوين السماء، على هذا القدر من النبل، وهذا القدر من الذكاء، وهذا القدر من الفهم، الذي يبلغ أن يكون سريرة الانسان، في نقائها والقبح!

ـ النقاء والقبح!؟

تساءل دعبس في نوع من الاستغراب، وبعد أن تأمّل هذا التساؤل الاستغرابيّ، للحظة بارقة كاللمع، أجاب بذاته على ذاته:

ـ نعم! النقاء والقبح معًا، فالسريرة تكون للخير، وتكون، أيضًا، للشرّ، وهذه جدلية كلّ شيء في الوجود.. العنقاء، وهي سريرتي كما تزعم، قالت: «هذا جواب جيّد!» عندما قلت لها «إنني أثق بالمستقبل

ولو كان بعيدًا!» لكنها، العنقاء نفسها، قالت أيضًا: «أنت توما الشكّاك! فكفَّ عن سخفك!».

قالت له ذاته:

ـ يا دعبس، يا أنت الذي هو أنا، هل اقتنعت الآن، أن السريرة تكون للخير كما تكون للشرّ، فاذا أجبتني: «نعم! وقد نوّهت لكِ بجدليّة أشياء الوجود» أقول لك: «واليقين اليقين!؟ هل بلغته تمامًا!؟

قال دعبس:

ـ ليس بعد.. أنا لست توما، ولست شكّاكًا، وأثق بالمستقبل ثقة كاملة، لكن اليقين التام هذه مسألة أخرى!

ـ ألا تلاحظ أنك، في هذا الذي تدّعيه، مراوغ ومماحك؟ ثقتك، يا دعبس، مدخولة بالشكّ، وأنت تأبى الاعتراف بذلك، لماذا؟

ـ لأنني أعرف نفسي!

ـ نفسك التي تحبّها، أم نفسك التي تكرهها!؟

ـ وهل هناك نفسان في جسم واحد؟

ـ هذا سؤال موجّه إليك.

ـ وجوابي معروف: هناك نفس واحدة في جسم واحد، وأنا أقرّ، بكامل وعيي، أنني أكره نفسي، وقد قلت هذا للبومة.

ـ لكنك، في عين الوقت، تحبّ هذه النفس، بدليل أنك ما زلت تعيش.

قال دعبس:

ـ أعيش لأنني، حتى الآن، لم يقيّض لي أن أموت.. ولعلمك أقول: إن أحد الفلاسفة لاحظ «أنّ العيش محتمل، ما دامت هناك امكانية للانتحار»، وأنا أعيش على هذه الإمكانية.

قالت ذاته:

ـ هذا مفهوم، وهذا، بشكل ما، جيّد، لكن ما هدفك من هذا العيش؟

ـ أن أحقّق العدالة الاجتماعية!

ـ إنّه هدف رائع، تُغبط عليه، لولا أنك تشكّ، في سريرتك، بتحقيق هذه العدالة، في المدى المنظور على الأقلّ!

ـ هذا خطأ!

ـ هذا صواب!

ـ دليلُكِ؟

ـ بسيط جدًا.. من كان يكافح لتحقيق العدالة الاجتماعية، لا يكره نفسه التي بها يكافح، لتحقيقِ هدفٍ بمثل هذا السموّ! والمسألة، بعد، تتوقّف على ثنائية مضمرة: الكره والحب معًا، وهذا يفسّر لماذا السريرة خيّرة وشرّيرة في وقت واحد.

قال دعبس:

ـ أنا لا أجادل بالبدهيّات! ما تقولينه بدهيّة!

قالت ذاته:

ـ البدهيّة ترتكز على الإيمان، وأصارحك بأنك غير مؤمن بأيّة بدهيّة.

ـ هذه مغالطة كبيرة!

ـ وهذه حقيقة كبيرة أيضًا... أنت، صدّقني، ما زلت تنوس كذبالة الفانوس أمام هبّات الريح، وتتأرجح كما أوراق الخريف قبل أن تتساقط، وتتعرّى منها الأشجار. أنت هو الشجرة العارية، أنت أدم دون ورقة توت، وفي عريك لا تعرف كيف تخفي عورتك، قصدت دخيلتك.

ـ وبعد!؟

ـ الربيع يعود دائمًا، وبه تفرح النفوس، الا نفسك الكئيبة، بسبب هواجسك التي تتناسل كالأرانب.. لماذا لا تحبّ الشتاء؟ هل ترفض ناموس الطبيعة في تعاقب فصولها؟

ـ ناموس الطبيعة هو إيقاع الزمن، حين يزحف كالسلحفاة على أجسامنا.. وقد أكون ممن يبهظهم الزمن بثقله الرصاصيّ، وبطئه القاتل، لكنه الزمن وليس في وسعي إيقاف مسيله غير المرئيّ، ولا أرغب في ذلك.. لامارتين، في قصيدة «البحيرة» تمنّى أن يُلقي مركب الحياة مرساته، لكنه أشفق، بعد ذلك، من إيقاف مركب الحياة الذي يشكّل وقوفه جريمة بحقّ البشرية! إنني أشاطره هذا الرأي، فالزمن يتغيّر في مسيله، والتغيير رحمة لنا جميعًا.. أما كرهي للشتاء فلأنه يحجب، بغيومه، الشمس التي تنير كوكبنا وحياتنا.

ـ ولماذا، كما صرّحت، تكره الليل، وهو جنّة العاشقين، ومتعتهم؟

ـ لأنه سواد!

ـ والنوم؟

ـ لأنه يحمل الكوابيس!

ـ أنت مصاب بعقدة الكره، وعقدة الخوف أيضًا، فتحرّرْ منهما تَنْجُ.

ـ أرفض هذا الاستنتاج، مع اعترافي أنّ الانسان معقّد، في هذا الزمن المعقّد، الذي يضغط على النفوس ضغطًا وحشيًا، لذلك فان عيادات الأطباء النفسيين مزدحمة دائمًا، وهم وحدهم الرابحون، حتى لو لم يفكروا بهذا الربح، وكل ما يفعلونه، بالنسبة لمرضاهم، هو وصف الحبوب المهدّئة، غير أن الانفعال أو الاكتئاب، الاهتياج أو اللواذ بالصمت المَرَضيّ، لم تعد تنفع معه الحبوب المهدّئة التي تنتجها شركات الأدوية بكميات، وأنواع، كثيرة جدًا جدًا! نحن في عصر السرعة، والتحليل النفسي يكاد ينتفي، لذلك يشعر جدّنا فرويد بالاكتئاب هو نفسه.. الانحدار إلى الجحيم الحياتيّ أصبح قاسمًا مشتركًا! أعرف ما ستقولينه: «أنت متشائم!» وهذا يبعث على الضحك، لأنه قول نافل، ما دام التشاؤم أصبح حممًا، تقذفها براكين المتغيّرات العالميّة المزلزلة، والناس، في طلب النجاة، كالفئران في المصائد: أين المفرّ؟ أين الملاذ؟ وما قيمة التفاؤل الأحمق؟ هل عرفت، الآن، لماذا أنا متّهم بالتشاؤم؟

ـ أنت لست متّهمًا بالتشاؤم، أنت متشائم فعلاً!

ـ وهذا ما يجب!

قال ذلك وطواط لحميّ كريه، يلتصق بالجدار.. حملق فيه دعبس الفتفوت وسأل بقرف نزق:

ـ ومَنْ أنت أيضًا!؟

ـ أنا ابن الظلمة! فيها ولدت، وفيها نشأت، وفيها سأموت أيضًا!

ـ وماذا تريد؟

ـ أن أقدم لك احترامي أولاً، وتهانيّ ثانيًا!

ـ على ماذا؟

ـ على كرهك لنفسك.. الكره، يا دعبس، صفة إنسانية حميدة، وإني لأعجب لماذا يُعاب الكره، مع أنه الجزء المضمر في البشر، وهو الجزء الذي يصفّح القلب ضدّ كل أنواع الرحمة المبتذلة.

ـ وهل جئت لتوسوس وتخنّس؟

ـ وماذا في ذلك؟ «سوء الظنّ من حسن الفطن» كن سيّئ الظنّ بالجميع، وابدأ بنفسك أولاً.

صرخ دعبس الفتفوت:

ـ كفى! اغرب عن وجهي، اغرب أيّها الذي يعيش في الظلمة، ويخاف الضوء.. الآية الكريمة تقول: «إن بعض الظنّ إثم» وأنا لست بآثم، ولن أكون.. سمعت؟

قال الوطواط الذي دفّ بجناحيه اللحميّين، متخبّطًا بين الجدران الأربعة، حتى وجد نتوءًا حشر جسمه فيه، وأخرج رأسه القميء، بعينيه الغريبتين:

ـ أنت، يا دعبس، آثم كلك، ومهمّتي، الآن، محاولة ليس الا.. انتبه! أقول: محاولة ليس إلا!

قاطعه دعبس:

ـ محاولة ماذا؟

ـ إقناعك أن الإثم لا يعني الخطيئة، والا لكان الخطاة آثمين جميعًا، وهذا يحتاج إلى برهان، لا تملكه أنت أو غيرك.. نحن في زمن «سدوم وعمورة» الجديدة، وليس فيها من صالح سواك، صدّقني!

فكر دعبس مليًا وسأل:

ـ تقول أن ليس من صالح، في هذا الزمن، سواي!؟ أنت تكذب، وتعرف أنك تكذب، فلا تحاول استدراجي أيّها الوطواط اللعين!

ـ واذا برهنت لك على صحّة ما أقول؟

ـ ليس في وسعك، وليس في وسع أيّ انسان، أو حيوان، أو طائر، إقناعي بأنني الصالح الوحيد في هذا الزمن..

قاطعه الوطواط قائلاً:

ـ الرديء!

ـ نعم الزمن الرديء، البالغ في رداءته، لأنه زمن التدليس

والتمليس والملق والنفق، وكل العيوب التي لم تعرفها الأزمان السابقة.

قاطعه الوطواط مرة أخرى:

ـ والأزمان اللاحقة!

ـ لا! ليس الأزمان اللاحقة، ففي هذه لن تكون وطاويط، ولن تكون «سدوم وعمورة» الجديدة، وسيكون الصلاح أكثر من الطلاح، ولن يكون ثمة لوط، ولا ابنتا لوط، ولن يحرق الربّ أيّ مدينة.. خاصة المدينة الفاضلة.. إنني أعرف ما أقول، وليس من سبيل للوسواس الخنّاس إليّ.

فتح الوطواط فمه اللحمي الكريه، وأطلق ضحكة بشعة، لم يعرفها دعبس الفتفوت قبل الآن، لذلك أشاح بوجهه، وزعق بأقوى ما يستطيع:

ـ اغرب أيّها الشيطان عن ناظري... اغرب وإلاّ قتلتك!

عاد الوطواط إلى الضحك، وانتقل، فجأة، من فجوة في الجدار، إلى فجوة أخرى فيه، قبالة دعبس الفتفوت مباشرة، وقال متهكّمًا:

ـ ما أسخفك أيّها المسكين! أنت يا أنا، مسكون بوسواس خنّاس دون أن تدري، وآية ذلك ندمك كل يوم وكل ليلة، لسبب بسيط هو أنك، بدافع من وسواسك، تحسب أنّ ما قلته، وما فعلته، في كلامك أو صمتك، يستحقّ الندم، لأنك، في قولك والفعل، غير واثق مما تقول أو تفعل، وهذه عقدة نفسيّة رهيبة، جئت لأخلّصك منها، اذا ما أعرتني سمعك قليلاً.

ـ ...

ـ لا جواب؟

ـ ...

ـ نعم لا جواب... معنى هذا أنك مصغ إليّ، وحسنًا تفعل، ففي الإصغاء حكمة، لذلك فان بوذا، في كل رسوماته وتماثيله، يتبدّى كبير الأذنين، وبشكل غير مألوف بين البشر، فما معنى هذا؟ معناه أنه يسمع بأكثر مما يتكلّم، وقد قالت العرب: «اذا كان الكلام من فضة فان السكوت من ذهب» لأن المتكلم يزلّ لسانه، أما الساكت فإنه معصوم عن الزلل، ونصيحتي لك، ولغيرك، هي التالية: «الزم الصمت»! لكنك، أنت، لن تأخذ بنصيحتي، ولا تستطيع، فأنت ثرثار من الطراز الأول، وندوم، كذلك، من الطراز الأول، وقد أقلقت حتى راحة الموتى، بحديثك المعاد والمكرور عن «المدينة الفاضلة» هذه التي هي نتاج دماغ مريض، ومن الطراز الأول أيضًا.. ما رأيك؟

ـ ...

ـ لا رأي لك؟

ـ ...

ـ رغبتك عن الردّ إقرارٌ بصحة ما أقول!

ـ ...

ـ اتّفقنا إذن!

ـ ...

ـ لم نتّفق؟

ـ ...

ـ أنت معذور في إعراضك عني، وغير معذور في استهبالك لي، فأنا لست بالأهبل، وأنا حكيم على طريقتي، وطريقتي هي طريقتك نفسها، غير أنك تكابر في تقبُّل هذه الحقيقة، مع أنها بسيطة. إنها: «الأنا»! وأنت تعيشها فعلاً، وفي المضمر من حشاك، وتصرّ على أن تعيشها، دون أن تعترف أنك تعيشها، وهذا ما يسمّى «ستارة التخفّي النفسيّة»، فليس كل من يضحك يكون ضاحكًا، وليس كل من يبكي، حتى مع الدموع، يكون باكيًا، فالاثنان معًا، الضحك والبكاء، ستارة نفسيّة لما هو اكمداد مموّه، وتذراف مموّه، يتخفيّان في اللاشعور، ولست أنت، يا دعبس، الوحيد في هذا التخاتل، أكثر الناس يفعلون ما تفعل، انقاذًا للمظاهر على الأقل، لكنك، أنت، الأبرع في تخاتلك دون دراية منك، لأنك، من الداخل، وبدفع من تيّار اللاوعي، تمارس أشياء تنكرها في وعيك، وتنكر على الآخرين اذا وعوها، إنك، عند نفسك، لست بالصالح الوحيد، أو الفهيم الوحيد، أو العارف الوحيد فحسب، بل الذكيّ الوحيد، والبصير الوحيد، والشجاع الوحيد، والمغامر الوحيد أيضًا، ثم إنك، عند نفسك، الأريحيّ الوحيد، والألمعيّ الوحيد، والقادر الوحيد، إلى آخر هذه السلسلة من الوحيديّة النرجسيّة، الناشئة عن تضخّم «الأنا العليا»، وبكلمة، أنت تعشق نفسك، وفي الاستبدال تزعم أنك تكرهها، في حال من التناقض الذي تعرفه، وتُسِرُّه، وتتعذّب دون طائل في سعيك

للكتمان دون الاستعلان، وفي الحذر الذي هو نفي للشجاعة، حتى لا أقول الجبن الذي يتلبّسك، والذي يؤرّقك، ومن أجله تكثر من الكلام على الجسارة، في محاولة تقنّعيّة خائبة.

ضرب دعبس الفتفوت بقبضته على المكتب صارخًا:

- كفى! والا... فما تقوله، أيّها الوطواط القبيح، هو القبح الذي ترمي الآخرين به، هو الإيحاء، في محاولة بائسة، لاقناعهم بأنّهم كذلك، وهم غير ذلك، وهذا هو الوسواس الخناس، الذي تنسلّ به إلى دواخل الناس، لزرعه في أعماقهم، كي يكونوا ما تريدهم أن يكونوا، وليس ما هم كائنون عليه، وذلك لعلمك، مسبقًا، أن الشرّ، في التوصيل، أسرع من الخير، وليس هذا لأنّ الناس، أكثرهم على الأقل، ميّالون إلى الشرّ، وإنما لأنّ مجتمعهم، في زمننا هذا، شرّير، وكل إنسان ابن مجتمعه، ويحمل تاريخه الاجتماعي، كما يحمل طبيعة بيئته التي تربّى فيها، في الخير الذي هو الأصل، هو الفطرة، أما الشرّ فإنه، كما تعلم، دخيل، ومن نتاج بيئة شرّيرة، ولا يمتّ إلى الفطرة الأولى بصلة، إنما يأتي مع التطبّع، ليعطّل فعل الطبيعة الخيّر... وبالنسبة لي، إذا ما أردنا التخصيص، على النحو الذي تريده أنت، فإنّ حياتي هي شهادتي، وكل ما قلته عني يتجانف وحقيقتي، ويتضادّ مع مجرى سلوكي، وكل نفي، لكل ما وصفتني به، هو إثبات! إنني ما أقوله تمامًا، فلا تحاول تضليلي، في إزاحة للمواقف عن أماكنها، وفي تسريب للوسوسيّة الخنّاسيّة، إنجاحًا للمهمّة الموكلة إليك، المهمّة القبيحة كمثل قبحك تمامًا، يا ابن الظلمة

التي تخاف النور، لأنها مرتعك، وملاذك، وأنت محكوم بها حكم إبليس بجهنّم، وأفضل ما أفعله هو قتلك، وسأقتلك لأتخلّص منك..

قال ذلك دعبس الفتفوت، ورمى الوطواط بكتلة زجاجية، ارتطمت بالجدار وتناثرت شظايا على الأرض، بينما انسحب الوطواط إلى جوف الفجوة في الجدار، وراح يقهقه ساخرًا، مسرورًا لأنه بلغ أن يستثير دعبس ويستفزّه، وكل إثارة تؤدّي إلى استفزاز، هي نجاح في عرفه. غير أن النجاح انقلب، سريعًا، إلى فشل، حين استفاق الانسان في ذات دعبس، وتحفّز الخير الذي فيه، ليقاتل الشر الذي في الآخر، في عدوّه، الوسواس الخنّاس، الذي تقمّص في شكل وطواط، وجاء ليأخذ به في درب الخطيئة، ويلوي به عن الدرب المستقيم.

مضت دقائق والوطواط قابع في قعر الفجوة، يرتّب أفكاره على أساس مغاير للأساس الذي راح دعبس يرتّب أفكاره عليه. الوطواط لم ييأس، إنه في داخل دعبس وخارجه، فإذا كان في مكنة هذا الأخير أن يطرد خارجه، فإنّه عاجز أن يطرد داخله، وتلك هي الثغرة في دفاعات دعبس كلّها. مشكلة الانسان في نفسه، وجهاده الأكبر فيها وضدّها، أما ما هو خارج هذه النفس فإنه يسير، لكونه الجهاد الأصغر! فان يقاتل الإنسان، في الحرب والسّلم، عدوًا خارجيًا، فهذا غير مخيف، ولا استعصاء فيه، والموت، لأحدهما، خلاص للآخر! إنه يأتي، أي الموت، فيحسم الأمر في نزال واحد، أما العدوّ الداخليّ فانه غير مجسّم، مجهول المكان، مجهول الشكل واللّون، والأمر معه،

في المتناول وغير المتناول، ومن يواجه عدوًا كهذا غير قادر على الحسم معه، في نزال واحد أو ألف نزال، وكلما ظنّ المبتلى به أنه انتصر، اكتشف أن الانتصار لا يزال بعيدًا، وحتى مع امتلاك الإرادة، فإن فعلها يكون بطيئًا، والانسان عجول بطبعه، حتى في عافيته، فكيف به إذا كان مريضًا، واذا كان، وهنا الإشكالية، مرضه في نفسه!؟

دعبس الفتفوت مريض نفسيًا، وتمظهرات مرضه تتبدّى له بأشكال مختلفة، لذلك يكره هذه النفس، أو يتوهّم أنّه يكرهها، ويتكتّم على مرضه لأنه عيب في عرفه، وفي عرف أناس الشرق، ولأن دعبس يخضع لهذا العرف، ويعيش العيب مرضًا نفسيًا، متفرّعًا عن جذر المرض الأساس، فإنّه يعاني معاناة إضافيّة شديدة، تحتاج إلى التمرّد في أقصى طاقته، وقد كشفت له البومة، باعتبارها نفسه كما ادّعت، مغلاق قبحه النفسيّ، الشبيه بها، وهذا ما أزعجه كثيرًا، أما العنقاء، بجمالها، فإنّها أومأت له إلى الجمال في نفسه، وهذا ما أراحه، وقد أيقن، لفترة، أن كرهه لنفسه مسألة افتراضيّة، وأن نفسًا تسعى إلى الخير ليست بالنفس القبيحة، وعليه، اليوم وغدًا، أن يتمسك، يقينًا، بأن كرهه لنفسه افتراضيّ، وكل افتراض يحتاج إلى برهان، ولم يقم أيّما برهان على افتراض الكره، ومن المؤكد أن من يؤمن بالمستقبل الأفضل، يملك نفسًا أفضل، يحسن أن يتصالح معها.

في هذه اللحظة جاء صوت من فجوة الجدار! كان هذا هو

الوطواط الذي مدّ رأسه إلى خارج الفجوة، وراح ينظر إلى دعبس نظرات إغرائية، فيها الكثير من التحبّب، ومن الإيناس الملس، بقصد حمله على تصديق ما يقوله، وكانت نبرة الصوت قد تبدّلت الآن، كما تتبدّل صورة الشيطان عندما يرغب في أن يظهر بمظهر الملاك.. قال الوطواط:

ـ يا صاحبي، يا دعبس، أيّها الإنسان النقيّ، إياك والصلح مع نفسك! تذكّر ما قالتْه لك البومة عن هذه النفس.

سأل دعبس:

ـ ولماذا لا تدعوني إلى تذكّر ما قالته لي العنقاء عن هذه النفس؟

ـ لأنّه خطأ!

ـ وما هو الصحّ؟

ـ أنّ النفس أمّارة بالسّوء.

ـ لكن الإنسان الصالح، أو حتى الذي يسعى لأن يكون صالحًا، لا يأتمر بالسوء، اذا ما راودته نفسه عليه.

ـ المسألة، يا دعبس، ليست هنا، إنّها في الإنسان والنفس، وهل في وسع الإنسان أن يمتنع على نفسه، ثم لماذا؟ لأجل أن يكون صالحًا، وما هو الصلاح، اذا كانت الهناءة في غيره!؟

قال دعبس في حيرة:

ـ أنت، أيّها اللعين، ضد أن أصالح نفسي، وأنت، من جهة أخرى، تحذّرني من نفسي، ثم تعود إلى إغوائي بها، وتزيّن لي عدم

الصلاح، لأن الهناءة معه تكون، أفلا تلاحظ تناقضك؟ أم أنك تلفّ وتدور لغرض ما، كسبر رغائبي مثلاً؟ قل ما شئت، ولكن بشكل واضح ومستقيم، فهذا أدْعى لراحتي...

ـ وراحتي أيضًا! فأنا صاحب مهمة كما قلت، فلا تتعبني وتلْهني عن القيام بواجباتي، حيال الآخرين، الذين تشملهم مهمّتي، وهم كثر في هذه الدنيا، وأسلس قيادًا منك، أنت الانسان الملتبس، الذي، قبل قليل، كنت تفكر بدربك المستقيم، معتزمًا، في مراوغة، أن تسير فيه وإلى النهاية.. اسمع يا دعبس، إنها كلمة واحدة، جامعة مانعة: «أنت لم تخلق لأن تكون مستقيمًا، أو لكي تسلك الدرب المستقيم، فلا تتأبّ عليّ، ولا تخف مني، دعك، أنت الآخر، من هذا التذبذب الزئبقي، وقل لي ماذا تريد، وبصراحة»؟.

تنهد دعبس التعب وقال مستسلمًا:

ـ الراحة!

ـ في الجنة؟

ـ طبعًا في الجنة، والا ماذا تظنّ، في الجحيم؟

ـ وما الفرق؟ راحة الجنة أسوأ من تعب الجحيم، الانسان ميسّر لما خلق له، وأنت ميسّر للتعب لأنّه أفضل من الراحة، هذه التي عافتْها حوّاء، أمّنا، بسبب من بلادتها، أي الراحة، وكانت حواء مقدامة، كما هي حال المرأة دائمًا، فأغرت آدم بأكل التفاحة، وهبطت معه إلى دنيانا، حيث الكفاح مع التعب، أفضل من الراحة مع الكسل، فهل عرفت، الآن، خطل تفكيرك؟ دع الدرب المستقيم، واتبع

الطرق المعوجّة، ففيها اللذات جميعًا، وأنت مغرم بها، في سرّك على الأقل!

عاد دعبس إلى التفكير، مستغربًا كيف دار به الوطواط دورة بمئة وثمانين درجة، وكشف له بسهولة عن المضمر في ذاته، وهو حبّه للذّة، وفي أيّ شكل كانت، شريفة أو ماخوريّة، نازعًا، بلطف ناعم جدًا، قناعه الكرنفاليّ. وما تحته، بمثل ما تحت الحجر، من دود الأرض الذي ينغل، في أمن، ظنًّا منه أنه في أمان، لأن أحدًا لا يخطر له أن يقلب الحجر، ويعاين ما تحته «خطأ! قال دعبس بغير صوت، خطأ أن يظنّ المرء أن في وسعه أن يحتفظ بقناعه، وأن يعلن غير ما يبطن، إلى ما لا نهاية!». أضاف: «قال لي الوطواط: «صالح نفسك» وهو في الاستبدال، كان مخاتلاً، حين قال لي: «لا تصالح نفسك، فهي أمّارة بالسوء!» دهاء! وهذا الدهاء يقوم على فهم نفسيّ بالنسبة للإنسان، فالقاعدة، ههنا، أن الإنسان يفعل عكس ما يُؤمر به، فلو قال لي: «أنت على صواب في عدم المصالحة!» لكان أغراني بالمصالحة، وهذا ما يريده بالذات، إلا أنّه، في احتيال خبيث، اعتمد العكس، ليوقعني بما هو عكسه، وقد فطنت إلى ما يريد، وحاورته من منطلق التقابل، كي أوهمه أنني خُدعت، زاعمًا «أن الإنسان الصالح، أو حتى الذي يسعى إلى الصلاح، لا يأتمر بالسوء، اذا ما راودته نفسه عليه، فهل نجحت، ترى، في كشف لعبة الذكاء، بلعبة ذكاء أكبر؟!»

ـ نعم نجحت، قال الوطواط من مكمنه.

أضاف:

ـ غير أن النجاح، يا دعبس، يحتاج إلى تثبيت، والثبات يؤدّي إلى التحجّر، وهذا ضد التغيير الذي تزعم أنك طالبه.. دَعْ عنك هذا العناء، فما هو كائن سيظل كائنًا، وعبثًا تسعى، وعبثًا يسعى الآخرون، في طلب تغيير لن يكون إلا نحو الأسوأ، واليك مثلاً، لا يحزّ حزًا، بل يقطع قطعًا، ففي بداية هذا القرن كان تغيير كبير، سفكت لأجله دماء غزيرة، لكنها، وأنت تعرف ـ اهدرت، تقريبًا، من غير ما فائدة، فالتغيير فرّخ، مؤخرًا تغييرًا ضدّيًا هذه المرة، ولو علم الذين ضحّوا، موتًا على أعواد المشانق، أو تعذيبًا في أقبية السجون، أن تضحياتهم ستهدر، لأحجموا، ربما، عنها، ولو أدركوا قبل فوات الأوان، أن بعض الذين قادوهم إلى هذا المصير البائس جدًا، سيخدعونهم أو سيهدمون بناءهم، لخنقوهم بأكفّهم ذات الأصابع المتوتّرة من غضب، المتشنّجة من حنق، وخلّصوا العالم من شرورهم، نعم! من شرورهم! لأنهم تسلّلوا قبل الانهيار بقليل، إلى مراكز القيادة بدعوى إعادة البناء، فنسفوا البناء دفعة واحدة!

قال دعبس الفتفوت، مع ابتسامة إشفاق:

ـ وبعد؟!

أجاب الوطواط:

ـ التحرّر!

ـ ممّ!؟

ـ إذا كنت تعرف، وأنت تعرف من غير شك، فلماذا تسأل؟

ـ لأن كلمة «التحرّر» مغرية، لكن استعمالك لها، في الحق الذي يراد به الباطل، يحتاج إلى إيضاح، وكم أنا بشوق إلى مثل هذا الإيضاح، اذا تكرّمت! لأن الذي انهار على إحدى الضفّتين، سيكون له انهيار مثيل على الضفّة الأخرى، الأشدّ فسادًا، والأعمق نظامًا، في بنائها القائم على الاستغلال، والمضادّ لمسار التاريخ!

قال الوطواط وقد خرج من وكره:

ـ ألمس تحوّلاً مريبًا في موقفك مني! هذه الكلمة: «إذا تكرمت!» لغة جديدة! إلى أين من هنا!؟

ـ إلى التفاهم!

ـ حول ماذا؟

ـ حول سوء التفاهم طبعًا! فقط كنتُ، منذ جئتني، نفورًا منك، كارهًا منظرك، محتقرًا حديثك، وكنت أنا مخطئًا، وعليّ الآن إصلاح هذا الخطأ، فتقبّل اعتذاري، وتعال اجلس، أو قف، على مكتبي، لنتفاهم بهدوء، من خلال حوار مفتوح، وخلاف لا يؤدّي، بالضرورة، إلى اختلاف، إننا يا عزيزي، في زمن آخر، الحوار أساسه، والانفتاح على الآخر قاعدته، وعدم التخوين الجاهز عنوانه الكبير، فقد بشمنا من الكلمات المستهلكة: مثل العمالة، والمؤامرة، والتآمر، وردّ كل سبب، في كل قضية، إلى دافع خارجي فقط! هذا هو، أيها الوطواط، الجديد الآن، والجديد أفضل دائمًا من القديم كما تعلم،

فلماذا نخافه؟ التجديد صنو التغيير، وقد تجدّدت، أنا نفسي، دافعًا الثمن الغالي، لافتداء أخطائي السابقة، وكبُرْهان على صدقي ـ وعلى اعترافي الكامل والصادق بالخطأ، أسحب ما قلته عن قبحك، وعن سواد طويّتك، لأنه اتّهام متسرّع، ولشدّ ما عانينا من الاتهامات المتسرّعة، المعطّلة لكل اتفاق، حتى مع الاختلاف، لأنه ثمة نقاط التقاء دائمًا، بين الآخر والآخر، اذا ما كانت النوايا صادقة، كما هي حالي الآن.

* ضحك الوطواط، قهقه، خرج من وكره وطار، ارتطم بالجدار، ارتدّ فارتطم بالجدار المقابل، قال متوسلاً، وهو يعلم أن دعبس يكيد له، ويتملّقه ليتمكّن منه:

ـ أرجوك يا دعبس، يا صديقي، أن تطفئ النور، لأنه يعشيني كما ترى، فلا أستطيع حتى رؤيتك أو رؤية مكتبك الذي تجلس وراءه، وتدعوني، مشكورًا، للجلوس، أو الوقوف عليه، فاذا فعلت ذلك، كبادرة لحسن النيّة، أكون ممتنًا، مستعدًا للحوار، وللنقاش، وللتفاهم.. هذه الأشياء التي تجري كلّها في السرّ، أي في الظلمة، أو في الخفاء، تحسّبًا من لصلصة السمع، أو احتياطًا من التنصّت، بأجهزة مبتكرة، غاية في الاتقان، وبالمناسبة، احذر الجدران، احذر الهاتف، احذر الصداقة، احذر الفضاء، احذر الأرض وما عليها، لأن كل شيء أصبح ملغومًا، وبالأجهزة الإلكترونية الدقيقة جدًا، الناجعة جدًا، التي بواسطتها لم يعد هناك ما هو مأمون.. ولولا خشيتي من قلّة الأدب، مع إنسان مؤدّب وفاضل مثلك، لقلت لك احذر سريرك،

وفتّش الغطاء الذي عليه، كل صباح وكل مساء، فقد يكون، ومن يدري، مزروعًا بجهاز تنصّت، ينقل حتى ما يجري، أو يقال، بينك وبين زوجتك في الفراش.

قال دعبس ساخرًا:

ـ ما أطيب نصائحك أيها العطوف الشفوق! ومنذ متى تغار عليّ أو على سواي، وتسعى جاهدًا لحفظ أمننا وسلامتنا!؟ هذا الذي تقوله نعرفه ونتحرّز منه، والمسألة، بعد، في أيّ بلد يجري ما تقول؟ الأرجح أنه في جزيرة سرنديب، حيث يقوم الكمبيوتر، ذاتيًا، باصطياد السمك تارة، واصطياد البغاث طورًا، ويقلي الجميع في مقلاة واحدة، كوجبة شهيّة للأدمغة الإلكترونية التي تشقى لإسعادنا!

ـ تضحك مني؟

ـ أضحك عليك.. أنت تريد إخافتي، لكنني لا أخاف، اطمئنّ.. أعرف، أكثر منك، مجرى التاريخ، وأتقدّم باتساق معه، لأن ذلك ما يجب، رغم مكر التاريخ أحيانًا، ثم لأن ذلك هو الدرب المستقيم، الذي لا بد أن يكون، حين يستقيم التاريخ، دربه أيضًا!

ـ وإذا لم يستقم التاريخ بعد اعوجاجه؟ وإذا قلت لك إن دربك ليست دربه!؟

ـ تكون كاذبًا!

ـ أنا لا أكذب!

ـ هذا صحيح، إذا ما أخذنا في اعتبارنا أنك أمين للمهمّة المكلف

بها: التضليل! نصيحة: ابحث عن ضحيّة غيري! حكمة: لا تغترّ، أو لا تبالغ في اغترارك، لكونك الوسواس الخنّاس، فهناك الكثير من الصدور المصفّحة، التي ترتدّ عنها خاسئة، خاسرة، مدحورة، نصالك المسمومة... ماذا بك؟ هل أنت مصاب بالبرداء؟

ـ قليلاً! ومؤقتًا!! متى تهبط الظلمة؟

ـ قل متى ينبلج الصبح الذي نحن معه على موعد؟

ـ هذا سؤال كريه!

ـ لكنه ليس سؤالي.. إنه سؤال التاريخ.

ـ اللعنة على التاريخ!

ـ ومن فمك أدينك، مرة وإلى الأبد!

زعق الوطواط:

ـ لا! ليس إلى الأبد! ليس إلى الأبد!

ـ ٣ ـ

انداحت السكينة في مكتب دعبس الفتفوت، بعد أن خفتت زعقات الوطواط: «ليس إلى الأبد! ليس إلى الأبد!»، وغمرته فرحة المنتصر حين رأى الوطواط يرتطم بالجدار، ويسقط على الأرض، وهو يرتعش احتضارًا، قال في ذاته:

ـ لماذا سقط هذا اللعين على الأرض، وماذا أصابه؟

قالت ذاته:

ـ لأنك رميته بسهم التاريخ!

ـ وهل للتاريخ سهام!؟

ـ التاريخ سهم بذاته، وله من ذاته سهام لا حصر لها، مصوّبة دائمًا إلى صدور أعداء التقدّم والعدالة الاجتماعية!

ـ هذا سلاح جيّد إذن؟

ـ إذا أحسن الإنسان استخدامه!

ـ وكيف يُحسن الإنسان استخدام سلاح التاريخ؟

ـ اذا وعى جيدًا منطقه.

ـ وما منطق التاريخ؟

ـ الحقيقة في نسبيّتها!

ـ ولماذا ليس في كمالها؟

ـ لأنها، عندئذ، يأكل بعضها بعضًا!

ـ لم أفهم!

ـ تعرف بيت الشعر الذي يقول: «لكل شيء إذا ما تمّ نقصان»؟

ـ هذا من الشعر الأندلسي القديم.

ـ القـديم يكون جـديدًا، اذا حـمل إضـافـتـه من الماضـي إلى الحاضر، إليك مثلاً: شعر المتنبي!

قال دعبس الفتفوت لذاته:

ـ لا تمكري بي! ابتعدنا عن الموضوع.

قالت ذاته:

ـ نحن في قلب الموضوع.

ـ كنا نتحدث عن التاريخ، فصرنا في الحقيقة: نسبيّة أم كاملة!؟

ـ وماذا ترى أنت؟

ـ عشت أكثر عمري على يقين من أن الحقيقة كاملة!

ـ وبعد ذلك؟

ـ يعزّ علي تبديل يقيني.

ـ جبان! التبديل سنّة الكون، ولن تجد لسنّة التبديل تبديلاً.. أم

تريد، لمجرد معزّة يقين خاطئ، أن تبقى على خطئك؟ ثم إن يقينك هذا الذي تدّعيه كان سذاجة كفيفة، اذا لم أقل إنه كذبة كبيرة، وهذه الكذبة كانت المعول الذي ظلّ يضرب في أساس البناء العتيق حتى قوّضه، وحسنًا فعل!

قال دعبس الفتفوت:

ـ الذين قوّضوا البناء يبكون عليه الآن.

ـ حين ينهض البناء الجديد، على أنقاض البناء القديم، سيكفّون عن البكاء، ولكن انتبه! البناء الجديد سيكون مختلفًا في الأسس والتوجّهات، وفي تعاطيه مع المتغيرات، ذلك أن التاريخ لا يعيد نفسه كما تعرف، أو كما قلت لك سابقًا.

قال دعبس لذاته:

ـ تعنين حركة التاريخ اللولبيّة في ارتفاعها إلى أعلى؟ أنت غبيّة إذا كنت تظنين أن هذا مجهول من أحد!

قالت ذاته:

ـ هناك، يا دعبس، أغبياء كثيرون في هذه الحياة.. هؤلاء يعاندون، ينطحون الصخر كالوعل الذي يحطم قرنيه دون جدوى.. يقولون، ويصرّون، أن ما كان سيرجع ثانية، وبالشكل نفسه. لا شيء يرجع بالشكل نفسه، في الطبيعة والحياة. الذي انهار كان بناء من خشب قرضته، على مهل سوسة الزمن، دون أن ينتبه هو، قصدت البناء الخشبيّ، ودون أن ينبّهه أحد إلى ما فيه من سوس يقرضه. كان ثمة مديح، مديح، مديح، وكان هذا، درى أصحابه أو لم يدروا،

نفاقًا أساء إلى ذلك البناء، فعجّل في تقوّضه.. هنا، يا دعبس، تتشاكل نسبيّة الحقيقة والتاريخ، هذه التي خدعوا، أو كابروا في أمرها، وهنا مكر التاريخ، كمكر هذا الوطواط الخبيث الذي تحسبه جثة، وما هو كذلك، لأنه حيّ، يصغي إلى ما نقول، ويتدبّره بأناة، كي يخبث به بعد ذلك.. وختامًا ارغب في أن أطرح عليك هذا السؤال: لماذا لا ينتفع الناس، بعض الناس، بدروس التاريخ؟

قال دعبس ساخرًا:

ـ هل هذا درس في علم الاجتماع، يا أنت التي هي أنا كما تزعمين؟

قالت ذاته:

ـ كَوْني أنا هو أنت أمرٌ لا زعم فيه. لكنك عبثًا تبحث عني في علم وظائف الأعضاء، أو علم التشريح الطبيّ، أنا موجودة فيك دون تموضع. ليس لي موضع في جسمك، رغم أنني موجودة، ومنذ ولادتك، في هذا الجسم، وسأبقى فيه حتى مماته.. أما أن الناس، أو بعضهم، ومن بعض الحكام طبعًا، لا ينتفع بدروس التاريخ فهذا من البدهيات.. أسألك: أي قيصر انتفع من تجربة القيصر المجنون الذي اسمه نيرون!؟ لا أحد!

تحرّكت جثة الوطواط، دفّ بجناحيه اللحميين وطار، تخبّط بين الجدران، اختبأ في نتوء ما، وقال دون أن يُرى:

ـ نيرون كان على حق، أحرق روما لأنها كانت تستحق الحرق.. إنه قيصر عاقل وخيّر، ورعيّته هي التي كانت فاسدة، الفساد، يا

دعبس، في الرعية يكون أو لا يكون، هذا هو الدرس الأكثر فائدة في التاريخ.. احذر، وللمرة العاشرة، من وساوس ذاتك التي هي نفسك، اطردها، أو دعها تطرد نفسها، فقد اختفت منذ تحرّكت أنا، خشية أن أفضحها.. الحقيقة، يا دعبس، مطلقة، والتاريخ يعيد نفسه دائمًا، والبناء القديم يعود على الشكل الذي كان عليه تمامًا، وكل ما عدا ذلك ترّهات!

تلخبط ذهن دعبس الفتفوت، فكّر بما سمع، حلّل الأقوال كلمة كلمة، شكّ في أن تكون ذاته، التي هي نفسه، على حقّ، وشكّ في أن يكون الوطواط، في وسوسته وخناسته على حقّ، وشكّ، للمرة الثالثة، في أن يكون هو، في تحليله قد وُفّق إلى تحليل مقبول أو معقول، أيقن، الآن، أنه توما الشكّاك، وأن شكّه علّة عصيّة على الشفاء، مستشعرًا التعب، وفي تعبه كُره الدنيا، وكُرهِ، لذلك، نفسه، لأنها أصل البلاء، وفي هذه اللحظة رأى سوسة تدبّ على الأرض، سائرة نحوه بدبيب كدبيب النمل. صاح بها:

ـ إلى أين؟

ـ إليك!

ـ أنت؟

ـ تستصغر شأني!؟ تذكّر الملك سليمان.. أنا التي أعدت الإنسان فيه إلى طبيعته بالموت!

ـ الموت حقّ علينا جميعًا.

ـ الملك سليمان، في حكمته، رغب في الحكم حيّاً وميْتًا.. كان

جالسًا على كرسي حين توفّي، يستند إلى عصاه، فظنّه مَنْ حوله حيًا، ومن فرط هيبته، ورهبتها، لم يجرؤ أحد من الانس أو الجن أو الطير أو الحيوان الدخول عليه، لكنني أنا، السوسة، تجرأت.. احترم اذن التي تتكلم معها.

ـ أنا لست ملكًا، وليست لي عصا، أو هيبة، وأرغب، حين أموت، أن يُعلن موتي فورًا، ففي هذا الإعلان أستريح، بعد الدفن، في أحضان الثرى، اذن ماذا في وسعك أن تفعلي معي، جريئة كنت أو جبانة؟

ابتسمت السوسة من إشفاق، أو هكذا خيّل إلى دعبس الفتفوت. كان يعرف أن السوسة تسلّلت إلى غرفة الملك سليمان، وقرضت خشب عصاه، فتهاوت، وتهاوت معها الجثّة، وعندئذ عرف الجميع أن سليمان الحكيم قد مات، وبموته انتفت هيبته، ودبّت الفوضى بين الإنس والجن والحيوان من حوله، لكن ما غاية السوسة من التذكير بهذه الحكاية الآن؟ أهي التبجّح بالشجاعة؟ أم إفهامه أنه، هو أيضًا، سيموت؟ حسنًا، قال دعبس في سرّه، أنا لا أخاف الموت، وأزعم أني لا أخشاه، شريطة أن يكون موتًا هادئًا، وأن يأتي بسرعة، فما بال هذه السوسة الحقيرة تخيفني بما لا أخاف منه؟ دويبة الأرض هذه، والتي تكاد لا ترى، مغرورة إلى حدّ الانتفاخ الضفدعيّ، وعليّ أن أنفّس الهواء الذي فيها قليلاً، كي تعود إلى حجمها الطبيعي!

قالت السوسة:

ـ إلى أين.. من هنا، أيها المعتوه الذي يدّعي أنه يكره نفسه، وفي الإضمار يحبّها حبّاً غرورًا؟

قال دعبس:

ـ إلى لا مكان! حتى إنني راغب عن التحرك من موضعي، لأنني «ابلومــوفيّ»* بامتياز.. ماذا تريدين بعد؟ أن أخافك لأنك قرضت عصا سليمان، وتتباهين بفعلتك الشنيعة التي تسبَبتْ بالفوضى في مملكته!؟

ـ أنت غبيّ يا دعبس!

ـ صحيح!

ـ وأنت ثرثار!

ـ صحيح أيتها السوسة!

ـ وفشّار!

ـ صحيح أيضًا!

ـ ولهذا كله فانك تحتقرني، مع أن الحقارة في نفسك وحدها.

ـ وهذا صحيح أيضًا وأيضًا! وبعد، مرة أخرى!؟

ـ تهزأ مني؟

ـ تهزئين من نفسك بنفسك وتتهمينني!؟ عرفت «مأثرتك» التاريخية الأولى، فما هي، يا شاطرة، «مأثرتك» التّاريخيّة الأخرى؟

ـ قل مآثرك التّاريخيّة الأخرى.

ـ هَهْ.. هناك مآثر تاريخيّة لا أعرفها؟

---

* ـ بطل رواية ابلوموف للكاتب الروسيّ غونتشاروف

ـ تأدّب يا دعبس! الله وضع سرّه في أصغر خلقه.

ـ هذه أعرفها أيضًا.

ـ أنت لا تعرف شيئًا، وتدّعي معرفة كلّ شيء.

ـ هذه قديمة!

ـ لكنها تتجدّد كل يوم!

ـ تجدّدها يلذّ لي جدًا.

ـ والندم الذي يعقبها؟

ـ مجرد حكّة اعتدتها.

ـ تعذّب بها إذن واسمع ما أقول.

ندّ صوت عن الوطواط الذي يختبئ في نتوء ما من الغرفة:

ـ نعم! اسمع ما تقول السوسة يا دعبس.

ـ شريكتك؟

ـ حكمتي البغيضة!

ـ بأيّ معنى؟

ـ بالدأب الذي لا ملل فيه.. تعرف كم من الأعوام أنفقت في قرض عصا سليمان؟

ـ لا أعرف.

ـ وأنا أيضًا!

ـ اذن دعك من تفسير الماء بالماء.. اخرس!

قالت السوسة:

ـ رجوع الماء إلى الماء باطل، لذلك فان تفسير الماء بالماء وارد.. تذكّر ابنتيْ لوط، وما قاله الشاعر عن إرجاع الدم إلى الدم، وبشكل شهيّ جدًا! هل هذا لا يحتاج إلى تفسير أيضًا؟ في رأيي: نعم! يحتاج! ولكن دع عنك هذا، والوطواط أيضًا.. فكر معي، يا دعبس، بالبناء الشامخ الذي تقوّض في مكان ما من هذا العالم، فكان لتقوّضه هزّة رجّت كل سلطة في كل بلد، وتساءل: لماذا حدث ذلك؟ أنا أخبرك: إنه سوس الفساد، وتملّق أمثالك. هنا النقطة الأساس: المساءلة ثم النقد، ولأن أحدًا لم يسأل، وأحدًا لم ينقد، فقد أتيح لي المجال كي أتسلّل، في غفلة عن الجميع، وأقرض خشب بناء ذلك العالم الذي انهار.. أنا فخورة بانجازي، وأنت حزين، بل متألّم، بسبب من هذا الإنجاز الذي أدّى إلى الانهيار، كلمة: المساءلة، ثم المساءلة، والنقد، ثم النقد، ثم النقد، وآمل أن تترسّخ هذه الحكمة في ذهنك وأذهان الآخرين، أم أنك لا تزال تحتقرني، وتحتقر، تاليًا حكمتي!؟

قال الوطواط من مخبئه:

ـ احتقر الاثنتين يا دعبس.

قالت السوسة:

ـ أغلق فمك اللحميّ الكريه يا ابن الظلمة، ففي مملكة سليمان الحكيم، كنت أنت الوحيد المحتقر، بين جميع الذين كانوا على شيء كثير أو قليل من كرامة... وفي المأثورات الشعبية، منذ كان وعي الوجود، كنت رمزًا للنفرة والتقزّز في هذه المأثورات.

قال الوطواط:

ـ مهما يكن، فإنني نافع لشيء ما.. أنا ابن توازن الطبيعة!

ـ كلنا أبناء توازن الطبيعة، وإلاّ اختلّ ناموسها، لكنك، أنت، كريه في هذا التوازن، لأن دورك أن تصطاد البغاث في الظلمة، وأن تمتصّ الدّماء، يا مصّاص الدماء! أَشعل المزيد من الأضواء يا دعبس، وأبقها مشتعلة، وبذلك تقضي على هذا النتن.

أشعل دعبس المصابيح كلها، ودفعة واحدة، صات الوطواط:

ـ أطفئها! أكاد احترق!

قال دعبس بقسوة شماتة:

ـ وأنا أريدك أن تحترق!

ـ ستندم إذن، أنت بحاجة إليّ.

ـ كي تمتصّ دمي!؟

ـ لست الوحيد مَنْ يمتصّ الدماء.

ـ ولكنك، أنت، من علّمت الآخرين امتصاص الدماء!

ـ معنى هذا أنني عظيم! نعم إنني عظيم!

ـ الحقير لا يكون عظيمًا.

ـ هذا في مقياسك وليس في مقياس الطبيعة

قالت السوسة:

ـ هذا صحيح يا دعبس! علينا، جميعًا، أن نخضع للطبيعة.

ـ الإنسان قاهر الطبيعة.

ـ أنت واهم في هذا.. الإنسان قهر الطبيعة، لكن الطبيعة تقهر، من حين إلى حين، الإنسان أيضًا، تنتقم منه بشكل رهيب!

ـ أنا أومن بقدرة الإنسان الكلّية، وإذا كان لم يقهر الطبيعة تمامًا، فسيأتي اليوم الذي يقهرها فيه، أو يدفع عنه أذاها بصورة نهائية.. العلم، أيتها السوسة، في تقدّم مستمر، والذي لم يكتشفه الآن سيكتشفه غدًا.

ـ من يسمع هذا يحسبك في المتفائلين، أيّها المتشائم الأكبر.

ـ بعض التفاؤل حَمَق.

ـ وبعض التشاؤم حَمَق أكبر..

ـ إذا أخذنا الأشياء بموضوعية، تجنّبنا الحمق في الحالتين.

قالت السوسة:

ـ نغمة «الموضوعيّة» هذه أعرفها، لاكها قبلك الكثيرون، لكنهم لم ينتفعوا بها.. بعض أصحاب ذلك العالم الذي انهار الآن، اقصد الذين زيّنوا «إعادة البناء والعلنية» كانوا أكثر الناس كلامًا عن «الموضوعية» تذكرُ هذا أم لا؟

ـ أذكره!

ـ لماذا إذن سدّوا آذانهم عن سماع الذين انتقدوا «موضوعيّتهم» تلك!؟

ـ لأن أحدًا، كما قلتِ، لم ينبّه، يصرخ، يفضح، زيف هذه «الموضوعية» بشكل عميق وجذريّ، في الوقت المناسب!

ـ ولماذا كان الخلاف اذن مع دولة أسيوية كبرى، قالت إن بعضهم تبرجز، فانكروا ذلك وكابروا، وأخذتهم العزّة بالإثم، أخذًا أحدث شرخًا عميقًا؟ الآن، يا دعبس، لم يعد ثمة من يماري في أن افرادًا من قيادة ذلك العالم الذي انهار، كانوا بورجوازيين حقًا، أثرياء حقًا، تقول عنهم صحف كبرى إنهم أفضل زبائن المنتجعات الأوروبية الراقية، وإنَّهم أكثر المودعين دسامة في المصارف السرية الشهيرة، وأَبذخ من يبذر المال تبذيرًا! هؤلاء، يا عزيزي، كانوا مستترين، يتحيّنون الفرص، فلما واتتْهم، أعلنوا مقولة «إعادة البناء»، ودفعة واحدة، بينما تلك الدولة الآسيوية الكبرى، لم تقل بـ «إعادة البناء» عن طريق الهدم، وانما أجرت الاصلاحات شيئًا فشيئًا، فنجحت هي وأخفقوا هم!

قال دعبس:

ـ على فرض أنهم كانوا كذلك، وأنهم تسبّبوا في ذلك الانهيار الكبير، فما شأنك أنت؟

ـ شأني أنني قرضت أخشاب هيكلهم، وقوّضته على رؤوسهم، فكانت الكارثة.. هل رأيت الآن، أو هل أيقنت الآن، أنني، أنا الدويبة الحقيرة، أعظم من بلقيس ملكة سبأ ذاتها؟ هذه تأبّت على الملك سليمان، لكنها، في زيارتها له، جعل منها سخرية، حين رفعت ذيلها ظنًا منها أنها تمشي على ماء، وكانت تمشي على رخام له تموّج الماء وصفاؤه، ورغم ذلك لم ترضخ، فاصطنع لها حجة الظمأ، في مروره بجناحها ليلاً، كيلا يفصح عن حبّه لها، أو رغبته فيها، على أمل أن تبادر هي، فلم تبادر، إما لشدة الكبرياء، أو لشدّة الغباء.

ـ هذه أساطير!

ـ كل أسطورة تجربة مكثّفة، مركّزة، لشعب من الشعوب.. ليس من حكاية، أو حتى خرافة، مجانيّة، إذا كانت تحمل عِبرة ما، وهي تحملها دائمًا ودون أن نفطن إليها، أو دون أن تفطنوا أنتم، يا عمالقة الأجسام وصغار العقول!

لم يدافع دعبس الفتفوت عن نفسه، أو عن غيره، كانت السوسة، الآن، قد تعملقت، بينما تقزّم هو، بسبب من أن السوسة بدت أرجح عقلاً، أصوب قولاً، ودورها، في ردّ الأشياء إلى طبيعتها، والناس إلى طبائعهم، أثبت تميّزه، وهذا ما قاد دعبس، من حيث لم يفطن، إلى الاستياء من نفسه، وتاليًا إلى كرهها كرهًا أشدّ، متعزّيًا، على نحو ما، بأنه اكتسب خبرة، وازداد وعيًا، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك، معترفًا أنه تعلّم درسًا، مفاده عدم احتقار الكائنات، حتى ولو كانت من دويبات الأرض، فالمسألة، في المعرفة، معيارها العقل لا الجسم، وعندما عاودته الحكّة، أمعن في تجريح نفسه، مُقرّاً أن الوطواط، على قزازته، لقّنه درسًا في توازن الطبيعة، وأنه، الوطواط، نتاج هذا التوازن، ويحسن به، هو دعبس، ألاّ يغترّ، وألا يحتقر غيره، ويكفّ عن ادّعائه، المبطّن بالبله، أنه أفهم من الآخرين! وحين بلغ في تأمّله هذا الحدّ، صات الوطواط من جحره في نتوء الجدار قائلاً:

ـ بلى! أنت أفهم من الآخرين، ومن المؤسف أن السوسة الحقيرة خدعتك يا دعبس، لكن ندمك على أنك خُدعت لن يطول، لأنّ غرورك الهاجع لا بدّ أن يستيقظ، وبأسرع مما تظنّ، أطفئ المصابيح، أو

بعضها، لأنك لن تبلغ أن تحرقني بالأشعّة المنبعثة منها، فمقاومتي للاحتراق أشدّ من مقاومتك له.. كن عاقلاً واسمع نصيحتي، فان لك كلامًا عندي، ومن النوع الطيّب، الأفضل أن تسمعه قبل أن نفترق، بعد كلّ هذا الوقت الذي أنفقته معك، وكان غيرك أحقّ به، صدّقني!

ـ بودّي أن أصدِّق أنّ لديك كلامًا طيّبًا، لكن القبيح خلقةً، لا يكون لديه إلاّ قبح الكلام، فاذا زوّقه، لغاية ما، كان تزويقه وسيلة لهذه الغاية التي هي نَفْث في العقد.. ومن المؤسف أنك نجحت، في ما سلف، بالاختباء بين جلدي ولحمي، وتآمرت مع نفسي عليّ، حتى أقنعتماني بأن نقائصي فضائل! السوسة تملك الحكمة، وأنت تملك الحكمة المضادّة، أنت كالجلاّد الذي يشدّ رجلي المشنوق إلى تحت، ليلفظ أنفاسه بسرعة، والفارق الوحيد بينكما، أن الجلاّد يحيل أنفاس ضحاياه إلى رزق، يعتاش هو منه، أما أنت فإنّك تمتصّ دماء ضحاياك انتقامًا..

ـ هذا هراء يا دعبس، كلانا، الجلاد وأنا، نطلب رزقًا نعتاش منه.. أنت تخلط بين من يعتاش ومن يقتل، البشر وحدهم مصّاصو دماء بغير مبرّر، بعضهم يمتصّ دمًا بشريًا حقيقيًا لأنه مجرم، وهو، غالبًا ينال عقابه، أما مصّاصو الدماء الآخرون، الذين يستغلّون الناس بطرائقَ شيطانيّة، ويسلبونهم حقّهم ولقمتهم، بألف وسيلة ووسيلة، فإنهم ينجون من العقاب، لأن ما يفعلونه، في نظر القانون ليس ركنًا في الجريمة.. قل لي مَنْ يصنع القانون، أقلْ لك لمصلحة مَنْ!

ـ لكن الضحايا هم ضحايا في الحالين.

ـ لا! ليس في الحالين، ضحايا الذئاب ليست كضحايا الصيّادين المترفين، الذئب، مثلي، يقتل ليأكل. لكن النبيل يقتل الطريدة ليتريّض، فهل يستوي الفعلان، والدافع إليهما يختلف؟ المعرّي، شاعركم وفيلسوفكم، وصفوا له، وهو مريض، فرخ دجاجة، فماذا قال للفرخ؟ قال له: «استضعفوك فوصفوك...» والباقي تعرفه.. استضعاف الضحايا إحدى رذائلكم! أنتم تصفون وحوش الغابة بالوحوش الكاسرة، بينما أنتم أشدّ وحشية في «غابات» استثماراتكم.. الإنسان، يا دعبس، أكسر من الوحش، وقانون الحيوان في الغاب هو قانونكم نفسه: القوي يأكل الضعيف! إلاّ أن الوحش القوي يأكل ليشبع، بينما الانسان القوي يأكل لا ليشبع فقط، بل ليكنز أيضًا! إنكم جميعًا وطاويط «ظلمة» فلماذا احتقاركم لنا ونحن من فصيل واحد؟

قال دعبس:

ـ لا! لسنا من فصيل واحد!

ـ أنت على حق في التعميم، وعلى باطل في التخصيص، والفرق، هنا، بيّن.

ـ الفرق في التشكّل الخلقي بيّن أيضًا.

ـ لكن الخالق هو واحد، وأنت، لا تستطيع إنكار هذه الحقيقة.

ـ الخالق، سبحانه وتعالى، سخّر بعضًا لبعض، ثم «لله في خلقه شؤون»

قال الوطواط:

ـ إذن أنا أيضًا أدخل في هذا الخلق، وأنا راضٍ بالشأن الذي كتبه الله لي، واذا كان للسوسة روح، ولك روح، وهذه الروح واجبة الاحترام، فإن روحي تقتضيك أن تحترمني، فعلامَ كلّ هذا الازدراء، وأنا لك نصوح!؟

قالت السوسة:

ـ لا تُصْغِ إلى نصائح هذا الماكر.

ـ أنا أمكر منه.

ـ لا تغترّ.

ـ تعرفين أنني إنسان متواضع.

ـ تواضعك مبطّن بالغرور.

قال دعبس بَرِمًا بالسوسة:

ـ لا تكوني ماكرة أنت الأخرى.. حدّثْتني عن «مآثرك» في نخر الخشب المسنّدة، من عصا سليمان الحكيم إلى هيكل أصحاب «الموضوعيّة» العلنية! وكيف انهار البناء القديم لأنك قرضت أعمدته، لكنني أريد أن أقول لك، استبدالاً، لا تغترّي أنت أيضًا! بناء ذلك العالم القديم كان لا بدّ أن ينهار، بك وبدونك، وأحسب أنك تعرفين المقولة الفقهيّة «ما بُني على فاسد فهو فاسد» لقد كانت تجربة واحدة، تجربة فاسدة، أو إنها، على الأقل، صارت مع الأيام فاسدة مع «إعادة البناء» ومصير الفساد إلى انهيار، غير أنها كانت تجربة

واحدة، لثورة عظمى واحدة، ولها، في انهدام تجربة وانبثاق تجربة، مثل سابق في التاريخ هو الثورة الفرنسية، فقد تعاقبت تجاربها بين جمهورية ملَكيّة، إلى أن ثبتت الجمهورية، وهذه كانت لها سابقات، أما تجربة ذلك البناء الذي انهار فلم تكن لها سابقة، كانت رائدة، ومع الريادة، على أهميّتها، تكون الأخطاء والأخطار أحيانًا، غير أن الفساد، في الطرف الآخر، المعادي لتلك التجربة، وفي بلدان أخرى مماثلة في عدائها، أكثر استشراء، والانهيار، في الطرف الآخر هذا، لا بد منه، مهما حدث!

قالت السوسة:

ـ تكلّم بهدوء.

قال دعبس:

ـ لا أعرف أن أتكلّم بهدوء.. أريد ذلك فلا أستطيعه... تغلبني الحماسة! لقد تمنّيت، عمري كلّه، أنْ أكون هادئًا، وقورًا، رصينًا، أتكلّم بما يشبه الهمس، أتأنّى في اختيار الكلمات، أكون رزينًا في سيري وحديثي وممارسة الحبّ أيضًا.. وعلى فكرة: هل تمارسين الحبّ أنت أيضًا؟

ـ بدأت تتباذأ؟ هذه أشياء لا تُسأل عنها الأنثى.

ـ لكنني، أنا، أسأل لأعرف.. هل تمارسين الحبّ وكيف؟

ـ كما تمارسه النملة.. هل طرحتَ هذا السؤال يومًا على نملة؟

ـ لم يكن لي حظّ محادثة النملة يومًا، وعندما يحدث ذلك سأسألها.. إنني باحث عن المعرفة، وفي هذا الشأن تخصيصًا!

ـ شأن ممارسة الحبّ؟ يا لك من إنسان غريب وطريف!

ـ ممارسة الحب من قبل دويبات الأرض، وبغاث الطير، وحشرات الأرض الصغيرة.. هل أنتِ آنسة أم سيّدة؟

ـ وما الفرق؟

ـ البكارة!

ـ هذه التي من ابتكار الإنسان؟

ـ وعليها يتوقّف شرف البنت.

ـ وشرف الرجل؟!

ـ الرجل في مجتمعنا الذكوري شريف ولو كان فاسقًا.. وأنتم؟

ـ نحن لسنا في مثل تخلّفكم.. الأشياء هذه عندنا طبيعيّة، تتوقّف على الرغبة المتبادلة.. ولكن لماذا تسأل عن هذا الموضوع بكل هذا الإلحاح؟

ـ لأنني في صدد إعداد رسالة جامعية عن ممارسة الحب عند النمل، والعث، والبرغش وغير ذلك، وبودّي أن أعرف هل معرفة ممارسة الحب عند من ذكرت فطرة أم تعلّم؟ وما هو مقياس تذوّق الجمال؟ وهل تُعرف الجميلة من القبيحة؟ وهل ينطبق هذا المقياس على الذكر أم على الأنثى وحدها؟ وما هو معيار الوفاء الزوجيّ اذا كان هناك زواج؟ وما مدى العقاب على الخيانة الزوجية بين هذه الفصائل وغيرها؟

ضحكت السوسة وقالت:

ـ هذه أسئلة أسمع بها للمرة الأولى، وأراها مخالفة للطبيعة، ومعاقبًا عليها من الطبيعة ذاتها، والعقاب يكمن في مجرد إشغال الفكر في أمور تافهة كهذه، هل بلغ الأمر بالإنسان درجة إعمال الفكر، ولو للحظة، بتوافه كهذه؟

قال دعبس:

ـ هذه ليست في التوافه بل في الأساسيّات.. الخيانة الزوجيّة لدينا، وأحيانا على الشبهة، عقابها الموت، لماذا؟ لأن الشاعر عبّر عن عقلية هذه بقوله: «لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى/حتى يراق على جوانبه الدم» وقد خنق عطيل ديدمونة غيرةً وعلى الشبهة أيضًا!! هل تعرفين شيكسبير؟ إنه كاتب مسرحيّ كبير جدًا، عاش قبل أربعة قرون، وعالج في مسرحيّاته الحالات النفسيّة عند الإنسان، ومنها الغيرة في مسرحيّة «عطيل» المشهورة جدًا.

قالت السوسة مندهشة:

ـ لشدّ ما أنتم معقّدون؟

ابتسم دعبس وقال:

ـ معقّدون فقط!؟ نصف حياتنا ننفقها بالتفكير بالجنس، في هذا الشرق خاصّة، أما في الغرب فإنهم يعلّمون الجنس في المدارس، وهذه القضية عندهم محلولة الآن، أو تكاد.

ـ لا أصدّق ما أسمع! هل بلغ بكم الحمق حدّ هدر الوقت في خرق ناموس طبيعيّ جدًا، وعاديّ جدًا، مثل شروق الشمس وغروبها؟ كم أرثي لحالكم!

ـ رثاؤك في محلّه تمامًا، انت انثى وتقدّرين متاعب الأنثى..

قاطعته:

ـ أنثى!؟ ومتاعب!؟ هل أنثى الإنسان متعبة!؟ ولماذا!؟ وكيف!؟ وبأيّ حقّ!؟

قال دعبس:

ـ كل هذه الأسئلة!؟ ودفعة واحدة؟ وكيف أشرح لك متاعب المرأة، في حديث عابر كهذا؟ متاعب المرأة، في هذا الشرق، تحتاج إلى كتاب، بل إلى كتب، إنها، يا عزيزتي، ضحيّة! المرأة، في كل مراحل حياتها، ضحيّة عندنا، وكل الظلم الاجتماعي ينصبّ عليها، وهي، البهيّة، محرومة، لا من البهاء وحده، وانما من مجرد الاعتبار أيضًا، في قدميها أغلال، وفي يديها أغلال، وفي عنقها أغلال، ومن أشكال مختلفة، ولا تجد سبيلاً للخلاص من اغلالها حتى مع النضال، لذلك تلجأ إلى المراوغة، لدفع الأذى عنها، والأذى لا يندفع، فهو بالنسبة إليها، كقدر، وماذا تفعل مع قدر فرضه الرجل، باعتباره الأقوى، واعتبارها الأضعف؟ كل منا يحمل تاريخه الاجتماعي، وهو ابن هذا التاريخ، والمرأة كذلك، وقد قلت هذا كثيرًا، وها أنا أكرّره الآن!

صات الوطواط:

ـ هذه مرافعة رائعة يا دعبس، لو لم تكن صادرة عن منافق مثلك.. اذهب أنت وسوستك إلى القاذورة، وهناك، أيّها المدّعيان، تناكحا بطريقة سوسيّة!

قالت السوسة:

ـ أشعلْ، يا دعبس، المزيد من المصابيح، ودع هذا النتن يُشوى على وهجها بطريقة سفّوديّة.

أشعل دعبس كل ما تبقى من مصابيح. قالت السوسة:

ـ سلّط أشعّتها بصورة مركزة على النتوء الذي يختبئ فيه.. اجعل نشيش لحمه المحترق يصل مسامعي!

قال دعبس:

ـ لكننا، بهذه الطريقة، نقتل روحًا كروحنا، وبغير رحمة! ألا ترين أنه عقاب رهيب، ينم عن ساديّة رهيبة!؟

ـ الحرب هكذا تكون دائمًا: قتل ثم قتل ثم قتل، وبغير رحمة!

ـ ولكن أين الحرب في الوضع الذي نحن فيه؟ قالت السوسة:

ـ أنت ابله يا دعبس، ولا خير فيك أبدًا.. تسألني عن الحرب في الوضع الذي نحن فيه!؟

إنها حرب النور والظلمة، وعلينا أن نخوضها ببسالة ودونما شفقة، الظلمة كانت وستبقى، عدوّتنا اللدود، ومن لا يقتل الظلمة تقتله الظلمة، وبضراوة وحشيّة.

أضافت السوسة صائحة:

ـ أُقتل الظلمة! لك أقول: اقتل الظلمة!

وعلى الأثر انطلقت أصوات داخل الغرفة:

ـ نعم! نعم! اقتل الظلمة، اقتل الظلمة! وبذلك ينتصر النور، بذلك ينتصر النور، اذا ما كنت تريده أن ينتصر، حقًا وصدقًا!

قال دعبس وقد انتفض الثأر في داخله:

ـ لكم ما تريدون، بل لي ما أريد: أنا من يقتل الظلمة، لأنني، طول حياتي، حاربت الظلمة انتصارًا للنور، وكنت على ثقة راسخة دائمًا بأن النور سيهزم الظلمة، ولا بد أن يهزم الظلمة! لا بد أن يهزم الظلمة!

- ٤ -

«يا دعبس! يا دعبس! ماذا يفيدك إذا ربحت العالم وخسرت نفسك؟» أنت تزعم، انتبه! أنت تزعم أنك تكره نفسك، وهذا، في مكرك، مكر ساذج، ليس له سند من حقيقة، ففي داخلك تناقضْت أكثر من مرة، في جلسة واحدة، ولأنه ليس من خبيء إلا ويظهر، فان ما تنطوي عليه، خلافًا لما تعلنه، قد بان، وهذا يدعو إلى الخجل، لو كان لك حتى فضلة من حياء، أما وأنك لا تخجل فأنت تكذب، والمؤسف أنك تعرف أنك تكذب، ولا ترعوي عن الكذب، فإلى متى!؟ ولماذا التستّر على المعايب، اذا كان الآخرون يرونها؟ أو إذا كانت ثرثرتك تدلّ عليها؟ كفّ عن الثرثرة، فما تحسبه جديدًا على الناس هو من قديمهم، لكنهم يجاملونك، وفي ذواتهم يضحكون منك وعليك!».

فكر دعبس بما قالته ذاته، تفحّصه متأنياً، اعترف أن بعض هذا القول صحيح، وأن عليه ألاّ يكابر حين لا تنفع المكابرة، فالثرثرة طبع فيه، ولا مناص من بتر جزء من لسانه، اذا ما كان عليه ألا يبتر لسانه كلّه، كيلا يكون في البكم، وأدرك الآن، للمرة الألف، أنه يكره نفسه لهذا السبب بعينه، وأن هذا الكره لا يجلب له سوى الحزن،

وأنه حزين، أكثر الأحيان، دون أن يدع الحزن يبدو عليه، لذلك قال لذاته:

ـ يا أنت التي هي أنا، دعبس ليس لديه خبيء، فظاهره وباطنه واحد، وأنت، منذ رفعتُ عنك وقت رقابتي، شططت شططًا وقحًا ومعيبًا، إنني مع الحريّة دون كيف ولماذا وبأيّ حال وإلى أيّ مدى.. أنا مع الحرية باطلاق، وهذا ناجم عن جوعي، وجوع الآخرين، للحرية، لكنني ضد الخبث، مهما تموَّه وبالغ في التموّه، وأنت خبيثة بدافع من الوسوسة والخناسة، وأعرف أنك سمعت حديثي مع البومة والوطواط، وهذا ما أغراك في التطاول عليّ، وفي قذفي بتهم سخيفة ورخيصة، كقولك إنني عديم الحياء، وإنني، تاليًا، لا أخجل، وإني أكذب وأعرف أنني أكذب، وكل هذا الهراء. أنا من المؤمنين «أن الكذب رأس المعاصي» وهذا شعاري الذي أتمسّك به، بل أقبض عليه، كما يقبض المناضل على القضية التي يناضل من أجلها، وثمة فرق كبير بين البوح والإسرار، ففي سريرتي يندرج عالم داخليّ كامل، وفي هذا العالم مسائل كثيرة، لا أتورّع عن إعلان بعضها، وبصراحة لا يبلغها غيري، بل يأخذ عليّ غيري شدّة صراحتي، خوفًا على سمعتي، وهم محقّون في ذلك، لو أن الأمر يتعلّق بسواي، أما أنا فلا أكترث، لأن سمعتي النقيّة كدمعة طفل، لن يبلغ أن يشوّهها مشوّه، ولها من علوّها ما للنجم من علوّ، ومن السطوع ما للشمس، في نهارات الصيف، من سطوع، وسيرتي الذاتيّة يعرفها القاصي والداني، ويعجب لها الذين يعرفونها، وقد يأسون، وحتى يبكون، لما فيها من ألوان الشقاء. إذن لا جديد، يا ذاتي، في كل ما

قلته عنّي، ولا جديد في ما يقوله الأعداء والأصدقاء عني، غير أن كل هؤلاء، وأنت منهم، لن يبلغوا، مهما استفزّوني، أن يجعلوني أكشف عن نقطة خاصّة تتعلّق بي وحدي، وفي هذه النقطة سرّ حياتي، لأنها سرّ حبّي، وهي موجودة في مكان مجهولِ المكان من عالمي الداخليّ، وعبثًا كل جهد يبذل للوصول إليها، وعبثًا كل استدراج للبوح بما فيها، لا خوفًا، ولا حرجًا، وإنما لأنّ الحبّ العظيم، لا يكون عظيمًا إذا ما جرى البوح به، أو الحديث عنه، فالكلام على الحبّ يقتله، وكل وصف له يبقى دون حقيقته بكثير، وكل ما كتب عن الحب، وكل ما أُنشد فيه، كان بعضه لغوًا، وفيه، أي الحبّ، متّسع للقول والإنشاد بعد، ولم يبلغ نشيد الأناشيد نفسه، أن يفيه حقّه، فسليمان في كل ملكه، في كل مقدرته، في كل جبروته، عاجز عن وصف زنبقة الحقل، فكيف بزنبقة القلب!؟ أفضل ما نفعله، في التعبير عن حبّنا، ألا نتكلّم عن حبّنا، أن نصمت حياله، تاركين لنظرة العين، ولمسة الكفّ، وحرارة الشوق، في الجسدين المتقابلين، أن تعبر باللغة التي هي لا لغة، عن هذا الذي نكابده بلذّة ما بعدها لذّة.

سألته ذاته:

- لماذا انفعلت يا صاحبي، وممّ؟

قال دعبس لذاته:

- انفعالي هو جزء من تشكّلي النفسيّ، وكرهي للحكمة المبتذلة، والعاديّة المقيتة، والفتوريّة المِصْقعة، معروفة.. إنني أدعو إلى قتل جميع هذه الآفات، ومعها التكراريّة، والمألوفيّة، والتداوليّة! أما الآفة

الكبرى فهي الوسطيّة، خير الأمور ليس دائمًا أوسطها، أن تكون حارًا أو غير حار، مندفعًا أو متراجعًا، شجاعًا أو جبانًا، فالأمور، ههنا، إلى انزياح، إلى فرز مع الأيام، وفي الفرز أمام المصاعب والنوائب، يستعلن الموقف الواحد، في هذه الثنائيّة الحرباويّة... وتكون التجربة هي المحكّ، فالإنسان، من صفاته، لا ينبغي، ولا يمكن أن يكون الصفة ونقيضها في آن.

ـ ولكنك، أنت، تتناقض!

ـ وأتعلّم، شيئًا فشيئًا، التخلّص من هذا التناقض.

ـ وأنت ثرثار وتدعو إلى الصمت.

ـ أحاول، جهدي، الإقلاع عن الثرثرة.

صات الوطواط:

ـ إيّاك أن تفعل! هذا هو زمن الكلام، وزمن التلوّن، وزمن التناقض، ومن غير تحفّظ.. اسمع نصيحتي يا دعبس اذا كنت ترغب أن تكون زمانك، وأن تكتبه، وتعيشه.. هل سمعت أغنية: «هذا زمان غشوم/الزيْن فيه عيب وشوم»!؟ لم تسمعها؟ لا بأس، هناك كثير من أمثالها، وما عليك إلا أن تصغي إليها، وتتعلّم منها، أو تحاول! إنني أدلّك على ما ينفعك، على ما يجعلك وجيهًا، ثريًا، شهيرًا، محبوبًا، محاطًا بالمعجبين والمعجبات، وإنني أعطيك حكمة هذا الزمن من غير مقابل... بماذا تفكر؟

ـ بتدليسك وتمليسك!

ـ هذا ليس بتدليس وتمليس.

ـ اذن هو نفاق مطليّ بالفضّة أو الذهب!

تنهّد الوطواط وقال:

ـ ماذا تفعل يا صديقي اذا كان هذا هو طريق الوصول؟

ـ ومن أخبرك أنني أرغب في الوصول؟

ـ ألا تريد الامتيازات كغيرك؟ إيّاك أن تقول: لا!

ـ لا! ولا! ولا! إنني لا أسعى إلى أيّ امتيازات، وهناك غيري له موقفي نفسه.. اسمع! نحن في زمن له كل الصفات التي ذكرتها، ولكن السلطة الجائرة هي عادلة في هذا الموضوع: من يريد الامتيازات عليه أن يقدّم تنازلات، وعلى المرء أن يختار، وقد اخترت، منذ يفاعتي، عدم التنازل أمام المغريات.

ـ هل هذا لأنك كاتب؟

ـ لأنني صاحب كلمة، وفي الكلمة ينتفي التذبذب، فإما أن تكون الكلمة مع الحق فتنصره وتنتصر به، وإما أن تكون مع الباطل، فتخسر نفسها، واحترامها، وتخون مسؤوليتها الأدبيّة والإنسانيّة على السواء.

ـ ولكن الكلمة، في هذا الوطن العربي، لا تطعم خبزًا، ولا بدّ لصاحبها أن تكون له مهنة، أو وظيفة، وأغلب الكتّاب هم موظّفون، أي مرتهنون لارادة السلطة، وهذا الارتهان يدفع بهم إلى المجاملة، ثم المسايرة، ثم المراضاة، وهكذا، تدريجيًا، يقعون في النسيج العنكبوتيّ الدّبق، كما الذبابة، ومثلها يموتون، وهذه، يا دعبس، بدهية لا يمكن نقضها أو الالتفاف عليها، فالكاتب، بعد كل شيء، إنسان،

وله أسرة، ومتطلّبات حياة، ولا بد أن يحابي حتى يعيش، وإلاّ كان الجوع مصيره، ولئن ارتضى الجوع لنفسه، وصبر عليه، فكيف تصبر أسرته: امرأته وأولاده!؟ قل أنت، إذا ما كان لك قول يتّسق والمنطق في هذه الإشكالية!؟

قال دعبس وقد هاله هذا الاستعراء المنطقي، وهذه الإشكالية بين السلطة والمثقّف، التي أُشبعت بحثًا، دون أن تتغيّر الأمور، ودون أن يقوى المثقّف على الخلاص من عنكبوتيّة مصيره:

ـ القاعدة، أيها الوطواط الظلاميّ، لها استثناء دائمًا.. هناك مجالات أخرى، في وسع المثقّف أن يعمل فيها: الصحافة مثلاً!

ـ الصحافة سلطة أيضًا، فمن يملك صحيفة يملك سلطتها، وهذا ينطبق على الإذاعة والتلفزة أيضًا! وما تقوله عن الاستثناء مضحك، فزهرة الثلج، كما تعرف، لا تشكل ربيعًا، لماذا يريد هذا الكاتب، اذا ما كان دخله من كتابته يكفيه، أو ذاك الشاعر الذي ورث ثروة مثلاً، أن يكون مثلاً؟ هذه مماحكة، هذه أكذوبة، هذا تعميم مضلّل، فالاستثناء ليس القاعدة، وأنا تكلمت على القاعدة وليس على الاستثناء. هناك مثل يقول: «من رضي عاش» فلماذا لا ترضى اذا كان الرضى يوفّر لك الرغد والهناء!؟ ثم أن الكتابة لا تغيّر العالم، وإلاّ لتغيّر العالم منذ زمن بعيد.. انتصح بما أقوله لك: تنازلْ تَعِشْ!

ـ لن أتنازل.

ـ إذن مت!

ـ ولن أموت.

ـ تعيش فقيرًا بائسًا.

ـ وما همّ؟ لديّ القدرة على التحمّل.. «العجل المسمّن» والخبز الحاف، بالنسبة إليّ، سواء!

ـ والمرأة الجميلة!؟

ـ حين لا يكون حبّ لا يكون جمال، قصدت جمال الروح.

ـ وجمال الجسد؟

ـ حين يُشترى بالمال يكون عهرًا، وأنا لا أدين العاهرة، لأنها ضحيّة مجتمع لا عدالة فيه ولا مساواة أيضًا، غير أنني لا أتعامل مع الجثث، فممارسة الحبّ مع العهر، ممارسة جسد حيّ مع جسد ميت، مع امرأة جثة، تعطيك جسدًا باردًا لا حرارة فيه، وهذا ليس ذنبها، فمهنة الدعارة قديمة قدم التاريخ، إلا أنّ ممارسة المرأة لهذه المهنة تجعلها تخضع لحرفتها، ومن أصولها ألا تعرف الحبّ، ولا تبلغ النشوة، ولا تنفعل بأيّ من مشاعرها، ولا تشارك الرجل، الذي هي ضحيّته، أحاسيسه مهما يكن حارًا وفاعلاً.. إنه يعطيها مالاً لا روح فيه، وهي تعطيه جسدًا لا روح فيه، وهذا تكافؤ وتماثل، وفي ذات البغيّ انتقام أخرس، وكره متبادل، واحتقار متقابل، ولو كانت المسألة تتعلّق بفحولة الرجل، لكان فتى الفران أو الحداد أكثر فحولة من الفنان.. المرأة تحتاج، قبل ممارسة الحب، إلى تهيئة، إلى تقبّل نفسيّ، إلى شمائل حلوة، تتجسّد بالنداوة، بالرفعة، بالمكانة، بالأريحيّة، وبالشجاعة الموشّحة بالاحترام، البعيدة عن «البلطجية» و«الفتوّة» ومناصرة الظلم، والقوادة، والنذالة، وكل حقارات الرجال

الحقيرين، الأنانيين، الذين يحسبون فجوة المرأة جارحة للافراغ، لبلوغ اللذة دونما اهتمام بلذة الأخرى، التي هي شريكة في ممارسة الجنس، قاهر الموت هذا!!

صات الوطواط:

ـ كفى! كفى! توقّف عن هذه المحاضرة البلهاء، التي كرّرها غيرك الدهر كله، وملّت المرأة من تكرارها، لأنها تفتقر إلى المصداقية، ولا تنفع في شيء، أو لا تطعم خبزًا، والمرأة تحتاج إلى الرغيف والثوب والشياكة بأكثر مما تحتاج إلى المواعظ السخيفة، أو إلى الاحترامات أو المجاملات!

ـ والكلمة الطيّبة؟

ـ كم تسوى هذه؟

ـ وأخيرًا!؟

ـ جئتك نصوحًا.

ـ بوجوب التنازل؟ ولمن؟

ـ التنازل للنفس أولاً، هذه ألف باء الراحة.. اعمل بما تشتهيه نفسك..

ـ وكبت الشهوات؟

ـ لا تقاطعني.. نصف هذا العالم الشرقي يعاني من الكبت، بل إن الكبت في أساس كثير من الأمراض النفسية والاجتماعية والسياسية في دنيانا هذه، وزمننا هذا، تخلّص من الكبت أولاً، ومن

الاعتداد الفارغ ثانيًا، ومن التقوى والصلاح ثالثًا، ومن التعارض بين ما يسمونه شرفًا، وما يسمونه فضيلة رابعًا، ومن الحرص على السمعة الحسنة خامسًا، واستعض عن صيد الكلمات بصيد المغانم سادسًا، وأقلع مرةً وإلى الأبد، عن سخافة النزاهة سابعًا، ابحث عن الغاية دونما اعتبار للوسيلة ثامنًا، كن بطلاً من هذا الزمن، وليس من زمن الفروسيّة تاسعًا، أدر ظهرك للوصايا العشر أخيرًا وآخرًا!

قال دعبس الفتفوت وهو يستمع إلى تدفّق الوطواط، وأعجب بخبرته الواسعة بالزمن الذي يعيش فيه، وغواياته التي فيها غير قليل من الحقائق:

ـ من أرسلك إليّ أيّها الوطواط!؟

ـ البومة التي كانت عندك قبل قليل.

ـ البومة قالت إنها نفسي.

ـ وأنا الناطق، والمعبّر، عن هذه النفس، التي أدعوك إلى التصالح معها.. أحبّ نفسك تحبّك الحياة، هذه نصيحة أثمن من الماس!

ـ واذا قلت لك إنني لن أتصالح مع نفسي، ولست مولعًا بحبّ الحياة، وإنني أرفض نصيحتك التي تزعم أنها أثمن من الماس؟

ـ أقول لك سأعود إليك مرة ومرة وثالثة، حتى تقتنع وتصبح صيّاد مغانم لا صياد كلمات مزوّقة! دعْ عنك ترّهات المبدأ، المبادئ بيعت بالمزاد وانتهى الأمر، لكنها بيعت بثمن الفجل، لأن أحدًا لا يريدها، ما دام لن ينتفع منها.

قال دعبس بحدّة:

ـ أيها الوسواس الخنّاس، يا ابليس، اخرج من مخبئك حتى أراك، فأنا لا أقتنع بالصوت اذا لم أرَ صاحبه.

ـ إذن أطفئ النور حتى تسود الظلمة!

ـ لم تعد هناك ظلمة، بعد أن هزمها النور.

ـ غبيّ!

ـ اخرسْ!

ـ خرسي لا يبدل من الأمر شيئًا، انت أحمق يا دعبس، أحمق لأنك حسبت أن في وسع النور أن يهزم الظلمة بهذه السهولة، وأن مصابيحك تستطيع حرقي بوهجها، كما أشارت عليك السوسة الأشدّ بلاهة منك.. أنا فيك وأنت لا تدري، وحتى لو حرقت جسدك فإنني لن أحترق معه، أخرجُ منه لأدخل في غيره، وهكذا كانت الحال منذ الأزل، وستبقى إلى الأبد.. لولا الظلمة ما كان النور، إنهما متلازمان، وظنّي أن بدهيّة كهذه لا تفوتك أنت العارف، أو المتعارف، بحقائق الأشياء!

قال دعبس:

ـ لم أدّع المعرفة!

صاح الوطواط ساخرًا:

ـ قلْ هذا لغيري!

ردّ دعبس نكدًا:

ـ لم أعتد التباهي بمعارفي، وما أقصده بالظلمة هو غير الظلمة

التي في ظنّك، الظلمة التي أقصدها هي الشرّ، والخير سيقهر الشرّ مهما يطل الزمن، ومهما يعنت الصراع، وأنت ستهلك، حرقًا أو بغير حرق، والعاقبة للمتّقين.

ـ هذا اذا كنت تقياً!

ـ أنا ساعٍ إلى العدالة، وهذا حسبي.

ـ ومتى ستتحقّق هذه العدالة التي تسعى إليها؟

ـ متى هذه غير مهمّة!

ـ وما هو المهمّ؟!

ـ أن نؤمن بالحقّ حين نكون على حقّ، وأن نعمل لما نؤمن به.

ـ وإذا قلت لك إنك ستندم؟

ـ أقول لك الأيام بيننا!

ـ لا تحسن ظنك بالأيّام إلى هذا الحد.

ـ هذا غير مهمّ.. حين لا أكون أنا يكون غيري.. والطريق واحد دائمًا.

ـ هذا من الجنون!

ـ وأنا لا أحبّ العقل، عندما يكون بليدًا!

قالت السوسة فجأة:

ـ يا دعبس، يا صديقي، لا تحاور هذا الخفّاش، الأسود من الداخل والخارج معًا.

سأل دعبس:

ـ وأين كنت، أيتها السوسة التي تعتبرينني صديقًا، خلال حواري مع هذا الخفّاش اللعين؟

ـ كنت أختبئ وراء قائمة المكتب دون أن أمسّها بسوء، كبادرة مني على الصداقة التي قد لا ترغب بها أنت.

ـ ولماذا لا أرغب!؟ ليس عندي ما أخاف عليه، فلا عصيّ ولا عروش ولا هياكل، وحتى هذا المكتب الذي أجلس إليه، سئمت الجلوس عليه، فاقرضي قوائمه واجعليني أتحرّر من لعنة القلم والورقة، كما يتحرّر السجين من قيده، والعصفور من قفصه حتى ولو كان من ذهب!

قالت السوسة:

ـ أمرك غريب يا دعبس، تُقبل الحياة عليك وأنت تدير لها ظهرك! لماذا لا تحبّ القلم والورق؟ ولماذا تردّد علنًا: «ملعونة الكتابة إلى يوم القيامة»؟ هل تعبت من صيد الكلمات إلى هذه الدرجة؟

ـ وأكثر!

ـ والسبب؟

ـ أنا إنسان قلق لا أعرف ما أريد، وهذا سرّ عذابي، كما كان سرّ عذاب الشاعر بودلير الذي قال: «القلق وحشٌ مفترس!»

ـ وإذا قلت لك: «مبارك قلقك!؟»

ـ أجيب، وبكثير من المودّة، شكرًا على «لزوم ما لا يلزم!»

ـ تكره أن يباركك الناس؟

ـ لا أبالي ببركتهم أو لعنتهم! إنني صلب من الداخل، أما ما هو خارج عني فإنه لن يبلغ أن ينال منّي.

ـ لكنك تنزعج، أحيانًا، من هذا الذي تسمّيه «الوسواس الخنّاس»، فأين الصلابة الداخلية إذن؟

ـ في المبدأ!

ـ ألم يرهقك كلّ هذا العناء الذي كابدته في سبيل المبدأ؟

ـ أبدًا!

ـ وماذا بشأن «نصائح» الوطواط؟

ـ سمعت الكثير من أمثالها، ومن كل الوطاويط، التي تطير، أو تزحف، أو تسير على قدمين اثنتين، وسخرت منها كلّها.

ـ لكنها أتعبتك.. اعترف بالحقيقة!

ـ نعم! أتعبتني! لكنني إنسان يموت في المساء ويحيا في الصباح، وهكذا تتجدد قواي كلما خارت.. إنني أتجدّد دائمًا، وهذا هو المهمّ.. على الإنسان أن يتجدّد، وبذلك يصبح إنسانًا عصيّاً على التدمير. الكاتب ارنست همنغواي قال يومًا «تستطيع الحياة أن تقهر الإنسان، ولكنها عاجزة عن تدميره!» وأنا أشارك هذا الكاتب الرائع قولته هذه.

ـ لكن همنغواي دمّر نفسه.. انتحر!

ـ همنغواي بانتحاره حقّق وجوده.. عاش شجاعًا ومات شجاعًا، رغم أنني أحذّر الناس من تدمير أنفسهم بهذه الطريقة البشعة..

ناظم حكمت قال: «العيش جميل يا صديقي!» وكان على حق.. الحياة مباركة وجديرة بالعيش اذا ما اقترن بالكفاح.. الكفاح، أيتها الصديقة، هو الفرحة الكبرى في دنيانا!

ـ ولماذا أنت حزين إذن؟

ـ لا أدري! قلت لك إنني متماسك من الداخل، ما معنى هذا؟ معناه أن الإنسان اذا لم ينكسر من الداخل، فليس من قوة خارجية قادرة على كسره.

قالت السوسة:

ـ اسمح لي أن أصارحك برأيي فيك: أنت متناقض! تزعم أنك مكافح، وأن الكفاح هو الفرحة الكبرى في الحياة، وأنت غير فرح، أنت ملول، وهذا الملل، كما قالت لك السيدة نلسون[١]، هو مرض مردّه إلى الدلال، فقد عشت، مع كل ما عانيته، مدللاً على نحو ما، من قِبل أمّك على الأقل، وهذا الدلال أفسدك، جعلك ملولاً، وتاليًا كارهًا لنفسك، في اللاوعي غالبًا، اسمع نصيحة السيدة نلسون، اعرض نفسك على طبيب مختصّ.

ـ ولماذا الطبيب إذا كنت قادرًا على تحليل نفسي، وأعرف معايبها، وأجهد، كما سبق لي أن قلت، للتخلّص من هذه المعايب، وفي رأسها الثرثرة والسخف، ولكن الإكثار من الكلام ليس عادة دائمة.. أحيانًا ألوذ بالصمت مثل أبي الهول!

---

١ ـ إحدى بطلات رواية «حدث في بيتاخو»

ـ وهكذا تتأرجح بين حالين، لا وسطيّة بينهما، وهذا منشأ تناقضك وعذابك.. والآن دعنا من هذا، فقد أخفقنا، أنت وأنا، في القضاء على الوطواط، ولم ينتصر، كما كنا نأمل، النور على الظلمة.

ـ انتصار النور على الظلمة لا يكون بهذه السرعة، أو بهذه السهولة، خاصّة الآن، وبعد هذا الزلزال الذي ضرب الأمل بتحقّق العدالة الاجتماعية ضربة مؤقتة!

ـ أنت تبالغ!

ـ تظنّين هذا؟ تظنّين أن الضربة لم تكن قاضية؟

ـ ولماذا لا أظنّ!؟ نعم! أرى المآتم قد قامت قيامتها، في كل مكان، وجرى تشييع العدالة الاجتماعية بموكب سارت فيه الشماتة وهي تزغرد! انما هذا شيء، وموت العدالة شيء آخر.. العدالة حلم الإنسانية! كذلك كانت وكذلك تبقى، ومثل هذا الحلم الجماعي لا يموت!

قال دعبس:

ـ هل سمعت بالمثل القائل: «من يضحك أخيرًا يضحك طويلاً؟» هكذا نحن!

ـ وأنت هل سمعت بمقولة «نهاية التاريخ»!؟ ما رأيك؟

ـ سمعتها وسخرت منها، وها هي الوقائع، في كل مكان، تثبت بطلان هذه المقولة وتسخر منها.. التاريخ، أيتها السوسة، له صبر الجمل، وحبله طويل مثل حبل الأمل، وله، فوق ذلك، مكْرُهُ، التاريخ ماكر يا عزيزتي كالثعلب الذي يتماوت وليس هو بميت، والإنسان

وحده لجوج، ملحاح، يريد أن تصير الأشياء في وقت قريب جدًا، وعلى حياته أيضًا، وحياة الإنسان، كما تعلمين، قصيرة جدًا، تكاد لا تُرى بالمجهر، قياسًا إلى عمر الزمن، وليت الإنسان يتعلّم من قلم الرصاص، فهذا نكتب به ونبريه، ثم نكتب به ونبريه، وفي أسبوع أو شهر نستهلكه، ثم ماذا؟ نلقيه في سلّة المهملات، لكنه لا يحتجّ، لا يحزن، فقد أدّى واجبه، واستنفد حياته، لذلك يتقبّل مصيره برضى، عارفًا أن قلمًا آخر سيخلفه، ونحن لا نبكي القلم الميت كما نبكي موتانا، ولا نحزن عليه كما نحزن عليهم، مع أنه كتب أشياء جيدة أو سيّئة، لا فرق، فالمهمّ أدّى واجبه على النحو الأكمل، أما الإنسان فإنّه يشيخ، اذا ما عاش طويلاً، وعندما يموت تبقى هناك، في داخله، حسرة ما، لأنه لم يجنِ حصاد ما زرع، وهو يعرف أنه ليس من زرع الا وسيُحصد، وأن الآخرين، الآتين بعده، سيجمعون الغلال بيادر قمح، يتناسل بعضها من بعض، فحبّة الحنطة لا تموت، واذا ماتت، حينًا، تأتي بثمر كثير، لأنها في الأرض التي كانت لها قبرًا، تنبت قبل موتها، وهذا النبت يشقّ الثرى، ويترعرع، فيصبح له ساق في رأسه سنبلة ذهبيّة الحبات، وهكذا يكون علينا أن نتعلّم من القلم ومن حبة الحنطة، وعلينا ألاّ نخاف الموت، لأننا نعيش في أولادنا وأحفادنا وذرارينا من بعدنا.

قالت السوسة:

ـ الآن «عرفت، ما كنت أعرفه، مرة أخرى!» يا دعبس، يا صديقي!

قال دعبس:

ـ اذن يحسن بنا ألا نتعجل انتصار النور، فمصيره أن ينتصر، ومصير التاريخ إلى استقامة بعد اعوجاج، إلا أنّ الطريق الطويل تتخلّله المنعطفات دائمًا، هذا هو قانون الحياة، والحياة جزء من التاريخ، وكل منا يحمل تاريخه الاجتماعي، أنت وأنا وكل حي في الوجود!

قالت السوسة:

ـ ما أروع ما تقول يا دعبس، لولا أنّك، حين تصمت، يلوح الحزن على محيّاك، فما سبب ذلك؟

قال دعبس:

ـ التعب وتقدُّم العمر، إنني أنا القلم الذي أدّى واجبه، ويكاد ينتهي.

ـ مثل كل الآخرين؟

ـ تمامًا!

ـ مثلهم في الأمل أم في اليأس؟

ـ في الأمل طبعًا.. الزلزال الذي أحدثه مكر التاريخ، جعل بعضهم يضيق حتى بالأمل، ونحن نعذر هؤلاء، وجعل البعض الآخر يصاب بالإحباط، ونحن نعذر هؤلاء أيضًا، ثم جعل البعض الثالث ييأس من تحقّق العدالة، لأنه صدّق أكذوبة «نهاية التاريخ»، ونحن نعذر هؤلاء أيضًا وأيضًا، وفي مقابل كل ذلك لا نسألهم الا شيئًا واحدًا: أن يعذرونا إذا لم نيأس، ولن نيأس أبدًا!

قالت السوسة بعد تفكير:

ـ أكاد أفهمك يا دعبس، ولكن لماذا، وأنت على هذا التماسك، تكره نفسك!؟

قال دعبس:

ـ كرهي لنفسي له حكاية أخرى، وله وقت آخر!

ـ ولماذا ليس الآن؟

ـ لأنني الآن سأفكّر في نفسي صامتًا!

ـ محاكمة أخرى يا «عناد الزكرتاوي»[1] الجديد!؟

ـ شيء من هذا يا عزيزتي.

ـ وهل توافق على أن أكون مدافعة عنك، كما وافق «عناد الزكرتاوي» على أن تكون «كاترين الحلوة»[2] مدافعة عنه؟

ـ ثقي أنني سأفكّر بهذا، وبجدّيّة كاملة!

---

١ ـ بطل رواية «النجوم تحاكم القمر»

٢ ـ بطلة ثلاثية «حكاية بحّار»

ـ ٥ ـ

«هل حقّاً أنا عناد الزكرتاوي الجديد!؟ وهل ثمة، في دنيانا، كاترين الحلوة مرة أخرى!؟ كاترين! يا كاترين! أيتها البهيّة بين النساء، من اليابسة أم من الماء أنتِ!؟ وقلبك الكريم، الحنون، القاسي، من لحم ودم، أم من جذع شعبة مرجانية!؟ واذا كان من لحم ودم، فلماذا خفق مرّةً واحدة، لرجل واحد، هو صالح حزّوم، وبعد ذلك كان الانتقام الرهيب!؟ لماذا تجلّد قلبك ولا جليد!؟ ولماذا قطعتِ رؤوس الريّاس الذين فُتنوا به، وعلقتها، تشفيّاً، فوق عتبة بابك!؟ ولماذا خنت الأب مع ابنه، وهذا في المحرّمات!؟ أعرف ما سوف تقولين: فعلتُ كل ذلك لأن الذي أحبّه ذهب دون عودة، وعبثًا انتظرت عودته، هذا الذي رفض أن يقتلني بذنبي، وكان القتل، لو حصل، أخفّ ألمًا من الاحتقار! لقد اكتفى، حبيبي، بترحيلي، بهجري، بحرماني من حبّه الذي كان، بينما أنا المرأة، أقمت على حبّه، برغم اليأس الذي فاق اليأس في أنه سيعود، كرة أخرى، إليّ! كل ما فعلته، بعده، كان التياعًا، كان عذابًا، كان جحيمًا، اشتعلت ناره في ثيابي وحشاي! إنني أنا المرأة، والمرأة، عندما تحبّ،

تضحّي، وتضحّي، لأنه مكتوب أن تكون الأشدّ حبّاً، والأعنف رغبة، والأكثر إخلاصًا، لأنها الأغزر حنانًا، وفي يدها مفتاح البداية والنهاية، إلاّ أنها لا تستطيع، أبدًا لا تستطيع، إلا أن تكون البداية، ومعها الخصب والنسل والحياة، ودونها لا خصب ولا نسل ولا حياة!»

سأل دعبس الفتفوت:

ـ أليس هذا ما كنت تريدين قوله يا كاترين، أيّتها السوسنة، أيّتها الريم، في بهائك والجمال!؟ أحسب أنني عبّرت عن ذاتك بما كانت تلتاح به ذاتك، في حرارة اللقيا، لو تمّ، يومًا، ذلك اللقاء!؟ لكنه لم يتمّ، لأننا لا نشاء، وانما الحظُّ هو الذي يشاء، وحظّ العاشقين، وأنتِ أعلم، إلى عثار، فالقدر، في ضربته القاصمة، يترصّد العشّاق في كل منعطف، في كل مفترق، ويجعل المرأة، غالبًا، مثل شجرة الأيّام، عارية ووحيدة على مفرق طريق، كما تقول الأغنية، أما الرجل فقد كتب عليه «القتل والقتال» وكتب عليه أن يدفع دمه ودمعه في براري الترحال، بين وقد الهاجرة، وخدعة السراب، في المغامرة التي تشدّه أبدًا إلى أفق الضياع!

قالت كاترين الحلوة وقد تجسّدت امرأة في فضاء دعبس المسكين:

ـ أنت، يا دعبس، أيّها الإنسان المزنّر بأشعّة القمر، في طلوعه والمحاق، وفي استوائه بدرًا والكسوف، ماذا تريد من الحياة!؟ ستقوله، وأنا معك، «هذا هو سؤال الحياة»! أجل! هذا هو «سؤال

الحـيـاة» وهو سـؤال لا جـواب له في المبـهـم من الأمنيـات، نتـمنّى، أحيانًا، ما لا يُتمنّى: قطاف نجمة مثلاً! فاذا صارت النجمة في كفّنا، تفحّمت وانطفأ فيها الضياء، لأنها، فقط، صارت في كفّنا، صارت واقعًا ولم تعد حلمًا، أصبحت حقيقة ولم تعد خيالاً، تحولّت من أمنية شبه مستحيلة، إلى رغبة مستحاذة، ينعدم فيها ذلك الألق المبهر، الذي كان حرقة في الضلع ونشوة في العين.. من أجل ذلك شاء ربّنا ألا تتحقّق أمنياتنا حتى تبقى أمنيات، حتى تبقى شوقًا إلى المجهول، وفي هذا الشوق تكمن غاية الاكتشاف، وهو سرّ الوجود وتوقه، وكي أوضّح لك الأمر أكثر، فإنّ الجسد حين يتّحد بالجسد، في تلك الرعشة التي ترجّ الكيان، تأخذ هذه الرعشة في التلاشي، وشيئًا فشيئًا تخمد كالبركان الملتهب، وتصبح باردة مثل وجنة الجثّة التي فارقت الحياة، وفي وسعي القول إن البخل مذموم إلا في الحب، ففي هذا يكون محمودًا.. شفتا المرأة البخيلتان، هما أشهى الشفاه، فإذا كان الزواج، صارت هاتان الشفتان سخيّتين، جاهزتين دائمًا، لذلك سرعان ما يزهد فيهما الزوج، وما يقال عن المرأة ينطبق على الرجل أيضًا، إلا أنّ المرأة تظلّ الشوق الملتهب! هنا مفارقة يا دعبس! احذر الكرم في الحبّ، واحذر أكثر الوقوع في مرض الحب اللذيذ، وبسخاء، لأنك عندئذ تصبح أنت الأضعف، ويصبح الطرف الآخر، المرأة، هو الأقوى.. أقول لك ذلك عن تجربة، فقد كنت سخيّة في حب صالح حزوم، مريضة به أكثر، لذلك كنت الأضعف، ولقيت، من جرّاء ضعفي، ما تعرف من هجر صالح إيّاي، هذا الهجر الذي عذّبني، أبكاني، طويلاً جدًا!

قال دعبس معجبًا:

ـ أنت حكيمة أيتها الجميلة بين النساء، فمن أين لك هذه الحكمة؟

ابتسمت كاترين وقالت:

ـ من التجربة! كن مجرّبًا تكن حكيمًا! غير أن بعض الناس، حتى مع التجربة، لا ينتفعون بالتجربة، يبقون في الجهلاء!

ـ مثلي!

ـ أنت لست بالجاهل!

ـ ولكنني، قبل انبثاقك في فضاء هذه الغرفة، يا كاترين، بدوت جاهلاً أمام عثة الأرض، التي قرضت عصا سليمان الحكيم!

ـ وكذلك أمام البومة، وأمام الوطواط، وأمام سريرتك نفسها.. إنني كنت هنا، دون أن تراني، وقد سمعت كل شيء.. علّتك أنك تريد ولا تعرف ما تريد، أنت لست وحيدًا في هذا، أنا نفسي كنت أريد، ولا أعرف ما أريد، أحيانًا.. إنها لعبة الذات!

فكّر دعبس وهو يتأمّل كاترين الحلوة تأملاً فيه رغبة شهّاء، كان، الآن، يعاني الرغبة والرهبة، متسائلاً: «ماذا لو قمت إليها وضممتها إلى صدري؟ ماذا لو تذوّقت، ولو للحظة، ذلك الرضاب الذي على شفتيها الكرزيّتين؟ ماذا لو دفنت رأسي في عنقها وشحمته حتى أفنى فيه؟ ثم ماذا لو حدثت المعجزة، وتخلّى الثوب عن الجسد الذي يلفّه؟ وأخيرًا ماذا، ولو في الحلم، كان الذي يكون بين الرجل والمرأة؟ إنني أحبّها، كاترين الحلوة هذه، أحبّها كما يحبّ التائه في البيداء، قطرة الماء، ويتحرق ظمأ إلى بعض ريّها.. يا ربّ! يا ربّي! أنت تجرّب

خائفيك، فلماذا كتبت علي، أنا الخائف، الطامع في مرضاتك، أن استشعر أن الكأس قريبة من شفتيّ، ولا سبيل إلى ارتشاف ولو جرعة واحدة مما فيها؟»

فجأة سألته كاترين الحلوة:

ـ يا دعبس، أيّها المفتون بغيري، لماذا تحسبني أنا غيري!؟

ارتبك دعبس وأجاب:

ـ لأن غيرك هو فيك.. الشاعر الانكليزي بايرون قال: «ليت للنساء فمًا واحدًا، اذا قبلته استرحت!»

عادت كاترين الحلوة إلى ابتسام فيه الدلّ والإغراء، وبعد أن تأمّلت دعبس مليًا سألته:

ـ اذا قبّلتني تستريح؟

ـ من غير شكّ!

ـ وهل تريد أن تستريح فعلاً؟

ـ وماذا يريد المتعب مثلي؟

ـ الراحة طبعًا.. ولكنك، أنت، لن تستريح، لأن فمي ليس أفمام النساء جميعًا! لكل فم مذاقه يا دعبس، وفي الملاغم، من بعض الأفواه، سُمّ قاتل! أم أنك، وأنت ترغب في الموت كما تزعم، تريد الموت بهذه الطريقة المريحة؟ تعال قبّلني إذن، ومت موتًا مريحًا كما تتمنّى!

قبّلها دعبس ولم يمت، أحسّ بنشوة غريبة، نشوة اختلجت لها

جوارحه كلّها، فاستعاد نشاط زمن قديم، نشاط الصبا، وتوقه، ولهفته وسغبه، وعندئذ حاول تقبيلها مرة أخرى، فابعدته عنها قائلة:

ـ ها قد قبّلتني، فلماذا لم تمت؟ هل لأن الموت امتحان رهيب، وأنت، في المضمر منك، تخاف الرهبة، أم أنك كنت، في ادّعائك أن «الموت المريح» أمنيتك، كنت تبيع كلامًا لا رصيد له، في أيّ مصرف في هذا العالم!؟

ـ ...

ـ ماذا بك؟

ـ ...

ـ لماذا لا تجيب؟

ـ ...

ـ خجل؟

ـ ...

ـ خائف أن أفشي سرّك؟

ـ ...

ـ إني لا أفشي أسرار من يحبّونني، اطمئنّ!

قال دعبس:

ـ المسألة، بكل بساطة، أنني، الآن، لا أريد أن أموت.

ـ وماذا تريد إذن!؟ قبلة أخرى!؟

ـ ربما أكثر!

ـ والأكثر بعده أكثر، أليس حقًا ما أقول؟

ـ نعم!

ـ هذا لأنك رجل!

ـ ...

ـ دائمًا الرجال على هذه الشاكلة!

ـ ...

ـ عدت إلى الصمت؟

ناح دعبس:

ـ ليس لديّ ما أقوله!

ـ دائمًا لدى الإنسان ما يقوله.

ـ ودائمًا لدى الإنسان ما يسكت عنه.

ـ ودائمًا الذي يسكت عنه هو ما يخجله!

ـ ليس بالضرورة!

ـ الضرورة تكون حين نريدها نحن أن تكون.

ـ أنا لم أرد شيئًا سوى..

قاطعته كاترين:

ـ ... أن أكون لك!

ـ منحة الأميرة لا تُردّ!

ـ ومن قال لك إنني أميرة، وإنني أوزّع المنح على الناس!؟

ـ الذين نالوا عطاياك قبلي!

ـ وأنت تعرف مصير هؤلاء طبعًا!

ـ أعرفها.. لكنني ألتهب من الداخل!

ـ هذا لأنك اقتربت، مدفوعًا بشهوتك، من النار التي كان عليك ألاّ تقترب منها.

ـ فعلتُ ما فعله غيري، وهذه سنّة الكون.

ـ وسنّة الكون أن ندفع ثمن ما نفعل.

ـ أنا على استعداد لدفع ثمن ما فعلت!

ـ ما أظنّ!

ـ دليلك!؟

ـ تردّدك!

ـ وإذا وعدتك بالإقدام؟

صاحت العثّة:

ـ لا تَعِدْ بشيء يا دعبس.. تذكّر أن كاترين هذه محرّمة عليك، لأنها حبيبة صالح حزوم، ولأنها دافعتْ، في المحكمة، عن عناد الزكرتاوي.. إنهما صديقان، والرجل الشريف لا يخون الرجال الشرفاء، خاصّة إذا كانوا أصدقاءه.. تحية لك يا سيدتي، يا جميلتي، يا سفيرة الماء إلى اليابسة، أيتّها النبيلة التي ظلت وفيّة القلب، رغم خيانة الجسد!

قالت كاترين الحلوة:

ـ ومن أين لك كل هذه البلاغة، أيتها العثّة التي قرضتْ عصا سليمان، وقوّضتْ أعمدة الهيكل الذي انهار على رؤوسنا جميعًا!

قالت العثّة:

ـ ما هو منذور للنخر لا بدّ أن يُنخر، والأخطاء تتطلّب أثمانها كما يقول عناد الزكرتاوي.

ـ هذا المجنون؟

ـ هذا العاقل في دنيا المجانين!

ـ لكنه، في تلك المحكمة، أُخذ بعقله.

ـ أخذته «عدالة هذه الأيام» رغم دفاعك المجيد عنه.. أنا أتحدّث عن مملكة الماء!

ـ وأنا أفهم ما تقولين، لكن حق النقض مباح للجميع!

ـ ومحظور على الجميع!

ـ هل هذه أحجية؟

ـ شيء من هذا القبيل!

ـ صيف وشتاء على سطح واحد؟

ـ ولِمَ العجب!؟ انقلب المناخ الذي كانت الفصول فيه فصولاً، ولكل فصل زمنه ولونه وطبيعته! نحن، يا حلوتي! يا كاترين الماجدة! في زمن اختلطت فيه المناخات، تداخلت، تشابكت، ضاعت معالمها، تسيّبت أمورها، وصار الفصل ونقيضه يأتيان معًا، ويعيشان معًا، ويفرضان قانونيهما علينا معًا، دونما اعتراض من أحد، مع أن حقّ

الاعتراض مباح للجميع، ومحظور على الجميع في وقت واحد، وهذه، لعلمك، ليست أحجية، فالأحجيات صارت حقائق، ويجري تبليعنا إيّاها كحبوب الاسبرين، ولكن دون ماء!

صات الوطواط:

ـ هذا جيّد، وهذا ما يجب أن يكون، الاختلاطات، في كل الأمور، ذات نفع عام، إلا أن الجحود، وهو طابع البشر، لا ينتفع بما ينفع، والجحود والإنسان أقنومان في واحد، لهذا فانّ دعبس، هذا الابله، يجحدني، ينكر فضلي، يمتنع عن فهمي، وتاليًا لا يستفيد من نصائحي، مع أنها ثمينة جدًا، وهي لصالح الناس أولاً وأخيرًا.. إنني أنا، يا سيدتي، المأكول المذموم، كما يقول المثل! وإنني، أنا ـ وأعوذ بالله من كلمة أنا ـ من يرغب، ورغبته إلى تحقّق، في اختلاط النور في الظلمة، لتنشأ، من هذه المزجة، العتمة المنشودة، وهي قاسم مشترك، وفيها، كما في الفصول التي تتحدّثون عنها، يجتمع النقيضان، وهل هناك أحلى، في هذه الحياة، من اجتماع الشيء وضدّه في آن!؟

في هذه اللحظة، وبشكل مباغت، حوّمت البومة في فضاء القاعة، وحطّت على مكتب دعبس الفتفوت قائلة:

ـ أكمل يا عزيزي الوطواط، أكمل! ما تقوله عِبَر، يجب أن تُكتب على أفاق البصر، بماء الذهب، صونًا لها من التلف، فالحقّ حقّ، والباطل باطل، وكلامك حقّ لا باطل فيه، وإني لأمنحك تأييدي، وأمحضك ثقتي، آملاً في أن يرعوي دعبس عن غيّه، ويرجع عن

ضلاله، ويكفّ عن محاولة حرقك بالنور، أنت الذي مثلي، تتّشح بالظلمة، ومثلي تؤثر الخراب على المعمور، ومثلي، أيضًا وأيضًا، تكره هذه العثّة اللعينة، وتكره الماء تفضيلاً لليابسة، وتكره كاترين الحلوة التي لم نعرف، حتى الآن، هل هي من الماء أم من اليابسة!

صرخ دعبس بالبومة:

ـ إلى النار أيّتها الدنسة، أنا أكرهك! أكرهك! أكرهك!

قالت البومة وعيناها ترزّان نورًا فوسفوريًا:

ـ وأنا أحبّك وأحبّك وأحبّك، تعرف لماذا؟ لا تعرف؟ إذن أقول لك: إنني نفسك، وكاذب من يدعي أنه يكره نفسه!

ـ أنا لست بكاذب، ولديّ مبرّرات صدقي.. ولكن أين كنتِ طول هذا الوقت؟

ـ معك وفيك، نسيت من أكون؟

ـ لم أنس، غير أنني لا أكره أحدًا كما أكره من يتنصّت علي... لدينا من هؤلاء ما يكفي!

ـ أنت، في هذا، على بعض الحقّ، لأنّك، في داخلك، تخاف ولا تدري أنك تخاف، إلاّ أنّ النفس لا تتنصّت لذاتها، وقد كنت، كل هذا الوقت، على لسانك وفي أذنيك، فاذا قطعت لسانك، وصلمت أذنيك، أكون في كل جارحة منك، فلا تفعل ما فعله ذلك الفنان المجنون الذي اسمه «فان غوخ»!

ـ وماذا تريدين الآن؟

ـ أن أراك تغــازل كــاترين الحلوة، وتشــفق على الوطواط، ولا تعجب، إلى حد المبالغة، بالعنقاء، وأن تدلّني على المكان الذي تختبئ فيه العثّة.. إنها مطالب بسيطة كما ترى، وأنت عاقل بما فيه الكفاية كي تبادر إلى الاستجابة لها، فأنا أرغب عن اتّعابِك، حتى لا أتعب معك، باعتبارنا كلاً واحدًا!

ـ وإذا رفضت؟

ـ تثبت أنك أبله!

صات الوطواط:

ـ دعبس أبله بغير إثبات!

قالت العثّة:

ـ اخرس أنت يا ربيب الظلمة، ودع النفس تحاور نفسها.

ـ وما الفائدة في ذلك؟

ـ التعرية! في محاورة النفس لذاتها، تتكشف المستورات.. ليت الناس جميعًا ينظرون إلى داخلهم، ويتأمّلون هذا الداخل، ويسلّطون الضوء على سردابيّة ينغل فيها دود الشهوات، التي لو كشفوا عن عشر معشار ما فيها، لأثاروا فضائح لا نهاية لها كما قال الكاتب الفرنسي رومان رولان.

ـ هذا سلوك فضائحيّ، عليك أن تخجلي منه!

ـ خجلي أم خشيتك؟ حين تصير الأشياء في الضوء تستنير بأشعّة الشمس، تتطهّر، أما عندما تظلّ في العتمة، فإنها تتعفّن

وتنبعث منها رائحة كريهة، رائحة الجنوح المستور! هذا، أيضًا، ينطبق على السرّيّة التي هي عدوّة العلنيّة، ويتّسق مع الحريّة التي في جوّها فقط يستحيل أن يبقى الإثم إثمًا، ويتمادى اللصوص في سرقاتهم، والجناة في جرائمهم.. أعطني حرية أعطك طهارة، افسح لي في مجال القول، افسح لك في مجال الكشف، هبني قدرة الريح، أسقط لك كل الأوراق الصفراء الشائهة، ضع النور في كفّي، أضع لك الحقائق في كفك، أجزْ لي إخراج الحبّ من كهوف المغائر، أوفّر لك حبّاً نقيّاً صحيّاً، تنتفي منه الرذيلة، والعهر، والأمراض الخبيثة والمعدية كلها!

قالت كاترين الحلوة وهي تمسّد ريش البومة:

ـ ما أروعك أيتها العثّة العزيزة! أين تعلمت كلّ هذه الحكمة؟

ـ في غرفة عرش سليمان الحكيم.

ـ كنت هناك إذن؟

ـ أنا في غرف كل العروش، وفي القاعات السريّة لجميع الحكّام.

ـ وماذا تفعلين هناك؟ أنت، في حكمتك، فوق شائنة التنصّت، مهما يكن نوعه، وفوق خسّة التلصّص التي تتجانف والخلق القويم!

قالت العثّة:

ـ أنت على حق يا سيّدتي الجميلة، إنني في كل مكان تقضي الضرورة أن أكون فيه.. والضرورة، في أقصى مداها، أن أكون حيث ذكرت.. قاعات العروش، والغرف السرّيّة للحكام، مكاني الملائم دائمًا، بصفتي شاهدة لا متنصّتة ولا متلصّصة، وثمة، دائمًا، رادع

لي، حين يكون العدل أساس الملك، ولكن هذا العدل له شؤون وشجون دائمًا، لذلك أصبر وأصبر، قابعة في مكان ما، إلى أن يأتيني النداء: ابدئي قرض الأعمدة الخشبيّة للهيكل، لأنّ الفساد دبّ فيه، وعندئذ فقط أبدأ مهمتي الجليلة، ومع الأيام، والأعوام، ينتشر الفساد أكثر، ويكون عليّ أن أقرض أكثر، لا لأنني ضد الهيكل الذي أحترم، ولكن ضدّ ما فيه من فساد، وفجأة تحدث المفاجأة: الأعمدة تتقوّض! فيدبّ الذعر في السَدَنة، ويأتي الندم، غالبًا، بعد فوات الأوان، لأن أحدًا لا يتّعظ بأحد، اللاحق ينسى مأساة السابق، وهكذا تتكرّر حكاية نيرون وتصبح كل مدينة روما، والنار ذاتها، وجنون العظمة ذاته، والنهاية ذاتها أيضًا!

سألت كاترين الحلوة بعد تفكير:

ـ هل ما أسمع ينطبق على دعبس الفتفوت؟ وهل ما تقولينه نذير بنهاية سدوم وعامورة!

أجابت العثّة:

ـ أنا، يا عزيزتي، صديقة لا عدوّة، وكوني شاهدة على ما يجري يضعني على حدّ الحدّ، ومنذ جلس دعبس على كرسيّه هذا الصباح، كنت هنا، ولم أبخلْ بالنصيحة في وقتها، وقد رأيت كل شيء، وسمعت كل شيء، وإني لمنتظرة ما يكون عليه موقف دعبس، وما إذا كان سيصغي إلى الوطواط أم إليّ، وأنت تعرفين من هي هذه البومة التي تمسّدين ريشها، ولماذا يكرهها دعبس، وكيف عجز عما نجحتِ به أنت: الامساك بالبومة! ذلك أنها لا تُمسك، وهذا ما يجعلني

أتساءل: هل تحبّين هذه البومة!؟ وهل لك سلطان يفوق سلطاننا جميعًا!؟ وما هو موقف دعبس منك الآن، هو الذي يكره وأنتِ التي تحبّين!؟

قال الوطواط :

ـ هذا هو السؤال فعلاً! أنت، يا كاترين، قبلتِ قبلة يهوذا، ويهوذا كان صاحب القبلة الكاذبة، التي من بعدها أسلم المسيح للصلب، وأنا، لعلمكِ، لست ضدّ يهوذا ونسله، فهما «طيّبان»، وليسا «ملعونين» كما توافق البشر على القول، ثم إنك، يا كاترين، تحبّين البومة كما يبدو، وهي جديرة بهذا الحبّ في رأيي، بينما يكرهها دعبس، فماذا بشأن هذا التناقض؟ تقتلين دعبس كما قتلت من هم قبله؟ إذا فعلت هذا تستحقّين، فعلاً، تهنئتي! القتل يا كاترين! القتل! ثم القتل! الشفقة، الرحمة، المحبة، كل هذه أشياء ضارّة فلا تأخذي بها! نيتشه كان مع صفاء العرق، كان مع قتل من لا نفع في وجوده، وكان على حقّ، وفلسفته لم تمت كما يظنّ هذا الأبله دعبس، إنها، الآن، تستيقظ بعد سبات، وإني لسعيد جدًا بيقظتها، فالضعفاء لا مكان لهم في دنيا الأقوياء، وبهذه الطريقة وحدها نحصل على نسل سليم، نسل لا تخدعه جدليّة ـ ما أسخف هذه الكلمة! ـ النور والظلمة، لأن الظلمة، حتى في المعنى الذي تقصده العثّة اللعينة، ضروريّة، ليس للأموات وحدهم، وإنّما للأحياء أيضًا! لقد حاول دعبس، بدفع من العثّة، أن يجعل النور ينتصر على الظلمة، وهذه غفلة شنيعة منه، وقد تعلّم، الآن، درسًا من خيبته، وتعلّم، أيضًا، درسًا آخر، هو أن مصابيحه كلّها غير قادرة على حرقي، لأنني، أنا،

لا أُحرق، وإذاما ادّعى، وقد ادّعى، أنّني أنا الشرّ، وهذه صفة في محلها تمامًا، فإنني أعجب لماذا يخاف الناس الشرّ، مع أنه ملح الأرض، وبكلمة، يا كاترين، الشرّ ينتشر الآن انتشار الطاعون، وماذا لو لم يكن هناك طاعون؟ من يطهّر الأرض من رجس الذين يقال إنّهم أخيار!؟ ولماذا الخير والأخيار وكل هذه الأراجيف؟ لقد جرّبوا، هناك، وبكل وسائلهم، أن يسيّدوا الخير على الشرّ، فماذا كانت النتيجة؟ الشرّ بقي، والخير توارى، والزلزال حدث، والأخيار الأبرار، كما زعموا، وكما يزعم دعبس هذا، تواروا جميعًا، هم وفلسفتهم، كلّها، لأنهم، عندما تعرّوا من أقنعتهم، وظهروا على حقيقتهم، ثبت للعالم أنهم أكثر شرًا من كل الأشرار الذين رموهم بأحجار نظرياتهم، فارتدّت الأحجار إلى صدورهم، وبها رُجموا حتى الموت، هؤلاء الزناة الذين بانت الآن عوراتهم!

فوجئت كاترين الحلوة بطائر يقف خفيفًا على كتفها. كانت هذه العنقاء، بكل جمالها الأسطوري، ورشاقتها ذات الأبّهة الملكية. مدّت كاترين يدها إلى العنقاء، أنزلتها عن كتفها، قبّلتها، احتوتها، مدّت لها ساعدها فأوقفتها عليه، راحت تتملّى فتنتها، دون أن تتوقّف، عن تمسيد ريش البومة، بيدها الأخرى. قالت العنقاء لكاترين:

ـ إنني معجبة بك، يا مليكتي، إعجابًا لا يقل عن إعجابي بالامبراطورة المينْفيّة سن فاو التي أنا رمزها. لقد أبدعك عناد الزكرتاوي بشكل خارق، وجعلك فتنة للرجال، الذين هم فتنة لعرائس البحر، أولئك الريّاس الذين يقفون في مقدّمة مراكبهم، وبصدورهم يتحدّون المطر والريح والنوء، مندفعين أبدًا إلى أمام، إلى الممالك

البحرية، لينتزعوا الملكات، عنوة، من أحضان ملوك البحر، كما في أسطورة «الشراع والعاصفة»، وكما فعل الإنسان الجبّار الذي اسمه الطروسي، وقد وفيتِ للريّس صالح حزوم، حين عزّ الوفاء، حتى بالنسبة إليه، فانتقمتِ منه بابنه، ولم يَشْفَ لك غليل، ثم انتقمت منه بزملائِهِ الريّاس، الذين علّقت رؤوسهم على عتبة بابك، ولم يَشْفَ لك غليل أيضًا، حتى حارت الدنيا بروعتك، ولم يعرف أحد، حتى الآن، هل من اليابسة أنت أم من البحر، وهل أنسيّة أنتِ أم جنيّة!؟

قال الوطواط:

ـ من نسل حواء وكفى! النسل الملعون، أزلاً وأبدًا!

قالت البومة:

ـ وهذه اللعنة تلاحق الأنثى، لمجرّد أنها أنثى، ومن كلّ الكائنات.. دعبس الفتفوت هذا يكرهني لأنني نفسه، ولأن النفس، في اللغة مؤنثّة، فهل هناك ظلم أفدح من هذا الظلم؟

قال الوطواط:

ـ قرّي عينًا يا عزيزتي البومة، فالكره في نظري، ونظرك أيضًا، محمدة! وعندما يعمّ الكره، وهذا حاصل في زمننا، فإنّه يمهّد السبيل إلى الشرّ، وماذا نريد، أنت وأنا، غيره!؟ ليكن شرّ، وعندئذ تصبح للشرّ مملكة، ونحن نقترب من تخومها، وهذا ما يسعدني جدًا، وإني لواثق أنه يسعدك أيضًا! يكفي ما تشرّدنا، يكفي ما لعنّا، يكفي هذا الكره، غير المبرّر، الذي لحق بنا ولا يزال، وعندما تصبح لنا مملكة، ستكون مملكة للحقد، والعدوان، والانتقام الرهيب الذي لا تدنّسه

الرحمة! أبشري، أساسات هذه المملكة قد أرسيت الآن، في مكان ما من العالم، قريب جدًا منا، وعندما يستتبّ لنا الحكم، ستتبدّل صورة المَسْكنة، والبكاء على الحيطان، وتعفير الوجوه، وتبرز صورتنا الأخرى، الحقيقيَّة، صورة الولوغ في دماء أعدائنا، والانتقام العديم الشفقة، واستباحة جميع المحرّمات، جميع المقدّسات، إلاّ محرّماتنا نحن، ومقدّساتنا نحن، لأنها، وحدها، المختارة، وأنتِ، يا عزيزتي البومة، تعرفين من اختارها لنا!

ارتعشت العنقاء على ساعد كاترين الحلوة وقالت:

ـ لشدّ ما هو فظيع ما أسمع!

قالت العثّة:

ـ فظيع جدًا أيّتها الأنيقة، الرشيقة، بين الطيور، وقد عبّر الوطواط، بقسوة ولكن بواقعية، عن مملكة الانتقام والحقد والبشاعة والدم، أي مملكة الظلمة الحالكة، التي في مثلها يعيش أمثاله، ولكن من البشر، إذا صحّ أن ننسب إلى البشر أمثال هؤلاء المتعطّشين إلى الدم، غير أن الأمور هي هكذا الآن، وستكون هكذا بشكل مضاعف، لو أن الزبد لا يذهب جفاء، أو لا يبقى، في الأرض، ما ينفع الناس.. فظيع!؟ نعم! ولكن الفظيع إلى زوال، هذا هو حكم التاريخ، بداية ونهاية!.

قالت العنقاء:

ـ عن أيّ تاريخ تتحدّثين أيّتها العثّة الحكيمة؟

أجابت العثّة:

ـ عن التـاريخ العامّ، الذي طوى في صفـحاته كل تاريخ خاص، لهذا الشعب أو ذاك، إذا ما كان مُدّعى، ومؤسسًا على غير ما يتّفق والتاريخ العام، في نزوعه إلى ما هو أفضل وأجمل.

ـ أواثقة أنت مما تقولين؟

ـ أنا لا أقول.. التـاريخ هو الذي يقول، وهو الذي يسم بميسمه جباه الذين يحاولون، عبثًا، أن يسدّوا مجراه بأيديهم، الملوّثة، الملطّخة بالجريمة، وما فيها من بشاعة تبعث على الرعب والتقزّز!

قالت العنقاء:

ـ بودّي أن أصدّق!

ردّت العثّة:

ـ صدّقي!

- ٦ -

عجب دعبس الفتفوت من حكمة السوسة، ومن إيمانها العميق بالتاريخ الذي يكتب نفسه على لوحة القدر، كائنًا من كان صانع هذا التاريخ، الذي في صفحاته الأبيض والأسود، وما هو بين بين، والذي يصدر أحكامه بحيدة كاملة، فلا يحابي، ولا يجامل، ولا يخشى، في الحق، لومة لائم، والبشر، جميعًا، يدخلون في قميصه الأبيض، فمنهم من هو إلى إشراق، ومنهم من هو إلى إمحاق، وفي هذا القميص النقيّ، كالكلمة الأولى، عالم يزدحم فيه الأضداد، بانتظار أن يصدر حكمه على كل منهم، بما يستحق، وبما فعلت يداه، وبما أساء إلى نفسه أو أحسن، في أخذ للعبرة أو في تجاهلها، لأن أهل الأرض أشكال، وكل شكل يدّعى أنه على حق، وفي هذا الادّعاء كثير مما يحتاج إلى غربلة، حيث يسقط الزؤان من غربال العدل، ويبقى القمح وحده فيه، والكل، الصالح والطالح، ينسى أنه على ميعاد مع الرحيل، لأنه لو لم ينس، لعاش حياته على نحو لا يطاق من الشقاء، وهكذا تكون الذاكرة رحمة حينًا، ونقمة حينًا آخر، وفي كلتا الحالتين، فإنها غائبة حاضرة، ومهما يكن حضورها نافعًا، فإن غيابها، أحيانًا،

أنفع، ومن هنا نعمة النسيان، هذه التي يرغب دعبس بالفوز بها ولا يستطيع، لذلك يستشعر التعاسة، وبسبب منها يكره نفسه، ويكرهها، أيضًا، لأنه يتكلم، أحيانًا، قبل أن يفكّر، ولا يمون على لسانه!

كذلك عجب دعبس الفتفوت من غواية الوطواط، فالمنطق، بعد كل شيء، هو المنطق، وكما أن للخير تعبيراته عن هذا المنطق، فان للشر تعبيراته عن هذا المنطق أيضًا، وهو، دعبس، إلى جانب منطق الخير، إلا أنّه يعترف أن منطق الشر هو السائد في هذا الزمن، وليس للزمن، كما ليس للتاريخ، ذنب في هذا التراجع الذي بلغ درجة الرداءة، وكل ما في الوسع، حاليًا، إمكانية التأمل في الأحداث، وتفحّصها، والسعي لمعرفة الأسباب التي أدّت إليها، وتدارك ما يمكن تداركه، من خلال الفهم للعوامل،، في ضوء مفهوم جديد، بعيد عن التحجّر، وعن السكون، وعن المكابرة، مفهوم يأخذ في حسابه متغيّرات طرأت، كانت تنمو، شيئًا فشيئًا، في رحم الممارسات السابقة، بكل ما فيها من اخطاء، تراكمت فانفجرت، وفق قانون التراكم الذي يؤدّي إلى تبدّلات نوعيّة، في تحوّله، كالماء، من الذوبان، إلى التجمّد، حين يبلغ التسخين أو التبريد، درجة معينة تفرض هذا التحوّل النوعيّ، خارج إرادة الانسان، ودونما مسؤوليّة، في كل هذا، للزمن أو التاريخ. فالأخطاء تتطلب دائمًا أثمانها، وعلى البشرية أن تدفع ثمن أخطائها، بكل ما فيها من غفلة، ومن قمع، ومن استلاب للحريّات، ومن رؤية الوقائع رؤية مغلوطة، فيها تزاويق مضلّلة، زيّنت القبيح الذي لا يزيّن، منتهزة غياب الحوار والنقد والنضال، هذه الأمور التي وحدها تحمي من الاعوجاج، وتاليًا من الانهيار.

كانت ذات دعبس، كالذوات الأخرى، تتكلّم خلال هذا الوقت، دون كلام، ومن خلال الصمت الذي راحت دوائره تنداح، فتساءل دعبس:

ـ كيف استكانت البومة لراحة يد كاترين، ولأصابعها التي تتخلّل، كالمشط، ريشها؟

وتساءلت كاترين:

ـ لماذا يجترّ دعبس ما في معدته من علف مخزّن، وهو ليس من فصيلة الحيوان؟

ـ نعم! نعم! لو كان هناك تقويم للاعوجاج، لم يصل الوضع حدّ الانهيار، إنني، دعبس، قلت هذا، ولكن أحدًا لم يصغ إليّ!

ـ هذا الدعبس، فكرت كاترين، مسكون بالسياسة.. إنه جمل ولا فائدة!

ـ لا! ليس بجمل، فكرت السوسة، رغم أنه صبور مثله.. الذي يجترّه علف كلام، وليس علف قشّ!

الوطواط قال في ذاته:

ـ مهما يكن! العلف هو العلف، والاجترار هو الاجترار، دعبس حيوان مجترّ، أما أنا، لكوني طائرًا، فإنني أفضلُه من نواحٍ كثيرة.. أقول الكلام مرة واحدة، ثم لا أفتق ولا أرتق، وكذلك لا أحزن ولا أكتئب، وهذا الرغاء، عن التراكم والانفجار، والتحوّل من الكمّ إلى النوع، في الماء أو سواه، هراء زُعم أنه علم..

فكرت العنقاء مقاطعة:

ـ إنه علم، وبرغمك ورغم أمثالك أيها الوطواط.. دعبس أثبت لنا،

من خلال نظريّة الكم والنوع، والتحوّل الذي يجري، أن ما تراكم من فساد، كان لا بدّ له من الانفجار، والانفجار أدّى إلى انهيار، وبعد ذلك كانت الكارثة!

ـ إنني أحتجّ على مقاطعة تفكيري، هذا أولاً، والعلم يصبح هراء إذا ما تصنّم، هذا ثانيًا، والاجترار يبعث على الملل، بل على السقم، هذا ثالثًا، والكارثة فعل طبيعة كما هي فعل إنسان، هذا رابعًا، والطبيعة حيّة أبدًا والإنسان ميّت أبدًا، هذا خامسًا، والكوارث الطبيعية ليست سيّئة، لأنها تهدم ما هو مزعزع، وتقتل ما هو فائض، وهذا سادسًا..

ـ وسابعًا!؟

ـ الخراب!

فكّرت البومة:

ـ هذا جيّد!

ـ كي تنعبي فيه!؟ ردّت السوسة!

ـ وماذا في النعيب؟ إنه لون من الغناء، الحمام يهدل، والغراب ينعب، والعصفور يزقزق، والإنسان يثرثر، كما يفعل دعبس المنحوس، وهذا كله غناء متناغم، بعضه يكمل بعضه، ويكون منه فضلة تصبح تراثًا، ويكون منه، إذا ما أردنا التباهي، الفولكلور، وهذا، في الواقع الراهن، مطلوب جدًا، لأن به تكتمل اللوحة، وبه تتزيّن الدنيا، التي أصبحت فولكلورًا في فولكلور!

ـ تسخرين!؟

أجابت البومة.

ـ أجدّ ما دام الجدّ أصبح سخرية!

ـ والسخرية؟

ـ أصبحت تعميمًا فنيًا!

ـ هكذا إذن!

تدخّل الوطواط قائلاً:

ـ بالتمام والكمال!

فكّرت العنقاء:

ـ لشدّ ما باخت الأشياء، ولشدّ ما انقلب الجدّ هزلاً، ولشدّ ما أُفرغت الكلمات من مدلولاتها، وهذا كله واقع مع الأسف! واقع لا يد لنا فيه ولا حيلة، فمن يعيد الأمور إلى أنصبتها؟ من يُرجع للكلمة اعتبارها؟ ثم مَنْ يُنهي هذا الهزل، ويوقف هذا السخف، ويُسكت هذا النعيب؟ ومَنْ يجبه الطبيعة، ويروّضها، ويكفّ أذاها؟ ومَنْ في وسعه أن يُظهر الحق ويُزهق الباطل؟ ومن، يا ترى، يُجري الفرز بين الناس، فيضع الضعيف عن يمين والجشع عن يسار؟ ومن يكشف عورة اللّصّ، ومن يسترها بورقة توت؟ وأخيرًا إلى متى هذا الجزر ومتى يكون المدّ؟ أسئلة! أسئلة، ولا شيء غير الأسئلة، وحيرة، حيرة، ولا شيء غير الحيرة، وفضائح، فضائح وليس سوى الفضائح، وهذا كله يدعو، ويستدعي: الصمت أو السخف: الصمت احتجاجًا، تنديدًا، قرفًا، والسخف لامبالاة، منها تتولّد لامبالاة أشد ثقلاً وإبهاظًا، ولغو منه يتولّد اللغو ويتناسل ويتكاثر، حتى أمسك الاكفاء الشرفاء عن الكلام، زهدًا به وشكًا في أمره! وحتى اتّهم العقلاء أنفسهم

وجرّحوها، ورموها بالسخف اعتسافًا كما فعل دعبس الفتفوت الذي أنا سريرته، وأنا من يعرف أنه، هذه الأيام، يرغب في الانكفاء والانزواء والاعتزال، لولا أنه على بقية من أمل!

قالت كاترين الحلوة بصوت عال، لتقطع الصمت السائد:

- وبعد؟

قالت السوسة:

- وقبل؟

أجابت العنقاء:

- ما قبل نعرفه، وقد قاله دعبس والوطواط والعنقاء والسوسة والبومة، الا كاترين الحلوة، فإنها تصغي إلى ما قيل ويقال، بصوت ودون صوت، وبعد الاصغاء يأتي دور الكلام، ونحن نسألها، نتوسّل إليها، أن تتكلّم، أن تفصح، بصراحة، عن رأيها، وأن تصدر، ولو بقسوة، حكمها، ونحن نقبل به جميعًا!

احتجّ الوطواط:

- اقبلي به وحدك.. البومة وأنا من المعترضين على هذا التفويض، ولكل منا أسبابه في هذا الاعتراض.

قالت كاترين الحلوة بنبرة هادئة، عذبة، وصوت متّسق الجرْس، جميل الوقع في الأذن، مع ابتسامة فيها دلّ وجلال، وفيها نفحة دفء وكبرياء:

- اسمعوا يا أصدقائي جميعًا، الموافق منكم على كلامي والمعترض عليه أيضًا، إن وجودي بينكم ليس مصادفة، وليس قرارًا

مسبقًا في آن، ولمن يجهل منكم قصتّي أقول: إنني امرأة ملتبسة، لم يقطع أحد، حتى الآن، بأنني من البحر أو البر، وقد كثرت التساؤلات، والتحليلات، والاستنتاجات حول هذا الموضوع، دون الوصول إلى حسم يريح الجميع، أو يستريح اليه الجميع، لا بسبب من جهل أو غباء أو قصور عن الكشف، بل بسبب من غموض يلفّ شخصيّتي، كما تلفّ العتمة ضوء النهار، وحتى الذي أبدعني، وأخرجني إلى الوجود من عدم اللاوجود، أصابته الحيرة في أمره، فهو عاجز، اليوم وغدًا، أن يجيب عن هذا السؤال: من هي كاترين الحلوة؟ ومردّ ذلك إلى أن سرّي قد غرق، مع صالح حزوم الذي غرق، وعبثًا جرى البحث عنه في هيكل تلك الباخرة الغارقة، والتي فادى صالح حزوم بنفسه في النزول إليها، لاستخراج قوت البحّارة منها، إطعامًا لهم ولعائلاتهم الجائعة، فكان، في مفاداته، أمينًا لرياسته، ولتقاليد هذه الرياسة، وهذه الأمانة كرّسته ضحية وشهيدًا، وأنا فخورة بهذا من ناحيتين: كون صالح حزوم غامر، وكونه ضحّى، برغم ما أصابني من قهر على يديه.

توقّفت كاترين الحلوة عن الكلام، بعد أن بهر جمالها، وصوتها، وعذوبة لفظها، وسلامة نطقها، والغنّة في نبرتها، والأهمّ ابتسامتها، جميع من كانوا يصغون إليها، وبعد أن تأملت من حولها، ورازت جيدًا وقع كلامها عليهم، قالت وهي تبتسم وبشكل غير متوقّع:

ـ انتهت القصة!

تعالت الأصوات:

ـ كيف!؟

ردّت:

ـ لا كيف!

ـ ومن أنتِ إذن؟

ـ هذا هو اللغز!

ـ وبأيّ صفة أنتِ بيننا؟

ـ لا أدري!

قال دعبس الفتفوت:

ـ باعتبارها عروس بحر!

قالت السوسة:

ـ وعروس البحر سمكة!

قالت العنقاء:

ـ بل هي ملكة بحر، بكل ما في البحر من كائنات عجيبة، بينها السمك العجيب!

قالت البومة:

ـ لا تتعبوا! كاترين هي أنا، وهذا هو الخبر اليقين.

قال الوطواط:

ـ صدقَت البومة!

ردّت عليه السوسة:

ـ وكذبت أنت!

قالت العنقاء:

ـ توقّفوا عن هذا اللغط، لتتوقفوا، جميعًا، عن الكذب، بمن فيكم أنا!

سألت السوسة:

ـ والنتيجة؟

قال دعبس:

ـ لا نتيجة! كاترين هذه أحجية، وستبقى أحجية، وقد انتهت قصّتها، إلا أن كلامها لم ينته، دعونا نسمع ما تريد أن تقول، مهما تكن الصفة التي هي، بها، بيننا... أكملي يا عزيزتي، يا من استيقظتْ من نشيد الأناشيد، وتجلّتْ لنا في صورة حبيبة سليمان الحكيم، التي كان النشيد والإنشاد لأجلها.

قال الوطواط الذي خرج الآن من نتوء الجدار، حيث كان يختبئ:

ـ لم أشعر بالأمان إلا مع هذه الظبية، فكونوا ودعاء مثلها، حتى أستطيع أن أكون وديعًا بينكم، ومثلكم أيضًا!

أيّدت البومة:

ـ هذا كلام فيه رجاحة عقل، ويستحق صديقي الوطواط، من أجله، أن تتغيّر نظرتكم إليه! أما بالنسبة إليّ، وبرغمِ كراهية دعبس لي، فإنني أشعر بلذّة فائقة، لأن الأصابع التي تمسّد ريشي، قد أيقظت مشاعر أنوثتي، بصورة غريبة، غير مألوفة مني، لذلك أقدّم فروض الاحترام والامتنان، وآمل أن تُقبل!

قال الوطواط:

ـ لا بدّ أن تُقبل، بل يجب أن تُقبل، والاحترام الذي تتحدثين عنه يا عزيزتي البومة، ينبغي أن يكون متبادلاً، ما دمنا سواسية، لا أحد يمتاز بشيء عن أحد، وحتى كاترين الحلوة هي، في المحصّلة، حيوان مائيّ، باعتبارها عروس بحر، وما هي عروس البحر؟ إنها سمكة عجيبة، إلاّ أنها تظلّ سمكة برغم ذلك، والسمكة كائن بحري، مثلنا نحن تمامًا، باعتبارنا كائنات بريّة، وقد اضطهدتُ، أنا الوطواط، قبل أن تأتي عروس البحر هذه، غير أن الحقيقة، التي لها طعم الحقيقة وحده، بانت الآن، ولن يستطيع أحد منكم أن ينكرها، لذلك أطالب بالآتي: أن يُردّ لي اعتباري، وأن يكون ردّ هذا الاعتبار بالاعتذار العلنيّ، وبعد الاعتذار الذي يكفّر عن خطأ، لا بدّ من دفع ثمن هذا الخطأ، لأن دعبس هذا قال بالحرف الواحد: «الأخطاء تتطلّب أثمانها!» وإذن عليه أن يدفع ما دام قد أخطأ، وبذلك وحده تتحقّق العدالة، والدفع، طبعًا، يكون بالتغريم، وبالتجريم أيضًا، ومحاولة حرقي جريمة، أو هي شروع بالجريمة، وعقابها السجن والتعويض، وأنا مصرّ على الاقتصاص من هذا المجرم، وفق القاعدة الفقهية التي تقول: «السنّ بالسنّ والعين بالعين» وكذلك «الجزاء على قدر الفعل» ولأنه حاول حرقي، فان جزاءه هو السماح لي بأن أحاول حرقه أنا أيضًا، بالطريقة التي أراها متناسبة ومتكافئة!

قالت البومة:

ـ دعبس هذا قال في ذاته: «المنطق هو المنطق، ولا بدّ من الأخذ

بالمنطق» وما قاله الوطواط، وكذلك ما طالب به، ينسجم والمنطق، وعلى هذا فإنّ علينا، إذا ما كنا منطقيين، ونحن كذلك تمامًا، أن نؤيّد ما قاله، وما طالب به، وأن ندَعه ينفّذ، ونوفّر له وسائل ممارسة هذا التنفيذ، وفورًا.

ارتعد دعبس الفتفوت. كان، طول الوقت، يفكر، ولم يكن يدري أن ما فكّر به سيُعرف، وأن معرفة أفكاره ترتّب عليه كل هذه النتائج! قال في ذاته: «أيّ زمن هذا الذي لا يستطيع فيه الانسان، حتى مجرّد التفكير!؟ واذا كان، هذا الإنسان، يُجرّم على فكره دون فعله، فمعنى هذا حرمانه من حقّ التفكير، وهو حقّ مباح، في كل الأنظمة وكل الأزمنة، ولأنه مباح فهو مكتسب، والاعتداء على هذا الحقّ المكتسب اعتداء على السريرة، وتاليًا اعتداء على الطبيعة الإنسانيّة ذاتها، لأنه ما من انسان دون عقل، ووجود العقل متلازم ووجود الفكر فيه، والمسألة، بعد، أكبر مما كنت أتصور، فالمطلوب، في هذه الحال، مصادرة العقل، وماذا يتبقى لنا إذا صادروا عقولنا!؟ نصبح، عندئذ، في المجانين، فهل نحن في المجانين حقًّا؟ ولماذا ننفع اذا كنا، أو إذا صرنا، كذلك!؟ وهل كان ذلك الإنسان، في ذلك الفيلم السينمائي الذي رأيته، والذي اتّهم بسرقة الأهرام، ثم بسرقة النيل، مجنونًا، أم أرغموه على الجنون!؟ وهل كانت التهمة بسرقة ما لا يُسرق، تغطية لسرقة الذي يُسرق!؟»

أضاف دعبس الفتفوت بصوت عالٍ:

ـ كلّ شيء جائز! كلّ شيء جائز!

صات الوطواط:

ـ من فمك، إذن، أدينك يا دعبس!

سألت العنقاء:

ـ تدينه بماذا؟

ـ باعترافه أن كل شيء جائز!

ـ ولكن ليس كل جائز إدانة، أو يستحقّ الإدانة.. هناك حقّ جائز، وهناك باطل جائز، وعلينا أن نفرّق بين الاثنين!

ـ وكيف نفرّق بينهما؟

ـ بالعقل طبعًا!

ـ أيّ عقل هذا!؟

ـ العقل الذي مجّده المعرّي!

ـ كان هذا في زمن المعرّي! أي قبل أكثر من ألف عام، إلاّ أن الزمن، الآن، تغيّر، ودعبس من أشدّ دعاة التغيير حماسة، فهل تنكرين هذا؟ ثم لماذا العقل؟ ما نفعه؟ وأيّ بليّة يحمل لصاحبه؟ اسمعي يا عزيزتي العنقاء.

ـ أنا لست عزيزتك!

ـ إذن اسمعي دون أن تكوني عزيزتي.. الذين محوا عقل الإنسان، كما كان دعبس يفكر، أدّوا له خدمة مجانية! أراحوه! وهل يُلام الذي يريد الراحة للبشر!؟ فكّري أنت بما أقول: العقل متعبة! أم أنت من أنصار إتعاب البشر!؟ العقل، والعقلانيّة، والفكر والتفكير،

والباطل والبطلانيّة، والحقّ والحقّانيّة، كل هذه الأمور بدع، والبدعة تهمة، فلماذا التورّط والتوريط؟ ولماذا تجلبين تهمة كهذه لك ولصاحبك؟ وهل تحسبين أنك، بمثل هذه التعلاّت، تُلهينني عن القضيّة الأساس، وهي تنفيذ حكم الحرق بدعبس الذي أجرم في حقي؟ أنت، أيتها العنقاء غير العزيزة طبعًا، غبيّة! أنت هو الدبّ الذي هرس رأس صاحبه بحجر، وفي ظنّه أنّه يكشّ الذبابة عن وجهه! كفّي عن هذرك حول العقل، وحول تمجيد العقل، وعن نبش عظام المعرّي التي صارت رميمًا، وعن اهمية التفريق بين الحقّ والباطل، وعن تمايز النور من الظلمة، فلولا أحدهما ما كان الآخر.

قالت البومة:

ـ ما أبلغ ما قلت يا صديقي! إنني معجبة بك بشكل يفوق الإعجاب، لكنني، الآن، أشعر باستيقاظ أنوثتي، لذلك أدع الإعجاب بك، والتأييد الذي تستحقّه اقوالك، إلى ما هو أهمّ: إشباع رغبتي!
سأل الوطواط:

ـ إشباع رغبة الانتقام؟

ردّت البومة:

ـ نعم! ولكن بطريقة أخرى!

ـ لم أفهم!

ـ لا تتغابَ.

صات الوطواط:

ـ عن أيّ غباء تتحدّثين ونحن على حدّ الحدّ!؟

ـ عن غباء الذكر فيك!

ـ وغباء الأنثى التي فيك؟

نبرت البومة:

ـ أحمق!

ردّ الوطواط بقسوة:

ـ خسئت!

ـ ذكر ولا فائدة!

ـ وماذا في الذكورة مما يعاب أيتها الحمقاء؟

ـ كلّ شيء!؟ سل حواء عن آدم تعرف.. كان بليدًا مثلك، لأنه كان ذكرًا مثلك، حدّثته حوّاء عن التّفّاحة فحدّثها عن البصلة!

ـ وما الفرق؟

ـ بين التّفّاح والبصل!؟

ـ ولماذا العجب ما دام كلاهما ثمرة؟

ابتسمت كاترين الحلوة، للمرة الأولى، زادت من دغدغة ريش البومة، فازدادت هذه اهتياجًا، أدركتا، الآن، بفطرة الأنثى، أنهما متفاهمتان، وللمرة الأولى أيضًا، بينما استغرب الوطواط، وللمرة الأولى أيضًا وأيضًا، هذا التفاهم، فرفرف بجناحيه اللحميين وطار خوفًا، وبعد أن حشر نفسه في فجوة الجدار، صات بهلع:

ـ خيانة! خيانة!

قالت البومة:

ـ الآن تأكّدت أن لديك، لديكم جميعًا، تهمة جاهزة: الخيانة! كل أنثى، من كل المخلوقات، خائنة، وكل ذكر، من كل المخلوقات، غير خائن، لأن من حقه أن يفعل ذلك، دون حساب، دون عقاب! إنه يشبع رغبته، كيفما شاء، وحيثما شاء، لأن لديه مشاعر، أما الأخرى، الأنثى، فإن عليها، كما هي حالي الآن، أن تكبت مشاعرها، وإلاّ فإن التهمة جاهزة! لماذا؟ وإلى متى؟ وكيف يتنكّر الجسم للضلع الذي قُدّ منه؟ ومَنْ الأكثر وعيًا، الذي ميّز التّفاح والبصل، أم الذي لم يميّز بينهما!؟ ومَنْ الذي فتح عيني الآخر على الحقيقة: حوّاء أم آدم!؟ ومَنْ الذي، بينهما، استجاب لنداء الطبيعة، هي أم هو!؟ ومَنْ الذي آثر التعب مع الكفاح، على الراحة مع الكسل!؟ وأيّهما أفضل، العامل أم القاعد عن العمل!؟ ومَنْ منهما تقبّل التضحية مع الألم، لتكون من بعده الذراري!؟ وأيّ منهما كان الأخلص لطبيعة الخلق، وناموس الحياة!؟ قل، أنت، أيها الغبيّ، أيّها الجبان، أيّها الهارب وليس من يطارده، بعد أن منحتنا كاترين، الملكة، نعمة الأمان!؟

صات الوطواط:

ـ كفى! لم أعد احتمل! أنت ملعونة مرّتين: لأنك خُدعت فتكلمتِ بأصابع كاترينك، ولأنك، دونما مبرّر، حنثت بالعهد وفككت رباط الحلف المقدّس بيننا! ما سبب ذلك كله؟ أنا أقول لك: نقص العقل! أنت، أيّتها الحمقاء، ناقصة العقل، وهذا الذي ثرثرت به، إرضاء لهم، لن يجلب لك رضاهم: أنا أعتبرك آبقة، وهم يعتبرونك مارقة! دعبس الفتفوت هذا يكرهك، يشمئزّ من رؤيتك، ينفر من رائحتك، وقد قال لك ذلك صراحة، وحاول القبض عليك لقتلك، وطاردك ليرميك خارجًا، فمن الذي ناصرك

وانتصر لك، من الذي، بيننا، كان الأمين لمهمّته في الوسوسة والخَنْسَنَة؟ زعمتِ، وأنت على حق، أنك نفس دعبس، ودعبس يكره نفسه، اذن هو يكرهك يا غبيّة! فكّري بهذا كله، قبل أن تفكّري بأنوثتك التي استيقظت، ومشاعرك التي رغبت، والتي تسعين، بغير طائل، لإشباع رغباتها! اكبتي شهواتك، فصاحب المهمّة وصاحب الشهوة لا يأتلفان، وهذا هو حدّ الحدّ الذي، أنت وأنا، نقف عليه، وأيّ ميلان عنه يودي بنا إلى الهاوية، إلى الكارثة، إلى انتصار النور على الظلمة، وماذا يكون مصيرنا اذا انتصر النور على الظلمة!؟ الهلاك! فهمت!؟

قالت السوسة:

ـ الفهم، أيها المُسخَّم، لا ينفع مع العجز، أنت وهي عاجزان عن نصرة الظلمة، وكذلك الخليقة كلها.. في البدء كانت الكلمة، كان النور!

رد الوطواط:

ـ وفي البدء كانت الظلمة، لأنه كان النور، وعبثًا تلعنون الظلمة!

قالت السوسة:

ـ نحن لا نلعن الظلمة، بل نشعل شمعة!

قالت العنقاء:

ـ نعم! نحن نشعل شمعة!

ابتسمت كاترين الحلوة سرورًا بذكاء السوسة، قالت في ذاتها سعيدة جدًا: «نعم! نحن نشعل شمعة! تاركين للآخرين أن يلعنوا الظلمة!».

ـ ٧ ـ

تعب دعبس الفتفوت من هذا الجوّ الذي ارتهن له دون إرادته. تمطّى، تثاءب، انتابه الضجر، وقف، جلس ثانية، بحث عن الشفقة في عيون من حوله، لم يجد شفقة، لم يجد شماتة، نظر في عيني كاترين الحلوة، أملاً في أن يستمدّ بعض العزاء منها، طالعته عينان زجاجيتان، دون حواجب، دون رموش، دون أن يطرف الجفنان، أجفل لأن المرأة التي أمامه تحوّلت إلى سمكة، أو صارت امرأة بجذع سمكة، ورأس سمكة، وأطراف سمكة. هاله الأمر، أيقن، الآن، أن وجودها الذي كان، اختفى، حلّ محله وجود آخر، هو الصفة التي أهّلتها لتكون حيث هي كائنة: إحدى مخلوقات البحر، موجودة بين مخلوقات البر، وأنه وحده، من دون سائر الموجودين، ينتمي إلى فصيلة أبناء آدم، هؤلاء الذين تخلّوا عنه، لسبب يجهله، وذنب لم يرتكبه، وأنه معاقب دون أدلّة، دون بيّنات، وعقابه الإصغاء ثم الإصغاء، لا يدري إلى متى، وكل ما يستطيعه، في هذا الوضع، أن يفكر بذاته، ولذاته مع تعليقات بسيطة، لا يُؤبه لها، بعد أن أفهمته البومة أنها نفسه التي يكرهها، وأخبرته العنقاء أنها سريرته الكامنة

في ضميره، مع جهله مكان هذا الضمير من جسمه، واستنتاجه أنه لا بد أن يكون في رأسه، لأن الوسوسة أو الخنسنة موجّهة إلى هذا الرأس، وكل من البومة والوطواط يسعى إلى النفاذ إليه، ومثلهما السوسة والعنقاء، لغرضين مختلفين تمامًا!

الذي تمنّاه، أو ادّعاه صار اذن، وهو الجنون! دعبس لا يصدّق ما يجري، أو يقال، حوله: هلوسة! الهلوسة نوع من الجنون، بداية جنون، إذا تطوّر فقد المصاب به المدركات. فكّر «هل وصلتُ حدّ فقْد المدركات، وما أراه ليس سوى تهيؤات!؟ كنت أفاخر بالجنون نكاية بالعقل. كنت أسخر من «العقلاء» الذين أوصلونا إلى الدرك الذي نحن فيه، وسخريتي كانت مريرة لكنها صادقة، فماذا أفعل، الآن، وقد انقلب سحري عليّ، وأوشكت على الجنون؟ لمن أشتكي؟ إلى من ألجأ؟ وهل من سبيل للخلاص؟».

قالت السوسة:

ـ سبيل الخلاص، يا دعبس، أن تتماسك! أقول: تتماسك، حتى لا أستعمل عبارة «رباطة الجأش!» الجاهزة. لعلمي أنك تكره العبارات الجاهزة، والكلمات المتقعّرة، أو المتفذلكة، أو المنحوتة تعسّفًا، وقد أوصيت أهلك، وأصدقاءك، وحذّرتهم من قبول أيّ نوع من حفلات التأبين بعد موتك، حتى لا يأتي متفاصح فيقول عنك: «كان المرحوم كاتبًا نحريرًا!» تأمل «نحريرًا» هذه، وفكّر بما يحدث لعظامك وهي تستريح في قبرك! كلمة «تماسك» في الحال التي أنت فيها، مناسبة جدًا! التماسك دواء جيّد لمواجهة كل النائبات، فكن متماسكًا تنجُ، ثقْ بما أقول! إنني صديقة نصوح، فخذ بما أنصحك به.

قالت العنقاء:

ـ ما تقوله السوسة هو الصواب.. هذه الحكيمة عن تجربة، قالت حكمةً، فهل ترفض الحكمة!؟

قالت السوسة:

ـ أرجوك، يا صديقتي العنقاء، ألاّ تذكري «الحكمة» أمام دعبس، مرة أخرى، حتى لا يفقد توازنه! إنّ توازن دعبس النفسيّ، هو الضامن الوحيد لخلاصه، ولأنني أريد له هذا الخلاص، فقد تجنبت عبارة «يطيش صوابه»! لأنها عبارة أخرى جاهزة، وقد كانت كفيلة بإثارته، في حين نسعى، نحن أصدقاءه، لتهدئته! دعبس هذا شديد الحساسيّة، وبمثل ما يكره حفلات التأبين، يكره حفلات التكريم، ويكره، كذلك المؤبّنين والمكرّمين على السواء، فبين هؤلاء وأولئك، يندسّ الذين «يزهق الروح ظلّهم!»، خاصة اذا كان دعاة التأبين والتكريم من أهل المبالغة، فتزيّدوا في الحفاوة، ترحّمًا وتفجّعًا، وكذلك تمدّحًا، وإطنابًا، فملأوا بطاقات الدعوة، أو رشموها، بقائمة طويلة عريضة من أسماء السادة المتكلمين، وهات «يا لتّ ويا عجن!» والمرحوم، أو المحتفى به، من ضيّقي الخلق، يعرف أن نصف ما يقال، اذا لم يكن كل ما يقال، كذب ونفاق، أو تفشير في تفشير، جريًا على عادة «البكاء على كلب القاضي إذا مات هذا الكلب، والضحك على القاضي اذا مات القاضي!» وهذا يحدث كثيرًا، لأنه من «عدّة الشغل»! والشغّالون، في مناسبات كهذه «أكثر من الهمّ على القلب»! وأنا، صدّقيني، أعرف ما أقول!

قالت العنقاء وهي تضحك:

ـ إذن ذلك كذلك!؟

ردّت السوسة:

ـ نعم! ذلك كذلك!

ـ إذا كان هذا ما يخشاه دعبس، فهو على حق، وأتصور المشهد، في هذه اللحظة، وكأنه يجري أمامي، على الشكل التالي:

ـ «هذا أديب يأكل الذلّ نفسه!»

أكملت السوسة:

ـ وذا أدَبٌ رخو المفاصل مصقع!»

ـ «وهذا حكيم يزهق الروح ظله!»

ـ «وذي حكمة تعوي وتلك تجعجع!»

ـ «وهذا ـ رعاك الله ـ في الناس شاعر!»

ـ «أيملك، في دنيا الكناري، ضفدع!؟»[1]

احتج الوطواط:

ـ ما هذا؟! حفلة تأبين أم حفلة تشهير!؟

ردّت السوسة:

ـ الاثنتان معًا!

---

١ ـ المقاطع التي بين الأهلّة من قصيدة الياس أبو شبكة في تأبين عمر فاخوري.

ـ كرمى لدعبس؟

ـ كرمى للواقع!

ـ لكن الاستغابة حرام.

قالت العنقاء:

ـ ومنذ متى تعرف، أنت، الحلال من الحرام!؟

ـ منذ سمعت هذا الفحيح!

قالت أفعى وهي تنساب على أرضيّة القاعة:

ـ وماذا في الفحيح؟ تعيّرني، أيّها الخنّاس، بصوتي!؟

وبعد أن تكورت الأفعى على شكل كعكة، أتلعت رأسها وأضافت:

ـ إذا كان دعبس يرفض التأبين والتكريم كليهما، فهذا شأنه، وكذلك شأنه أن يتكلّم أو يصمت، فلماذا ترهقونه بهذا اللغو كلّه!؟

أجاب الوطواط:

ـ لأنه يخرق المألوف، وهذا ممنوع قانونًا.. اختراق المحرّمات معاقب عليه، فهل فهمت، إذن، لماذا كل هذا الأخذ والعطاء!؟

ـ وما هي هذه المحرّمات؟

ـ هناك قائمة طويلة عريضة بها، إلا أن الموضوع، الآن، يدور حول كلمة: لا! لماذا يقول: لا! يجب أن يقول: نعم! هذه هي المسألة!

ـ وما رأيك أنت؟

ـ أنا مع كلمة: نعم! دعبس هذا محرّض خطير، يقول للظلمة: لا! تأمّلي!

ـ وأين التحريض في هذا!؟

ـ التحريض في قوله لا! إنه يقول لا للظلمة، ونعم للنور، وهذا خرق فاضح لناموس الطبيعة! قبل حضورك حاول حرقي، وأنا أطالب بحرقه هو بالمقابل، ولم يبق الا التنفيذ، والبحث الآن، في الوسائل: بأي وسيلة أحرقه!؟ قولي أنت، يا مُحبّة الظلام مثلي!

قالت الأفعى:

ـ أنا لست محبّة للظلام مثلك، وسيّان، عندي، النور والظلمة، لكن مسألة الحرق هذه مرفوضة، وقد عانيت منها الكثير، فالإنسان يطاردني، وكلما اختبأت منه في دغل من القش، أضرم النار في القشّ لإحراقي، مع أنني لست عدوّته، وإذا كنت ألدغ، فان لدغي دفاع عن نفسي، وهذا ما لا يريد فهمه أبناء آدم!

قال الوطواط:

ـ ولن يفهموه أبدًا! نصيحتي، أيتها الأخت العزيزة، أن تلدغي وتلدغي وتلدغي، أنت خلقت لهذا، ودونه تخالفين شرعة خلقك، دعبس هذا عدوك كما هو عدوّي، إذن حلفنا صار ثلاثيًا: أنت والبومة وأنا!

قالت البومة:

ـ هذا صحيح!

قالت السوسة:

ـ غير صحيح! الأفعى عدوّة الوطواط، والحلف لا يكون بين الأعداء.

ردّت البومة:

ـ عدوّ عدوّي صديقي.. هذه قاعدة معروفة، ثم إننا، الأفعى والوطواط وأنا، نشترك في السكن، فالخرابة بيتنا نحن الثلاثة، والإنسان يطاردنا حتى ونحن في بيتنا، لأنه يبني ما هو متهدّم، وكلما انتقلنا من خرابة، لاحقنا بالبناء في خرابة أخرى، ولا ينتقم لنا سوى الزلزال: إنه يهدم كل شيء، وعندئذ تتوفّر لنا مساكن كثيرة، تعرفون لماذا يحدث هذا؟ لأن الطبيعة متوازنة، والزلزال أحد رموز هذا التوازن، إنه يضرب ويضرب، وسيظلّ يضرب ويضرب، وستظلّ العبثيّة، على هذا النحو، سيّدة الموقف: الإنسان يبني والزلزال يهدم!

صات الوطواط:

ـ يعيش الهدم، ويسقط البناء!

ردّت السوسة:

ـ لا تفرحوا بهذه العبثيّة الملعونة! لن يعيش الهدم ولن يسقط البناء، وإذا كانت الطبيعة جبارة، فإن الإنسان أشد جبروتًا، وهو يروّضها، هي ورموزها، يومًا بعد يوم!

سألت الأفعى:

ـ ماذا يجري هنا؟

أجابت العنقاء:

ـ معركة لفظيّة!

ـ يعني كلام في كلام؟!

ـ نعم! جعجعة ولا طحن!

ـ وما سبب هذه الجعجعة التي بلا طحن؟

قالت البومة:

ـ دعبس الفتفوت هذا يكره نفسه!

قالت الأفعى:

ـ وما الضرر في ذلك؟ أن يكره دعبس الفتفوت نفسه أو يحبّها، فهذا شأن يخصّه وحده، أم أننا صرنا إلى زمن يتدخّل الآخرون فيه بين الإنسان ونفسه!؟

قالت العنقاء:

ـ نحن، الآن، في هذا الزمن تمامًا أيتها الحكيمة.

ـ فظيع!

صات الوطواط:

ـ أين الفظاعة أيتها المرائية؟

ـ في الذي أسمع، وفي كونك تتكلم وأنت تختبئ! لماذا لا تنزل إلينا لنتفاهم بهدوء؟

ـ نتفاهم على ماذا؟ إنني، لعلمك، ضدّ التفاهم، وهذا لصالحك، فلو تفاهم البشر لكانت الكارثة، ولدارت الدائرة علينا جميعًا! الخلاف ثم الخلاف ثم الخلاف، هذا هو الشعار الذي نرفعه، البومة وأنا، وعليك أن ترفعيه معنا، إذا ما أردت أن يكون التضامن بيننا حقيقيًا وفعالاً، أم أن كلمة «حكيمة» التي وصفتْك بها العنقاء قد

أدارت رأسك؟ هذه، يا غبيّة، كذبة بلقاء، ودعبس هذا، لو استطاع، لسحق رأسك، لأنه موكل بذلك، وأنت، كما في الوصيّة الأولى، موكلة بلدغ عقبه، فحذار من مخالفة الوصيّة، وحذار من مسالمة الانسان، وحذار من الدعوة إلى التفاهم، والا كان مصيرك مصير براقش التي جنت على نفسها!

قالت البومة:

ـ بالحق نطقت يا صـــديقي الوطواط ـ أيهـــا الحليف الأمين، فالخلاف رحمة لنا، والاتفاق بليّة علينا، والحذر لا بد منه، كيلا تكون غفلة نذهب ضحيّتها جميعًا! لكنّ بذر الخلاف وحده لا يكفي، هناك ما هو أهمّ منه: التفتيت! لنفترض أن هناك مجموعة بلاد، القاسم المشترك بينها اللغة والدين والتاريخ، وأن هذه البلاد عدوّة بلد الوطاويط، فماذا تفعل في هذه الحال؟ تواجهها مجتمعة؟ ستقول تفرّق ما بينها، على قاعدة «فرّق تسد» المعروفة، وأجيبك أن هذا لا يكفي، وقاعدة «فرّق تسد» فات أوانها! نعم! فات أوانها، وقد استُخدمت حتى تهرّأت، وأصبحت معروفة ومكشوفة، بعد أن استخدمها الذئب طويلاً ضد الكباش، وكذلك فعل الثعلب ضدّ الديكة.. الآن جاء دور التفتيت، ومن الداخل! هذا ما يسمّونه المكر، وهذا ما يسمونه الدهاء! خذ بلد «ج»، مثلاً، فقد حاول بلد «ف» أن يبقيه تحت سيادته، على أساس القاعدة إيّاها ففشل، فجاء بلد «أ» واستخدم قاعدة أخرى، أحدث، أبرع، ونجحت، تعرف كيف ولماذا؟ لأنه فتّتها من الداخل، عن طريق التقاتل، حين دفع، متعمّدًا، جماعة من بلد «ج» إلى قتال جماعة أخرى من البلد نفسه، ولأعوام طويلة، فكان التفتّت يزداد، يومًا بعد يوم، ولا يزال

يزداد، إلى أن يُفني أهل هذا البلد بعضهم بعضًا!! هذا مثل للقياس، يصحّ على بلدان أخرى، تتفتّت بالطريقة نفسها، ومع التفتيت من الداخل، جرى الاستعداء من الخارج، فكان التباغض، والتباعد، حتى صارت هذه البلاد جزرًا منفردة، متباعدة، متنافرة، متعادية، وهذا ما سهّل عمليّة استجرارها، الواحدة بعد الأخرى، إلى فخّ التنازل للعدوّ، تحت ستار التسوية مع هذا العدوّ، والحبل، كما يقال، على الجرّار، إلا من عصم ربّك، وبلد «أ» يتفرّج على الحرائق، التي أشعلها، بأيدي غيره، وفي هذا الجوّ من التفتّت والتناحر والتباعد، أصبحت الأرض ممهّدة أمام مشاريع احتواء هذه البلاد، ونهبها، واستنزافها، ثم إيقاعها جميعها في قبضة جلاّدها!

خرج الوطواط من فجوة الجدار، راح يطير شبه متقافز من الفرح، استسلمت البومة أكثر لتمسيد أنامل كاترين، تبدّى الوجوم على العنقاء، لاذ دعبس بالصمت وهو يفكر بالذي قالته البومة، راح رأس الحيّة الأتلع يدور محدّقًا في حركات الوطواط، متابعًا له، علّه يرتطم بالجدار فيسقط، وبقيت كاترين الحلوة، عروس البحر، على وصفها، تمسّد ريش البومة بيد، وتحمل العنقاء على ساعد اليد الأخرى، فتيقظّت السوسة جيدًا، دون أن تغيّر مكانها، ودون أن يعرف أحد هذا المكان، قالت في نفسها: «اذا كان للشرّ مخلب، فان للخير مخالب، الا أن الخير في سفر «هيهات يرجع!» وكلام الوطواط عن الخلاف ثم الخلاف قراءة جيّدة للواقع، وما قالته البومة قراءة أكثر جودة لهذا الواقع، ومن العبث الإنكار أو المماحكة أو التهوين، فالفساد يدبّ، ودوري أن أقرض الأعمدة الخشبيّة في هياكل البلدان

التي دبّ فيها الفساد، لكنني لن أفعل، لن أبدأ الآن على الأقل، عسى أن تحدث معجزة، ويُتدارك هذا الفساد، وتستفيق النفوس «النائمة على الثقة» قبل فوات الأوان، ويتوقّف هذا التراجع بانتظار الثبات، وتاليًا التقدّم، ولو بعد عقود من الزمن! الوسوسة والخَنْسَنَة، في هذا الزمن المتردّي، تجدان مرتعًا حتى على القمر، فماذا في الوسع حيالهما؟ وماذا يُجدي اللامنطق مع المنطق، عندما تتوفّر أدلّته؟ هناك كاتب عربيّ قديم، أرجّح أن اسمه أبو حيّان التوحيدي، قال هذه الحكمة: «لو اعتبر من تأخر بمن تقدّم، لم يكن مَنْ يتحسر في الناس» ولو كان الندم، الذي يأتي مع الحسرة، ينفع أحدًا، لانتفع به دعبس الفتفوت هذا، ولكن من هو دعبس، في المآل؟ ولماذا تقف إلى جانبه عروس البحر، بكل هذه المهابة والاحترام؟ ظني أن بينهما معرفة قديمة، وعلاقة قديمة، علاقة حبّ من النوع الذي لم يصل ذروته، ولأنه كذلك فقد ظلّ حيًا، ظلّ صاعدًا، مع كل ما فيه من جفوة، فالصاعد إلى الذروة يحتفظ، دائمًا، بدفئه، وبدافعه، ولا يعرف النزول، على الطرف الآخر من الذروة، الا ببلوغها. يُقال إن الفراق سرطان الحب، كما أن الصدأ سرطان الحديد، الا أنّ الحبّ في تصاعده، عصيّ على سرطنة الفراق، حيث تبقى له، في ذاته «سريرة حبّ حين تبلى السرائر» ودعبس وكاترين، هذه التي هي بيننا عروس البحر، لهما، في الحب، سريرة ما! نعم! سريرة ما».

قالت الأفعى:

ـ ماذا جرى؟ لماذا هذا الصمت؟ وأنتَ، أيها الوطواط الذي يتقافز فرحًا، ما بالك «ترقص بأكثر مما ينفخ الزمّار»؟

ردّ الوطواط:

ـ هذا هو زمني، وهو زمن الرقص على قبور الذين لم يُواروا الثرى بعد! إذن لندع الموتى يدفنون موتاهم، حسب أحد الحكماء، الا أن موتى هذه الأيام «موتى على الدروب تسير!» فمن الذي صيّرهم موتى؟ ومن الذي سيّرهم على دروب الآلام؟ وكيف لا أفرح وأنا أرى آمالي تتحقّق؟ إنّه الشر، وأصحابه أعداؤكِ، لكنك غبيّة، والغباء داء لا دواء له!

قالت الأفعى:

ـ خسئت! كل داء له دواء، وحتى الخلاف والفرقة والتفتّت والتفتيت ستعالج كلّها، وتشفى، يومًا ما، الجراح كلها، فلا تتسرّعا، أنت وبومتك، بدق طبول الشماتة!

قهقه الوطواط وقال:

ـ تعجبني جدًا قولتك «يومًا ما!» طبعًا يومًا ما ستتغيّر الأشياء، لأن عمر الدنيا مئات ملايين السنين، وأعرف مثلك أن الأشياء، خلال كل هذا الزمن الطويل، قد تغيّرت مرّاتٍ لا حصر لعددها، لكننا، البومة وأنا، نتحدّث عن زمننا هذا، فما رأيك في حديثنا الذي يمتلك صدقيّته!؟ وهل تجادلين في ما لا يجادل به!؟ كوني حليفتنا تربحي، وكونك هذه الحليفة من طبيعة الأمور تمامًا، فلماذا التحرّج؟ ممَّ تخافين؟ نحن لا نراهن على رقم خاسر، ولا ندقّ طبول الشماتة بل طبول الحقيقة، فلماذا المماراة اذا كانت الوقائع بلقاء كعيني التنّين؟ ثم منذ متى، يا سفّافة التراب، كنت رمز الخير، وأنت رمز الشرّ من عهد حواء؟

قالت السوسة:

ـ الأفعى، في الأساطير القديمة، كانت رمز عطاء وقداسة، ويكفيها فخرًا أن تفّاحتها التي تذوّقتها حواء وآدم، كانت رمز خصب وكفاح، أما الخصب فان البشرية دلالته، وأما الكفاح فإنّه فرح الحياة، وبه صارت الجنّة التي في السماء، جنّة عامرة على الأرض، وقد قال السيد المسيح لتلامذته: «كونوا ودعاء كالحمام، حكماء كالحيّات» فما رأيك، أيها الأسحم، بهذه الشهادة الفائقة الأهميّة، البالغة التقدير؟ وما رأي كاترين الحلوة، بدعبس الذي هو الريّس صالح حزوم؟ هل ما زال أحدكما يحب الآخر، رغم الفراق الطويل؟

فوجئ الجميع بكلام السوسة، تساءلوا في ذواتهم عن هذا الكشف غير المتوقّع، وما إذا كان صحيحًا، أم أنه من اختراع السوسة، التي أرادت به الإدهاش، والبرهنة على أنها أفهم منهم كلهم، وأن الله تعالى وضع سره في أصغر خلقه؟ وبعد أن تبادلوا نظرات الاستغراب، تعلّقت أبصارهم بوجهي كاترين ودعبس، لمعرفة ردّ الفعل عندهما، وكشف القناع الذي أخفى دعبس حقيقته وراءه، في تمويه بارع يغلب عليه الصمت، والإصغاء الجيّد، ولا مبالاته بكاترين، ظاهريًا على الأقلّ، وادعاؤه أنه يكره نفسه، مع أن الريّس صالح حزوم، كان من الشجاعة والعزم والحزم، وكان من الإباء والكبرياء، في محاربة الأتراك وبعدهم الفرنسيين، ما يجعله في موقف أرفع، وشموخ أكبر، من أن يكره نفسه أولاً، أو يتبدّى بهذه المسكنة ثانيًا، أو يحتمل كل هذا التعذيب الذي يعانيه منذ الصباح

ثالثًا، إضافة إلى أنه، كما هو معروف، قد غرق في تلك الباخرة، ولم يعثر على جثته السبّاحون، الذين غطسوا حتى أعماق الباخرة الجانحة، ليوم كامل، دون جدوى، وبعد ذلك يئسوا من أمره، الا ابنه سعيد حزوم فقد زعم، ربما للمباهاة، ان والده لا يغرق، وأنه في البحر أو البرّ، وسيظهر لا محالة، قويًا شجاعًا كما كان دائمًا.

خلال هذا الصمت، راح الذين في القاعة، يفكّرون بقصّة كاترين ودعبس، محاولين تفهّمها على مهل، تحليل مغزاها بتأنّ، متسائلين، بينهم وبين أنفسهم، ما اذا كانت لغزًا، أو خدعة، أو حقيقة، وما إذا كان القصد منها إخافة المتجرّئين، المتطاولين، المستخفّين بدعبس، العاجزين عن فهم عروس البحر، المتأرجحين في حكمهم عليها، دون أن يصلوا إلى معرفة هذه الشخصيّة الغامضة، أهي كاترين الحلوة فعلاً، أم هي سمكة عجيبة ليس إلاّ؟ وهل هي انسيّة أم جنيّة؟ أو من البحر أم من البرّ؟ وما هي القوّة الخفية التي بها قبضت على البومة، في حين عجز دعبس عن ذلك؟ ولماذا تمسّد لها ريشها، وتستثير انوثتها، بأناملها التي تحمل شحنة إثارة خارقة!؟ وهل هذه الأنامل، هذه الشحنة الخارقة الإثارة، تعطي النتيجة عينها، عندما تمسّد ظهر الرجل؟ وهل جنّ بها صالح حزّوم والريّاس الآخرون، بسبب من ذلك؟ وما هي اللّذة التي تستشعرها البومة الآن، وإلى أيّ مدى!؟ هناك سرّ، من المؤكد أن هناك سرًا، فكيف يستغلق علينا، وينفتح على السوسة!؟

صات الوطواط:

ـ «انحراف! أراهن على قطع رأسي، بأنّ السوسة، في كهانتها، اخترعت هذه القصّة لتنحرف بنا عن الموضوع الأساس!»

فكرت الأفعى:

«كوْني حكيمة فذلك لأنني أعرف نفسي. اعرفْ نفسك تكن حكيمًا. إلاّ أنّ الحكمة فوقها حكمة دائمًا، وحكمة السوسة فاقت حكمتي، هذه الحشرة الصغيرة أرغب في صداقتها، وقد أرضتني أجوبتها التي تنطوي على دهاء كبير، ما معنى هذا؟ إنها ذكيّة جدًا، بل إنها حادّة الذكاء، والذكاء بغير دهاء، ولو كان قليلاً، لا ذكاء.. علّة «عقلائنا» أنهم حسنو النيّة، فاسدو الطويّة، وهناك من ينفخ فيهم ولا يكفّ، وقد تورّموا من شدة النفخ، لكنه الورم الذي هو شحم، والشحم يؤدّي إلى البلادة فالكسل، اذن هم ـ «عقلاؤنا» ـ بليدون ـ كسالى، ورغم ذلك يضعون أصابعهم على أصداغهم، لإيهامنا أنهم يفكرون، ويرغبون، أيضًا، في التقاط الصور لهم في حالة التفكير هذه، وعندما يتكلّمون يجدون من يضع الطاسات تحت أفواههم، حتى لا تتساقط دررهم على الأرض! دعبس الفتفوت، ولهذا السبب، شديد القرف، والقرف يؤدّي إلى الكره، ومن كرهه لهؤلاء «العقلاء» الذين لا حيلة له فيهم، كره نفسه، وأقلع حتى عن القراءة للتسلية، نكاية بهم من جهة، ونكاية بنفسه من جهة أخرى، وربما انتهى، هو الذي يزعم أنه لا ييأس، إلى اليأس، أو ما يشبهه، من الحياة وجدواها، فترك مهنته الأولى كبحّار، ثم كريّس، وانتابته سوداويّة فلزم بيته، وها هو صامت كأبي الهول، يصغي إلى ما يقال، دون أن يبدي رأيًا بما يقال، وحتى دون أن يأبه بكاترين الحلوة، التي أحبّها

وعاقبها، وأحبّته هي رغم عقابه لها، ورغم إجبارها على الرحيل من مرسين إلى اللاذقية، لأنها أخطأت، وقد دفعت، حتى الآن، غاليًا ثمن خطئها، ولا تزال وفيّة له، فمتى يعود إلى ما كان، ذلك الريّس الشهم، الذي يصارع الأمواج، ويرتفع على الشدائد والصغائر؟

السوسة:

ـ ليسامحني ربي على الذنب الذي ارتكبته، دون أن أفطن إلى عواقبه، فقد فجّرت، دفعة واحدة، كل شيء، بإظهاري ما كان خبيئًا، والذي كان يجب أن يبقى خبيئًا، إلاّ «أن الشمعة لا توضع تحت مكيال» فشأن الفانوس أن يوضع في المشكاة، حتى يبدِّد الظلام وينير البيت. أعرف أن كاترين انتقمت من الأب بالابن، ضاجعت سعيد كي تُشفي غلّها من صالح، ثم ندمت، ولم تبرح تعاني من هذا الندم، لكن لماذا تؤخذ المرأة، وحدها، بجريرة فعلة مشتركة، ولا يؤخذ الرجل، الشريك، في هذه الفعلة!؟ لماذا تلاحق اللعنة كاترين، ولا تلاحق سعيد الذي خان أباه معها!؟ ولئن تذرّع سعيد بأن كاترين ليست زوجة أبيه، فان من حق كاترين أن تتذرّع بأن سعيد ليس زوجها أيضًا! إنه يعرف أن التي ارتكب الإثم معها حبيبة والده، وأن الإثم معها هو إثمٌ بحقّ هذا الوالد، ورغم ذلك لم يحاسبه ضميره على فعلته لأنه ذكر، وحاسب هذا الضمير كاترين لأنها أنثى! أليست هذه مفارقة كبيرة في حياة أبناء آدم، لا نجد لها مثيلاً في حياة الطيور والأسماك والزواحف!؟»

أضافت في ذاتها:

«سأحتج ضدّ هذا الظلم!

«سأصرخ،

«سأكشف كل ما هو مستور،

«وكل وَسْوَسَة وخَنْسَنَة،

«وأردّ على الحجّة بمثلها،

«وأثبت، بالدليل القاطع، أن دعبس الفتفوت هو صالح حزوم، وأن عروس البحر هي كاترين الحلوة،

«وأفجّر المواقف، كرّة أخرى،

«وأبعث الحياة في القلوب الهامدة،

«وأعيد العافية إلى الارواح المجرّحة،

«وسبحان من يحيي العظام وهي رميم»

- ٨ -

ارتعشت البومة تحت أنامل كاترين الحلوة ارتعاشة من يفارق الحياة، مثل جميع المخلوقات عندما تبلغ ذروة النشوة. المرأة، في هذه الحال، غير الرجل. هذا يرتعش لثوانٍ معدودات، يخمد بعدها منطفئًا، كأنه أصيب بسكتة قلبية. المرأة تستمرّ في ارتعاشتها مدّة أطول، تصل إلى دقائق أحيانًا. كاترين تعرف، كأنثى مجرّبة، كل هذا، لذلك لم تستغرب انتفاضة البومة، التي حسبها الآخرون اضطرابًا للتفلّت، سيعقبه دفدفة الجناحين والطيران. الوطواط نفسه توقّع ذلك، خُدع به فرحًا لم يطل، فحليفته استكانت، تحت دغدغة أنامل كاترين، أملاً في أن تعاودها الارتعاشة، مثلها في ذلك مثل أنثى الإنسان، وحتى أنثى الحيوان، كالقطّة التي تتفتّح، في موقف كهذا، طالبة المزيد، وذكرها الهر، ينغلق، فتكون المطاردة بينهما نوعًا من قتال شرس!

قالت العنقاء في نفسها، وهي تدرك سرّ ارتعاشة البومة، وعلاقة ذلك بالأنثى وكاترين الحلوة: «أشهد أن السوسة على حقّ، وأنها وحدها أدركت السرّ وباحت به، في غير أوانه وغير مكانه، لحكمة لا

أعرفها، لكنني أحترمها، كونها صادرة عن أنثى، تطالب بحقّ الأنثى، وتكاد تصرخ به صرخة سبارتاكوس، في ثورته ضد روما لتحرير رقيق الأرض! كاترين الحلوة، في رأي السوسة، كانت منتقمة لا زانية، وهناك فارق بين الحالين، وسعيد حزوم الذي خان والده معها، كان قد يئس، في ساعة ضعف، من عودة هذا الوالد. لقد بحث عنه طويلاً، في البحر والبرّ، وظلّت كلمات الأب للابن، في تقحّم الصعاب، ترنّ في أذني سعيد، داعية إيّاه إلى الشجاعة، إلى احترام البحر دون الخوف منه، إلى أن يكون بحّارًا متمسّكًا أبداً بشرف البحّار، وكذلك باخلاقيته التي تترفّع عن الدنايا، غير أن دليلة كانت هناك، وشمشون الذي لا يُغلب، كانت قوّته في شعره، فلما جزّت دليلة شعر شمشون وهو نائم على ركبتها، فقد هذا قوته، فقبضوا عليه وربطوه، تكتيفًا، إلى أعمدة الهيكل، وعندئذ صرخ «عليّ وعلى أعدائي يا ربّ» وهدم الهيكل على رأسه ورؤوس أعدائه. سعيد لم يفعل هذا، ولم تكن له قوة سحريّة، في رأسه أو ساعديه، وكاترين الحلوة كشفت له عن ركبتها، فجنّ به الشبق، وفعل تلك الفعلة التي ندم عليها طويلاً. السوسة تعرف كل هذا، تذكر الإثم ولا تدينه، فالرجل هو الرجل، هو الذكر الذي من هذا الشرق، الذكر الذي يعيش في شبه حرمان، ويتعذّب من الأحلام في جسد «ملّ العفاف بألوان من الألم!»، وقد أقدم سعيد كرجل، كذكر من الشرق، على ما يقدم عليه أمثاله، ثم لم يبكّته ضميره، لم يُرجم، ولو في الخيال، كما رُجمت كاترين في الواقع، وكما عذّبها ضميرها، في الواقع أيضًا، بمجرّد أنها أنثى، وكان هذا كلّه رهيبًا، كان فظيعًا، كان معيبًا للرجل أن يشنق المرأة

من نهديها، وهو شريكها في الإثم، على فرض أن الحبّ إثم، وأن ممارسته إثم، بالنسبة للمرأة فقط! نعم! بالنسبة للمرأة فقط، هذه المغيّبة في مجتمعها الشرقيّ، المحذوفة في هذا المجتمع، الموسومة، على جبينها، بالنار، بفعل الإشاعات، والدسائس، والنمائم، والاتهامات التي تجرّ ذيول الإدانة، تُحاكم، وتُحكم، على الشبهة فقط، وعاش «عنترة العبسي» الذي لطّخوا اسمه بالوحل، وأوقفوه على رأسه، ونشروا غسيل ذكورتهم على قدميه المرفوعتين إلى أعلى. مسكين عنترة الذي سرقوا ساعده، وسيفه، ودرعه، وسرواله، ثم خصوه بشكل مريع جدًا، كي يسرقوا رجولته، لتلقيح رجولة بعضهم، من المصابين بالعنانة العقلية، وهكذا ألقوا الحرم على الجنس، قاهر الموت هذا!، وأثبتوا، في هذا المجال، أن البومة، أو أنثى الطير والوحش، أكثر راحة، وارفع احترامًا!»

أضافت العنقاء في ذاتها قائلة: «الريس صالح حزوم لم يمت لكنه تشوّه، شوّهوه، مسخوه، فتقزّم على الشكل الذي هو عليه الآن. إنه يجلس إلى المكتب ليقرأ سيرة الزير سالم، وتغريبة بني هلال، وقصّة سيف بن ذي يزن وغيرها، وقد حفظ بعضها عن ظهر قلب، مستغرقًا في عالم القصص، لينسى عالم الواقع، واقعه وواقع الذين أمثاله، ممن سئموا الحياة، متمنّين الموت في كل لحظة، كل ساعة، كل يوم، وعاشوا قرفهم بصمت، لائذين ببيوتهم، كيلا يروا أحدًا، لا يسمعوا خبرًا، متدرّجين من القرف إلى الكره، وهذا ما حصل مع دعبس فكرهِ نفسه! هذا، في رأيه، نوع من الاحتجاج: الصمت احتجاج، القرف احتجاج، الكره احتجاج، الانكفاء احتجاج، الانزواء احتجاج،

اللواذ بالبيت احتجاج، لكنه، كله، احتجاج سلبيّ، فما نفع الاحتجاج السلبيّ؟ إنني، كسريرة دعبس، أعرف سريرة دعبس، وأعذره لأنه لجأ إلى هذا الأسلوب، وقياسًا عليه أعذر الآخرين، الذين، في احتجاجهم، سلكوا المسلك ذاته، ففي زمننا هذا، لا مجال للبطولة، انتهت البطولة، ووُئدت حيّة في رمال البيد، كما كان أسلافنا يئدون البنت الوليدة حيّة في هذه الرمال، فما معنى هذا؟ معناه العودة إلى الجاهلية، العودة إلى القرون الوسطى، وَضْع الرقاب، طوعًا أو كرهًا، تحت شفرات المقاصل، الرجوع إلى مصائر العلماء التعساء، في أوربا، وخاصة اسبانيا، الذين دفعوا الثمن غاليًا، من أجسادهم وأرواحهم، وقالوا، كما قال غاليلي، وهو في طريقه إلى الإعدام: «مع ذلك الأرض تدور!» أجل! الأرض تدور، وفي دورانها تنجب أبطالاً فرادى، أما البطولة الجماعيّة، فانها صارت في ذمّة التاريخ!»

فكرت البومة: «حلفي مع الوطواط حلف مقدّس، وكنا على استعداد لضمّ الأفعى الينا، باعتبارها عدوّة للإنسان مثلنا، رغم الفارق! الأفعى تقتل بالسمّ حين تلدغ، ونحن لا نلدغ ولا سمّ في أنيابنا، على فرض أن لنا أنيابًا، واذا ما كان الأمر يُقاس بالتسميم، ودرجة الخطر في هذا السمّ أو ذاك، فان سُمّنا هو الأخطر، لأنه يسري في الروح مباشرة، فالوسوسة فتّاكة، خاصّة اذا كانت من نوع الوسواس القهريّ، المصاب به دعبس الفتفوت هذا، وقد كانت الغلبة لنا، الوطواط وأنا، في كل الجدل المثار، ومردّ هذا لا إلى قدرتنا التي لا تقاوم، وإنما لأن رياح هذا الزمن مؤاتية لقلوع مركبنا، وعلى هذا فان إبحارنا كان يسيرًا، هيّنًا، مندفعًا برهاء، مثل اندفاع

السهم في فضاء دونه فضاء! هذا الزمن لنا، إنه زمننا، وهو أجمل الأزمان التي عرفناها «ومن كانت له أذنان للسمع فليسمع!» الأفعى رفضت أن تتحالف معنا، سيّان، لو قبلت لقطفت ثمرًا جاهزًا، ثمرًا شهيًا، مقابل أن تنفث قليلاً من سمّها، إثر لدغة قاتلة، لا تكلفها شيئًا، تنسلّ بعدها وتختفي، وهكذا، دفعة واحدة، نتخلص من دعبس وكاترين، هذين العدوّين اللذين يتربّصان بنا، الوطواط وأنا، بذريعة الوسوسة والخنْسنة، مع أننا نريدُ بهما الخير، ويريدان بنا الشرّ! لكن دعبس، الذي أنا نفسه، يكرهني لأنه يكره نفسه، فأين المفرّ وأنا أسكنه؟ ولماذا لا يسعى لإسعاد ذاته، مفضلاً إسعاد الآخرين؟ ومتى يفهم، هذا الغبيّ، أنه في زمن غير زمنه، وأن أفكاره قد كنستها الريح وانتهى الأمر، وأن عليه أن يصغي إليّ، دون خوف من تقديم تنازلات، ما دام الجميع، خاصة الذين هم أكبر منه، وأقوى منه، يقدمون تنازلات من كل الأنواع، لأنفسهم ولغيرهم؟! دعبس يزعم أنه لا يريد امتيازات، لذلك لا يقدّم تنازلات، وهذا هو الخطأ! العاقل، في زمن النفعيّة هذا، هو من ينتفع، من يحصل على المغانم ويتمتّع بها، جهارًا نهارًا، لأن أحدًا لا يحاسب أحدًا، وقد بلغ الصلف، والفلتان، واللامبالاة بالعقاب غير الموجود أصلاً، أن أحدهم، في سنرديب، طلب مقابل رخصة بناء، خمسة ملايين «باون»، فلما كتب الراشي الشيك، سأل: تحت أيّ بند أسجل المبلغ، فأجابه: «رشوة!» قال طالب الرخصة: «ولكن كلمة رشوة قد تؤذيك» فضحك المرتشي قائلاً: «لا شيء يؤذيني يا مغفّل!» وفعلاً لم يُؤذ، حين شاع خبر هذه الصفقة، لأن من يُؤذِ يُؤذَ، باعتبار أن قدميهما في فردة حذاء واحدة، هو حذاء هذا الزمن، الذي عنوانه: «النفعيّة!» وبالمطلق!.

كـان دعـبس الـفـتـفـوت، خـلال كل هذا الـوقت، يتـأمّل الوجـوه والأشيـاء من حولـه. كان يحـزر، تقريبًـا، كل مـا يفكر فيـه الذين في القـاعة، مـتـتبـعًـا، بدقّـة، قسـمـات كل وجـه، انبسـاطهـا، تقبّـضـهـا، ارتعاشاتها، حسن الطوايا أو خبثها، سوء الظن أو طيبته، مستعيدًا، محلّلاً، متفحّصًا كل كلمة سمعها منذ تألّب عليه هذا الجمع من الطيور أو الزواحف، قائلاً في نفسه: «طريف أن تتحول قاعتي إلى حـديقـة حـيـوانات لـم يُر، ولم يُسمع، بمثلهـا من قبل، وأن تـأتي اليّ كاترين الحلوة، بعد طول فراق، على شكل عروس بحرٍ، تفتن عشّاقها من الصيّادين والبحّارة ثم تقتلهم، وقد خانتني مع ابني، انتقامًا لم يبلغ أن يكون انتقامًا، لأنه انتقام جنس، هو، في خسّته، نذالة، وهو، في قصديّته، إشباع مجانيّ، لسغب مجاني، يتستّر بثأر لا يعرف صـاحبـه أنه لا ثأر، ما دام فيه إرضـاء الآخر، دون إرضـاء الذات! وهذا مـا جـرى تمامًـا مع رجل مـا، في قـصـة مـا، قـرأتهـا ذات يوم، حاول فيها الرجل الانتقام من امرأة عدوّه، فما زاد سوى أن جلب اللذّة لامـرأة هـذا الـعـدو، فكان خـاسـرًا في الحـالـين: حين عـجـز عن مقاومة عدوّه، وحين حسب أن المقاومة تكون في الجنس، فكان عكس ما أراد، وباء بالخسران!»

أضاف دعبس الفتفوت، ولكن بصوت عالٍ هذه المرة:

ـ أعرف ما كان يفكر فيه كلّ واحد منكم!

قالت العنقاء:

ـ وأنا مـثلك يا ذاتي، مـا دمت أنت هو أنا، ومـا دامت كـاترين

الحلوة، كما كنتَ تفكر، قد أثمت بابنك إثمًا مجانيًا، منحته النشوة، ولم يمنحـهـا الراحـة، وهذا جـزاء من نفس الفـعل، تبـرّرت به فـعلتك بطردها من غير ما شفقة!

قال دعبس:

ـ الطرد كـان متبادلاً، وقـد ندمت عليـه أشـدّ الندم! القلب، أيّتـهـا العنقـاء الجـميلة، لا يُخلع من الصـدر الحيّ، وقد كنت حـيّاً، وعـبثًـا حـاولت خلع قلبي، وعـبثًـا، أيضـًا، حـاولت النسـيـان في الابتـعـاد.. ترحّلت كثيرًا، واكتشفت، بعد فوات الأوان، أن كـاترين كانت تترحّل معي.. إنهـا قـصّة حبّ قديمة جدًا، جـديدة أبدًا، بدأت في مـرسين، وانتـهت فـيـهـا، حـسـبـمـا كنت أحـسب، إلاّ أنّ الواقـع كـان غـيـر ذلك، فـالحـب لا يموت مـع الولادة، ولا مـع اليـفـاعـة، وكـذلك لا يمـوت في استواء العمر، وقد كـان حبنا في يفاعته، في صـعوده، ولم يكن قد اكتهل، أو بلغ الذروة وبدأ مرحلة الانحدار، وتلك كانت غلطة عمري!

قالت الأفعى:

ـ نصف التفاحة كان لا يزال في يدها، وهذا ما لم تنتبه إليه أيّها الهارب من الحبّ إلى الحبّ!

أجاب دعبس:

ـ ولكن الخيانة لا تهادن يا أفعى الفردوس أنت!

ـ هذا اذا ثبتت الخيانة!

ـ خيانة كاترين كانت ثابتة!

ـ وخيانتك كانت ثابتة أيضًا!

ـ لم أخن كاترين مع غيرها.

ـ خنت زوجتك معها!

ـ وماذا في ذلك!؟

ـ فيه حكمة «واحدة بواحدة!»

قالت السوسة:

ـ والبادئ أظلم!

قالت الأفعى:

ـ وأنت، يا دعبس، كنت البادئ.

أجاب دعبس:

ـ ولكن ليس مع كاترين.. افهموني!

قالت السوسة:

ـ نحن نفهمك تمامًا، وما بقي أن تفهم أنت نفسك!

قالت البومة:

ـ لو فهم نفسه لكان حكيمًا!

ردّت السوسة:

ـ الأمانة لا تتطلّب أيّما حكمة!

صاح دعبس:

ـ الأمانة مع مَنْ؟ ولمن؟ لزوجتي؟!

ـ وهل الزوجة سقط متاع!؟

ـ لا! ليست كذلك.. ولكنها زوجة، لا أكثر ولا أقل!

ـ أي لا شيء!

ـ لا أقول هذا! إنها زوجة وكفى!

ـ وأنت رجل وكفى!

قال الوطواط:

ـ الزوج غير الزوجة.. أنت على حق يا دعبس!

قالت البومة:

ـ وقد مارست حقّك بكل أمانة يا دعبس!

قالت السوسة:

ـ مع زوجته أولاً، ومع كاترين الحلوة ثانيًا، ثم مع بقية النساء ثالثًا، وهذه هي الأمانة بعينها.. وهذا هو الندم بعينه، والعاقبة كره النفس الذي تدّعيه، أليس كذلك يا «عنترة» هذا الزمان!؟

احتجّ الوطواط:

ـ إيّاك، أيّتها السوسة اللعينة، والتعريض بهذا الزمان! إنه أفضل الأزمنة! هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الزوجة غير الحبيبة، وهذه غير العشيقة، والتسرّي بالجواري جزء من تراثنا، مارسه أسلافنا كحقّ مشروع، لأن الجاريّة، كما هو معلوم، غير الزوجة، ومن مظاهر الجاه، عند أسلافنا، كان شراء الجواري، واقتناء العدد المستطاع منهن، وكانت الجارية المفضّلة هي التي تُهدى، ومثل هذه

الهديّة كانت تكريمًا وتعظيمًا للمهداة اليه، وفي وسعه، بعد التسرّي بها، أن يرفع قدرها أو يخفضه، وفق رغبته ومزاجه. وكان النخّاسون يتبارون في شراء الجواري الحسان، وتثقيفهن، وتدريبهنّ على العزف والغناء، وحتى على قول الشعر، وكلما نبهت الجارية غلا ثمنها، وزادت حظوتها عند مولاها، وظلّت الحال كذلك إلى عهد قريب، فالسلطان عبد الحميد كان في حريمه، من الجواري، بعدد أيام السنة، لماذا؟ لأنه سلطان، وما هو السلطان؟ إنه التاج والصولجان، لكن السلطان، فوق ذلك كله، كان ذكرًا، مثل دعبس الفتفوت تمامًا، وهنا، في هذه النقطة، تكمن المساواة، وتتجلّى العدالة، فلماذا نطلب العدالة في أمر ونرفضها في آخر!؟ أليس هذا تناقضًا صارخًا!؟ قولوا أنتم، أيها المنادون الكاذبون، وأيّها المطالبون زورًا، بالعدالة الاجتماعية! لقد ضربت لكم مثلاً لا يحزّ حزًاً، بل يقطع قطعًا، في أن العدالة التي تساوي، في الذكورة، بين السلطان والعبد، هي أرفع أنواع العدالة! ثم إن «الخيانة» في الزواج والعشق والتسرّي مباركة كلها، ولأنها كذلك في هذا الموضع بعينه، فإنها مباركة، أي «الخيانة» في كل موضع، حتى لا يكون صيف وشتاء على سطح واحد، وحتى نتجنّب الوقوع في ورطة مباركة الفرع ولعن الأصل، لأنه لا فرع دون أصل، ولا ثمرة دون شجرة! ثم إن الإثم والتأثيم لغو في لغو، وقد قال دعبس الفتفوت هذا، أو نقل قول من قال: «كل ما نفعله بصدق هو أخلاقيّ» وتأسيسًا على هذا فان ارتكاب الإثم بصدق هو أخلاقيّ تمامًا، ولأن كل الخيانات، وكلّ الآثام، تُرتكب بصدق، من وجهة نظر مرتكبيها، فإنها أخلاقية تمامًا،

إذن من فمك أدينك، وإذن، مرة أخرى، لا مأخذ على دعبس في خيانة زوجته، ولا مأخذ على كاترين الحلوة في خيانة دعبس مع ابنه، ولا إثم في كل ما كنا نفكر فيه، سيئًا كان أو حسنًا، فحريّة التفكير مباحة، وحريّة الكلام مضمونة، وقد قلتم وقلنا، وكان قولنا هو الأصدق، لأنه قول هذا العصر، وقد بشمنا من ترداد مقولتكم: «على الإنسان أن يكون ابن عصره!»، وسئمنا هذا التفارق بين القول والعمل، حين تدعون إلى التطابق، ثم تنكرونه «قبل صياح الديك!»، فأنتم، أيها المبجّلون، كاذبون، جبناء، أرذال، أنذال، تقرّون، في دواخلكم، أن للزمن علينا حقًا، وتخافون مغبّة مقاربة فعل الزمن الذي نعيشه، والذي يبيح لنا أن نفعل ما نشاء، ساعة نشاء، وبالطريقة التي نشاء، مهما تكن وضيعة، أو خسيسة، في نظر الذين هم خارج زمنهم، أو خارج عصرهم، إذا ما أردنا استخدام كلمة «العصر» العزيزة على قلوبكم الفاجرة سرًا! كلمة أخيرة: كاترين لا تزال تحب دعبس، ودعبس لا يزال يحب كاترين، وبعيدًا عن الإدانة، غير الواردة أصلاً، أدعوهما إلى التصالح، وإلى اتباعي على طريق الخطيئة، لأننا في زمن الخطايا، كما أثبتُّ في كل ما أوردته معزّزًا بالأدلة والشواهد!

خيّم الصمت على القاعة! المنطق هو المنطق! والوطواط، في توسيسه وتخْنيسه، استند إلى هذا المنطق، المنطق الذي يعرفه جيدًا، لأنه يعرف زمنه جيدًا، باعتباره أحد أبنائه، ومهما تكن الحقيقة قاسية تبقى حقيقة، ولا سبيل إلى نقضها الا بحقيقة أخرى، مغايرة، وهذه رهن بالزمن الآتي، الآتي متى!؟ لا أحد يعرف، ففي المدى

المنظور غيم، والشمس محجوبة بهذا الغيم، والريح ابنة الطقس، والطقس ينذر بمناخ أكثر سوءًا، وأمام التيار العاصف، الجارف في عصفه، لا يبقى سوى خيارين: أن نمضي مع التيار أو ضده، فماذا أنت فاعل يا دعبس!؟ لقد شوّهوك، مسخوك، قزّموك، وضعوا على وجهك قناعًا، كيلا تبقى استثناء، وبهذا القناع غيّبوا وجهك الحقيقيّ، واسمك الحقيقيّ، وصوتك الحقيقيّ، وعزمك الحقيقيّ، وسيّروك، أو أرادوا، في كرنفال الضمائر المدوّرة، فهل تسير أم تتوقّف؟ هل تقبل أم ترفض؟ هل ترضى أم تغضب؟ هل تعود الريّس صالح حزوم، أم تبقى دعبس الفتفوت؟ هل تقاوم الإعصار كما فعل صالح، أم تستسلم له كما فعل دعبس؟ أنت أيضًا ابن هذا الزمن، وأنت أيضًا تعيش هذا الزمن، وللزمن قانونه، فهل تخضع له أم تتمرّد عليه، وما هو الثمن في الحالين؟ وما هو الموقف في الحالين أيضًا؟ لقد جرّبت، بناء على نصيحة السوسة، أن تحرق الوطواط فما احترق، وجرّبت، تاليًا، أن تسيّد النور على الظلمة فلم يتسيّد، ولذت بالصمت احتجاجًا، فما أجدى الصمت، وما نفع الاحتجاج، وانتهيت إلى القرف، والقرف استجرّ الكره، فكرهت نفسك، وحاكمتها، وحكمت عليها، وعاقبتها على سخفها، وعلى ثرثرتها، وعلى قولها ما لا يقال، في غير وقته وغير مكانه، وقرّرت أن تقلع عن السخف، وعن الثرثرة، وعن قول ما لا يقال، لكنك فشلت، وأنت، الآن، تعيش مأزق هذا الفشل، فماذا بعد!؟

قالت السوسة:

ـ نعم! ماذا بعد!؟

أجاب دعبس:

ـ لا أدري!

تدخّلت البومة تدخلاً نصوحًا فقالت:

ـ بلى! تدري يا دعبس، يا أنت الذي أنا، تدري ولا تعرف أنك تدري، فكن مع نفسك، كما يقضي الانسجام، لأنه ما من أحد خالف نفسه إلا وتعب، وما من أحد انسجم مع نفسه إلاّ واستراح، وأنت بحاجة إلى الراحة. تخاف؟ لا! دعبس لا يخاف، لا أصدّق أنه يخاف، وممن؟ من نفسه؟ محال! المرء هو نفسه، فكيف يعاديها؟ وكيف يتعايش معها إذا عاداها؟ حرب بينهما؟ وما نوعها؟ وكيف تكون؟ وبأية أسلحة؟ الكره؟ أعيذك منه، البغض؟ وأين السماحة إذن؟ تعرف حكمة الناصري: «أحبّوا بعضكم بعضًا كما أحببتكم» هل يعقل أن يحب الآخر الآخر، ويكره البعض بعضه؟ الآخر والآخر غريبان، لا يجمعهما جسد واحد، أما البعض والبعض، أيْ أنت ونفسك، فإنكما جسد واحد! فإذا قلت لي إن الحكمة ذكرت، ودعت، إلى محبة «بعضكم بعضًا» أجبتك أن المقصود بذلك هو الآخر، الذي في جسد آخر، وما يجمعه مع الآخر، الذي في جسد آخر، هو الفكر، ومهما يكن من أمر، وكيفما كان تفسيرك لحكمة الحب، فان المغزى واحد، ومصدره التسامح، وفي أيامنا هذه تعقد ندوات ومؤتمرات للتسامح، وشعارها هدم جدار الكره، والحقد، والبغضاء، بين البشر جميعًا، كي يدخلوا القرن الجديد، القريب، القادم، بثوب جديد، نسيجه نسيان الماضي ومآسيه، والعيش في الحاضر، بكل أفراحه، وكل

سماحاته، والانتقال من الحاضر إلى المستقبل ونحن نرفل بأثواب الفرح والسماحة! نعم يا دعبس، يا أنت الذي أنا، كفّ عن كرهي، خذ بسماحتي، فقد ضربتني على خدّي الأيسر، فأدرت لك خدّي الأيمن، وعليك، في المقابل، أن تفعل كما أفعل، وبذلك تثبت حسن نواياك!

التاش دعبس الفتفوت أمام منطق البومة، كما التاش، قبلاً، أمام منطق الوطواط، فالدعوة إلى الحب دعوة جيدة، ضروريّة، والدعوة إلى التسامح دعوة جيّدة وضرورية أيضًا، ونسيان الماضي بكل مآسيه، ومهما تكن قاسية، نسيان للشرّ، وفي نسيان الشرّ استحضار للخير، وماذا يطلب دعبس غير هذا؟ وهل دارت المعارك، بالسلاح أو بالكلام، الا لأجل هذا؟ وهل كافح هو، عمره كله، الا لأجل أن ينتصر الخير على الشرّ، وفي هذا الانتصار تحقيق للعدالة الاجتماعيّة التي ينشدها؟ الوطواط قال له: «كن ابن زمانك!»استدرك فقال: «كن ابن عصرك!» وماذا يريد سوى أن يكون ابن عصره؟ وهل طلب من الآخرين، سوى أن يكونوا أبناء عصرهم؟ لماذا الالتياش اذن؟ لماذا التردّد؟ ولماذا النفور من البومة والوطواط؟ الكلمة الطيّبة تثمر ثمرًا طيّبًا، وكلمات الحبّ والسماح والصفح كلمات طيّبة، وثمرها سيكون ثمرًا طيّبًا، وقد سكنت هذه الكلمات دعبس، جسدًا وروحًا، قبل القناع وبعده، وعليه، إذن، أن يأخذ بها، وأن يكون على وفاق مع نفسه، وعلى حبّ لذاته، وأن يعيش بالحبّ، وللحبّ، وللتسامح، وبالتسامح، وللصفح، وبالصفح، وأن يغفر جميع الخطايا، ما دام الناس كلّهم خطاة، ومن غير المعقول أن يحاسبهم

جميعًا، وأن يكرههم جميعًا، بدءًا بنفسه، هذه التي كرهها لأسباب تافهة، وخلافات صغيرة، هي، في الحقيقة، لا خلافات، لأنها من طبيعة الإنسان!

تكدّرت السوسة، اكتأبت العنقاء، تكوّرت الأفعى دافنة رأسها بجسمها، ران السكون الأخرس على الجوّ، وفي المقابل انتشت البومة، وصفق الوطواط بجناحيه اللحميين، وفي هذه اللحظات البالغة الأثر، البالغة الخطر، انتضت كاترين الحلوة عنها جلدها، خرجت من إهاب السمكة ودخلت في إهاب المرأة، ومدّت يدها فانتزعت قناع دعبس الفتفوت، قائلة بصوت يرعد بالغضب:

- والآن!؟

وراحت القاعة كلها، جدرانها، أرضيتها، موجوداتها، تردّد بصوت واحد:

- والآن!؟

- والآن!؟

- والآن!؟

ـ ٩ ـ

ـ والآن!؟

ردّدت كاترين الحلوة السؤال وهي تقتنص، ببؤبؤيها السوداوين المرزّين نورًا ونارًا، بؤبؤي دعبس الفتفوت الذي، بعد أن خلعت عنه قناعه، عاد الريّس صالح حزّوم، ذاك الحبيب المفارق، الهارب من الحب والعائد إليه، الطارد كاترين الحلوة من مرسين إلى اللاذقية، وقبلها إلى اسكندرونة. لقد عُدّ صالح حزّوم في المفقودين، بعد أن غرق في الباخرة الجانحة، وعبثًا حاول ابنه سعيد حزّوم البحث عنه بين تجاويف هيكلها، وفوهات عنابرها، حتى عثر على تلك الجثّة الغريبة، جثّة البحار الفرنسي التي تركها للتفسخ انتقامًا، فجوزي على فعلته بالسجن لثلاث سنوات كاملات!

قالت كاترين:

ـ والآن يا صالح، أيّها الغائب الحاضر، أيّها المقنّع كسواه، لأنه في زمن الأقنعة! الآن يا صالح، تروي أنت قصتّنا أم أرويها أنا!؟

رفع صالح حزوم يده في الهواء، ليصفع كاترين الحلوة، فتجمّدت يده حيث هي، لأن العنقاء صاحت به:

ـ لا تفعل!

قال والشرر ينقدح حديدًا وصوانًا في عينيه:

ـ بلى! سأفعل! هذه الساقطة خانتني مع كثيرين انتقامًا، ولما لم تُروَ، أو لم تبلغ أن تروي، غليلها، فعلتها وخانتني مع ابني، فهل من فعلة أشنع!؟

قال الوطواط:

ـ لا! أبدًا، والجزاء من نفس الفعل!

قالت البومة:

ـ الجزاء، يا صديقي الوطواط، لا يكون من نفس الفعل دائمًا! التعادل، هنا، لا تعادل، فالخيانة مع الآخر، هي المعادل للخيانة مع الأخرى.. إنني أناشده عقابًا أشدّ!

سألت السوسة:

ـ وما هو العقاب الأشد الذي تنشدينه أيتها البومة القبيحة؟

ردّت البومة:

ـ العقاب الذي هو في مثل قبحي، أنا نفسه التي يكرهها دونما سبب!

ـ لا أحد يكره، أو يحب، دونما سبب! هناك دوافع دائمًا.

ـ وما هي دوافعه، إذا ما وضعنا تعذيب الذات، وكذلك تجريحها جانبًا؟

ـ اسألي دعبس الفتفوت هذا، فهو يعرفها!

ـ وإذا كان دعبس الفتفوت غير موجود، أو لم يعد موجودًا؟

ـ يجب أن يوجد، كي يتبرّر وجودي بوجوده!

سألت السوسة:

ـ ألا ترين أن هذا اعتراف خطير بقبحك، طالما أن النفس لا تكون قبيحة مثلك دائمًا؟

صاحت البومة:

ـ هذا الغاء لوجودي مع أنني موجودة!

صات الوطواط:

ـ ولوجودي ما دمت موجودًا!

أضاف:

ـ نحن، البومة وأنا، لا نتحوّل بتحوّل الأقنعة، الإنسان يبقى إنسانًا، وقبيحًا من الداخل دائمًا! المسألة، هنا، لا تتعلّق بالوجه بل بالنفس، دعبس الفتفوت لم يوجد، مثلنا كلنا، من عدم، ولأنه كذلك، فهو بشر من بشر، وبكلمة أخرى: انتفى القناع ولم تنتف النفس، والنفس أمّارة بالسوءَ كما تعلمون، وصاحبها يأتمر بأمرها، ودليلي في يدي: دعبس نوى صفع كاترين، وصالح همّ بصفعها، وأن يهمّ المرء فانه يحاول، وكل محاولة هي شروع، والشروع بالقتل معاقب عليه، قانونًا كما القتل، ومن حق صالح أن يقتل كاترين لا أن يصفعها فقط، لأنها هي، لو استطاعت، لقتلته، ومن في وسعه الجزم بأنها لن تفعل، أو على الأقل، لن تحاول!؟ النفس هي النفس، في

الرجل والمرأة على السواء، ولأن النفس قبيحة فهي مكروهة، ودعبس الذي كان، أو صالح الذي هو كائن، يكره نفسه لهذا السبب بالذات، النفس من الداخل غير الوجه من الخارج.. هناك وجوه طيّبة دائمًا، ونفوس سيّئة دائما، ألا في الاستثناء، وهذا لا يُعوّل عليه، لأنه إثبات للقاعدة، أما النوايا فانها خبيثة، خبيثة، وأصحابها تزدحم بهم جهنم، فاذهبي، أيّتها السوسة القارضة، إلى هناك تري!

قالت السوسة:

ـ كَوْني قارضة لأعمدة الفساد فهذا مدعاة للفخر لا للنكر.. نعم! أنا اكون حيث يكون الفساد، ومهمّتي تبدأ منه لتنتهي به، فلا خير في بقاء ما هو منخور، اذا ما النخر بدأ، ومن الفساد انطلق، فاذا رغبتَ، أيّها الوطواط، ألاّ يكون هناك قرض للأعمدة، فاعمل لكي لا يكون هناك فساد في هذه الأعمدة، اعمل للجديد لأنه الأبقى، ودع القديم لأنه الأجفى، وكل زبد فإلى جفاء، وكل ما ينفع الناس فانه إلى بقاء، وهذه حكمة الكون وركيزته الأساسيّة، فخذها مني واتّعظ بها.. أما أن النفس أمّارة بالسوء فهذا صحيح، وهذا واقع، الا أن الأمر بالسوء يصطدم، كثيرًا أو قليلاً، بمقاومة الذي يتمرّد عليه، الذي لا يريد أن يكون سيّئًا، والصراع في النفس البشرية أو غير البشرية، حول هذا الموضوع، صراع دائم، يحسمه، غالبًا، الفعل، فأن يفعل الإنسان ما هو صالح، يقطع الطريق على ما هو طالح، والتفريق، ههنا، ضروريّ، كيلا نقع في سرّ التعميم، هذا الذي توسوس وتخنّس به أنت والبومة، بقصد زرع البذرة السيّئة في الأرض الطيّبة، وهذا لن يكون، لأنه لا يصحّ، وكذلك لا يصحّ اتهام الإنسان لمجرّد أنه

إنســان، فـالأصل، فيـه، هو الخـيـر، والـفـرع، والـطارئ، هو الشـرّ، ومرجع هذا إلى البيئة التي تربّى فيها الإنسان، أو وُجد فيها من أسباب خارجة عن ارادته، وهنا، أيضًا، ثمة استثناء وثمة قاعدة، وقد قال حكيم: «الإنسان! يا له من كائن يصدح بفخر» فإذا لم يصدح، على هذا النحو، فلنبحث عن الدوافع التي أزاحته عن هذا الشرف إلى غيره، والتي جرّته، أو استدرجته، إلى مستنقع النقيق، بدل الصداح على ربوة الخضرة الإنسانية، وفيها الربيع يعود دائمًا، ويزهر دائمًا!

صاحت العنقاء:

ـ أحسنت أيتها السوسة العزيزة.

ردّت البومة:

ـ أسأت أيّتها القارضة اللئيمة!

قالت السوسة:

ـ لا هذا ولا ذاك، انما هو رأي يُرى، وحق الاختلاف في الرأي مباح، ومصون، أو يجب أن يكون كذلك، حتى ننتهي من شرّ الصوت الواحد، والرأي الواحد، والحقيقة الواحدة.. هذه، طبعًا، ملاحظة عابرة، هامشيّة، وأنا أرغب أن أبقى في الأساس، حتى لا ننجرّ، أو ننحرف، إلى الهامش، كما تريد البومة والوطواط، اللذان فوّتا علينا لذّة سماع قصة كاترين الحلوة وصالح حزوم، وانحرفا بنا إلى تدنيس النفس الإنسانيّة بدل تقديسها، أو تمجيدها، أو وضعها في المكان المناسب لها، والتي هي جديرة به.. لقد سخر الوطواط، بخبث

ولؤم، من القاعدة القانونية القائلة «ما بني على فاسد فهو فاسد» وانطوت سخريته على النيل من النوايا الطيّبة وغير الطيّبة على السواء، عندما وصف هذه النوايا الطيّبة، بالمطلق، وصفًا قبيحًا مغايرًا فقال: إنها «خبيثة، خبيثة، أصحابها تزدحم بهم جهنّم» أخذًا بالمثل السائر، المثل الذي أعرفه مثله، وربما أكثر، لأنه ينطبق على المغفّلين لا غير، ولأنه مجتزأ، معزول، مفصول، عن الأعمال، هذه التي تقترن بها النوايا، وهي شرطها الملازم، فالنيّة دون عمل، نيّة دون أثر، والعمل، في هذا المقام، هو المعيار، وعليه يقع الحكم، في الثواب والعقاب معًا! وتأسيسًا على هذا فإن الوطواط يسحب قبحه، وقبح حليفته البومة، على كل الكائنات وكل الأشياء، داعيًا إلى قتل كاترين الحلوة لا صفعها فقط، لأن القتل، كما يزعم، شُرِع به، وحين نشرع في شيء يعني أننا فعلناه، وصالح لم يشرع بالقتل، وربما لم يفكر فيه، الا أن الوطواط يغريه به، وهذا الإغراء الذي يستبطن الدعوة إلى القتل، معروف، ومسبوق الكلام عليه، لكننا أعقل من أن نقع في فخاخ وَسْوَسَة الوطواط وخَنْسنته، ويكفي هذا الحرباء خزيه، لو أنه ممن يختزون، ولنرجع إلى صيحة كاترين الحلوة:

- «والآن!؟»

- إنني، أنا أيضًا، أصيح:

- والآن!؟ أين كنت يا صالح!؟ وكيف بدأت القصة!؟ وهل كان ذاك الحب «صرحًا من خيال فهوى!؟» تكلم! قل الحقيقة كاملة!

تأمل صالح حزوم، الذي عاد، الآن، ذلك الريّس الذي كانه، تأمّل

كل من حوله بنظرات تنطوي على غير قليل من انكسار، بسبب العمر، والفراق، والغربة والعذاب، وحراجة الموقف، وقال رفيقًا، حنونًا:

ـ كيف حالك يا كاترين، يا عزيزتي التي عذّبتها بمثل ما عذبت نفسي، بل ربما أكثر؟

وضعت كاترين كفّها على فمه وقالت:

ـ لِنَنْسَ، يا صالح، يا ريّسي الشجاع، كل عذاباتنا، أو دعني أنساها وحدي على الأقل!

قبّل راحة كفها، قبّل كفها، أخذه بين يديه وقال:

ـ لماذا وحدك يا كاترين؟ هل هذا لأنك امرأة، والمرأة تأخذ دائمًا، ووحدها، حساب الآلام؟ دعيني، اذن، أغتسل بدموعي، عسى الدمع يفرج كربتي، ويطهّرني من بعض خطاياي!

قالت العنقاء:

ـ لا تبك فتُبكيني معك، يا أنت الذي أنا، لأن دمع الرجل من دمع السماء!

قالت السوسة:

ـ نعم! دمع الرجل من دمع السماء، وهو مالح كماء البحر، فماذا يقول البحر لو بكى؟

قالت الأفعى:

ـ يقول ما لا يقال، أو ما لا يُستطاع أن يقال، فالبحر هو بحّاره، والبحر لا يبكي، بل يكتب بكاءه على حصى الشاطئ خريرًا أبديًا،

أما البّحار فإنه يكتب بكاءه على وجه الظلمة سرًا، في ليالي السفر، وليالي الفراق، والليالي العاصفات.. اتركوه، اتركوا صالح حزوم يبكي، ولتبك معه السماء، ونحن أيضًا، أو من في وسعه أن يفعل ذلك منا...

أضافت الأفعى:

ـ قلت لكم وأكرّر: نصف التفاحة لا يزال في كفّ حواء، أمكم وأمنا، نحن الذين من سلالة الفردوس كنا، قبل أن تلحق بنا اللعنة والبركة معًا: اللعنة لأننا عصينا، والبركة لأننا عصينا أيضًا!

قالت السوسة:

ـ حكمة!

قالت العنقاء:

ـ والحكمة دمعة!

قالت البومة:

ـ أنا سعيدة بالأخرى!

قال الوطواط:

ـ وأنا سعيد شامت بكل ما يجري، السعادة، في عرفي شماتة، وليس مثلها ما يشفي غليلي! كاترين هذه شقيّة، ولكن الآن فقط، وصالح حزوم هذا شقيّ، ولكن الآن فقط أيضًا، أما قبل ذلك فانهما كانا في السعداء، وكان هذا ما يغيظني حقًا! أن أسعد أنا فهذا جيد، وأن يسعد غيري فهذا هو السيّئ، وكلكم، أيها المراؤون، تتبعون

سُبُلي في الخفاء، وتنكرونها في العلن، لماذا؟ أنا أقول لكم: عبادة النفس ممارسة لذّة من النوع الأسمى، وكلكم شركاء في هذه الممارسة، حتى دعبس الفتفوت نفسه، الذي كانه صالح، رغم الادّعاء الدّعبسي الكاذب بأنه يكره نفسه. ان دعبس الفتفوت هذا، كان يمعن في ممارسة قهريّة، كيدية، هدفها غسل الخطيئة بالنفاق، ظنًّا منه أن الخطيئة عار، مع أنها فضيلة! نعم! الخطيئة فضيلة، فلماذا نكران الفضائل؟ ولماذا لا نعترف اعتراف كاتب قال يومًا: «اذا جاءتني يومًا امراة لم تخطئ ولم تلهم، لفضلت عليها امرأة اخطأت فألهمت!» هذا ليس اعترافًا، إنه حقيقة، وهذه في الواقع، حقيقة كل رجل وكل امرأة، وصدق الحكيم الذي قال: «بالخطيئة حملت بي أمي، وبالخطيئة ولدتني!».

ردّت الأفعى:

ـ أنت مِلْسان أيّها الوطواط القذر، وفي فمك ابليس، يموّه، بخبث فظيع، الأسود فيجعله أبيض، والرذيلة فيجعلها فضيلة، لكنني أنا، بالحكمة المأثورة عني، قادرة على قَشْر الزيف، في الكلمة المحلاّة، بينما لبّها مرّ كالعلقم! أنت تزيّن الإثم لنا لتخدعنا، محرِّفًا، على نحو بليغ، حتى المأثور في الكلام، ليصبح، على هواك، ضدّ المعنى الذي هو معناه في الأصل، ظنًّا منك أننا سنتبعك، لمجرّد دعوتك، على الطريق المعوجّ الذي هو سبيلك إلى الضلال، وسبيلنا إلى الهلاك... ان كاترين الحلوة كانت تسمعك وتبتسم من إشفاق عليك، لا من انخداع بك، وصالح حزّوم كان يتساءل: لماذا هذا الفساد كله على

اليابسة، بينما لا أثر له في البحر!؟ وفي الجواب أقول له: يا صالح، أيّها الريّس الشجاع، لا ذنب، في ما تسمع، لليابسة أو الماء، وانما الذنب في أناس اليابسة والماء، الذين يُفسدون ويَفسدون، طالما أن ابليس موجود في المكانين! إننا، هنا، بانتظار عبارة واحدة تخرج من شفتيك: مَنْ اللائم ومَنْ الملوم في ما وقع من خلاف بينك وبين كاترين الحلوة؟

قال صالح حزوم:

ـ أنا، وحدي، هو الملوم..

قاطعته كاترين قائلة:

ـ يكفي، يا صالح، ما عانيت من أجلي.. أنا، وحدي، الملومة، فقد كنتَ سجينًا وكنتُ طليقة، وكنتَ الأمين وكنتُ الخائنة، لكن الحب يبقى، وقد بقي، رغم السجن والخيانة معًا! إنني أطلب الصفح راكعة، فهل تصفح؟

مدّ صالح يده وأوقف كاترين، أدارها نحوه، غارسًا نظراته في عينيها المبلّلتين بالدمع، قائلاً بصوت هادئ، عميق، مجرّح بالندم:

ـ كان ذلك، يا كاترين، منذ زمن بعيد، يوم رأيتك أول مرة، في حي «الشرادق» حيّ الفقراء، البؤساء، أمثالنا، وكنت جميلة، يا الهي كم كنت جميلة! وكم كنت، أنت الأرمل، معرّضة للسقوط، لأنه لم يكن، إلى جانبك، من يحميك، لكونك امرأة أولاً، ولكونك فقيرة ثانيًا، ولكونك جميلة ثالثًا، وقد قاومت البؤس، وتعاليتِ على السقوط، وتمسّكتِ بهيبة الشرف، الا أن البؤس أعمى، والبؤس أوهى، ولم يكن

في وسعك الاستناد طويلاً عليه، وهكذا عييت، وانقلبت، وصرت غانية الحيّ، وكان جسدك هو المقابل للقمة، وجمالك هو المعادل للكساء، وكان لا بدّ لك من اللقمة والكساء، ومن أجلهما هانت هيبتك عليك، سقطتْ، خانتْ، وقد اتهمتِ، أنتِ لا هي، بالسقوط وبالخيانة، ولم يكن بالامكان درء الأذى في كلام الناس، والكلام ظالم بالنسبة للضعيف، وغير ظالم بالنسبة للقويّ، فاستمسكت بحبل الصبر، وخيط الأمل، فما نفع هذا ولا ذاك، وما أجدى التطلّع إلى النهوض، فالهاوية فتحت شدقيها تحت قدميك وانتهى الأمر.

قالت كاترين:

ـ وفي هذا الوقت العصيب ظهرت انت يا صالح! رأيتك فأحببتك، قلت في نفسي: «هذا هو رجلي ومنقذي» وكنت، فعلاً، هذا الرجل وهذا المنقذ!

قال صالح:

ـ ليس بهذه السرعة وهذه السهولة يا كاترين! اعترف. رأيتك، أحببتك، قلت، أنا أيضًا، «هذه هي امرأتي، هذه هي منقذتي!» إلا أنني كنت متزوّجًا، وكنت بحارًا، وكان علي أن أحافظ على الأمانة الزوجيّة وشرف البحار، وكانت المعادلة صعبة وقاسية، إلى أن كانت العاصفة، ومعها المغامرة، فاندفعت في النهر الهائج، المائج، المصطخب، لإنقاذ مراكب الآخرين، لا مركبي وحده، وجرفني التيّار، وقال الجميع: ضاع صالح حزوم! وفعلاً كنت قد ضعت، لولا حبّك أنت، وقَدَري أنا!

قالت السوسة:

ـ نعم! الحبّ والقدر، هذا هو ثنائي الخلاص، ودائمًا!

قال صالح:

ـ لكن للريح الهوجاء دورها، وفعلها، وحبّها وقدرها أيضًا، وكذلك للمطر والسيل والتيار النضوب، الكاسح والجارف، ولهول الطبيعة المجنونة، التي عزّ عليها أن تُغلب، وعزّ عليها، بقدر أكبر، أن تفلت فريستها منها، وعلى يد مَنْ؟ أحد أبنائها، وماذا في وسع هذا الابن، هذا الإنسان، حيال الإعصار المدمّر، الذي أطلقته الطبيعة وراءه؟ هنا، أيّها الحاضرون، كان صراع الحياة والموت، وكنت أنا موضوع الصراع، سببه، باعثه، مستثيره، موقظه من هجوع طال، وطال معه ترصّد الابن الضالّ، الابن الذي في تمرّده، أوغر صدر الكائنات الطبيعيّة، بعناصرها الرهيبة، فقرّرت أن تلاحقه، وأن تقتله، وأن تجعله عبرة لغيره من التمرّدين عليها! كشّر الموت، بنيوبه الليثيّة، من أمام، ومن وراء، ومن يمين وشمال، فنظرت إلى السماء بانتظار المعجزة، وكانت المعجزة، كانت فعلاً ورأيت الحياة، في نزالها مع الموت، تداور الموت، تصرعه، تطؤه، وتأخذ بي رفيقة، ـ أنا المتشبث بسكّان المركب، القائد لصفّ طويل من المراكب ـ من منحدر النهر، عند مصبّه في البحر، إلى حضن البحر، فأيقنت، عندئذ بالنجاة، ونجوت بأعجوبة!

قالت كاترين الحلوة:

ـ إذا لم أكن صاحبة الأعجوبة، فإنني، بالتأكيد، ساهمتُ فيها!

لقد كنت هناك، في قلب الإعصار، ورأيتك والإعصار يضربك، وأنت تقاوم وتقاوم بقلبك الذي لم تزعزعه الأهوال. كنت، يا صالح، أنت الإنسان، وعلى النحو الذي يكون عليه الإنسان حين «يصدح بفخر» كما قيل في هذه القاعة. وقد بهرتني شجاعة الإنسان فيك، فقرّرت أن أمدّ لك يد المساعدة في المحنة التي أنت فيها، طالبة من البحر، من أبي البحر، أن يكون في حالة مدّ، فارتفع ماؤه عند المصبّ، وتطامن منحدر النهر فاجتزته، أنت الريّس الخبير، المجرب، شجاع القلب، بسلام وشرف!

صات الوطواط:

ـ أخطأت يا كاترين بما فعلت، وستعاقبك الطبيعة يومًا، وقد عاقبتك، ربما بالتفريق بينك وبين صالح! ماذا يعني مجد الإنسان الذي تتغزّلين به؟ وهل هناك مجد له أصلاً؟ إنه، منذ أكل التفّاحة، استحقّ اللعنة، وهو بها جدير. ملعون الإنسان هذا، لأنه خالف الوصيّة بإغراء من أفعى الفردوس، ثم من هي الأفعى؟ إنها حوّاء! ومن هي حوّاء؟ إنها الأفعى، جسمان في واحد، روحان في روح، عدوّتان في عدوّ، وقد أمر الإنسان بأن يسحق رأسها، وأُمرت هي بأن تلدغ كعبه، وكان هذا الأمر، في ذاته، بيّنة على اللعنة التي أحاقت بهما أزلاً أبدًا!

عقّبت البومة:

ـ أنت على حق يا عزيزي الوطواط!

قالت السوسة:

ـ ولأنه على «حق» كما تزعمين، فقد مُسخ على هذا الشكل القبيح والكريه.. لكنني لست في وارد الردّ على التخرّصات، لأن دافعي إلى المداخلة هو السؤال التالي: هل أنت، أيتها البهيّة كاترين، من البرّ أم من البحر!؟

أجابت كاترين:

ـ منهما معًا!

ـ كيف!؟

ـ بوجودي بينكم، قبلاً، على شكل عروس البحر، وبوجودي بينكم، الآن، عروس البرّ! إنني أجهل، أنا نفسي، هذا التحوّل، لكن الحب، ولست أنا، مَن صنع الأعجوبة، إذا ما كانت هناك أعجوبة، وهي، في رأيي، كائنة، فماذا تقول يا صالح، أنت الذي كنت موضوع الأعجوبة وسببها؟

ـ أقول إنني، بعد ذلك الحادث الرهيب، صرت أؤمن بالأعاجيب! البحّارة جميعًا يؤمنون بالأعاجيب في ساعة الشدّة، ساعة الهول والمركب يرقص رقصة الموت على هدير اللّجّة.. تعرفون ما هي اللّجّة؟ لا؟ إذن جرّبوا الإبحار فوقها تعرفوا.. في ذلك الوقت، يركع البحّارة ويتلون آية الكرسي، يركعون وهم سُجّدٌ أمام العليّ القدير، طالبين الرحمة، ناشدين، تضرّعًا للربّ، أن يكتب لهم النجاة، مؤرّخين الدمع من عيون قرّحها، وكواها الماء المالح، مستغفرين، تائبين، نادمين، ولكن إلى وقت.. البحّار ليس براهب، والمرافئ ليس فيها أديرة للراهبات، هناك، في كل مرفأ، ريّ للظمأ وفتح للصدر، لذلك يرتوي

البحّارة من الشراب، أيّ شراب، ويثلجون صدورهم من المرأة، أيّ امرأة، وغالبًا ما يكون الشراب مغشوشًا، والنساء بغايا! إنني لا أفضح أسرارًا، لا أكشف عيوبًا، وكذلك لا أجمّل قبيحًا، أو أقبّح جميلاً، أصف فقط، أقول ما رأيته وعشته، تاركًا للفشّارين الزعم بأن الحياة، على هذا النحو، فظيعة، دنسة، مدانة! هؤلاء المراوغون، النبّاحون، ينكرون على البحر أنه بحر، وعلى البحّار أنه بحّار، وعلى الشجاعة أنها شجاعة، وعلى الكرم أنه كرم، وقد كنت أعذرهم لو أنهم أبحروا يومًا، وعانوا يومًا، وعاشوا العاصفة ساعة، ساعة واحدة فقط، لا أكثر، ورأوا الموت عيانًا، في اللّجّة لا على الشاطئ، حيث يسترخون على أقفيتهم المترهّلة، ناسجين، دونما نجاح، ستائر لعوراتهم التي أشرف منها أكعاب الذين يطأون اللّجّة بأقدام ثابتة! نعم! كاترين الحلوة صنعت، أو أسهمت، في صنع أعجوبة نجاتي، وأني مدين لها، عارف بجميلها، لكنني رجل بعد كل شيء، والرجل يضيره أن تكون المرأة أشجع منه، ويضيره أن تكون المرأة ندًا له، في أيّ مجال، وينكر عليها أن تحبّ سواه، مع أنه يحبّ سواها.. باختصار: المرأة عبدة، والرجل هو الذي استعبدها، ظلمًا وطغيانًا، وهذا ما فعلته أنا مع كاترين، وندمت عليه، وبكيت ندامة، كما رأيتم قبل قليل، لكن الحكاية العجيبة، الغريبة، ليست هنا، الحكاية لم تبدأ، فاسمحوا لي بالتقاط أنفاسي، وبعد ذلك أتابع.

- ١٠ -

قالت كاترين الحلوة:

- قبل أن يتابع صالح حزّوم قصّته «العجيبة الغريبة» كما قال، أرغب أن ألفتكم جميعًا إلى أنه يبالغ من قبيل تجريح النفس، في رسم اللوحة لما كان بيني وبينه، مدفوعًا بالندم المحض، كي يعيش علاقتنا، التي كانت، ثانية، يعيشها بلذّة مبهمة، لأنه كلما تقدّم العمر بالإنسان يتشوّق إلى شبابه، أو استواء رجولته، وما كان فيها من وقائع، تخمّرت بفعل الزمن، وراقت وشفّت عن ذكريات أليمة ومؤلمة! الإنسان، في عجزه عن محاسبة الزمن، يحاسب نفسه استبدالاً. إنه لا يستطيع إيقاف الزمن، ولا إلقاء مرساة مركب العمر، وهذا جيّد في ذاته، لأن الزمن لو توقّف لكانت الكارثة. أقرّ أن صالح حزّوم معتدّ برجولته، كأيّ رجل شجاع آخر، إلاّ أنه، في هذا الاعتداد، لم يجعل من نفسه سيّدًا عليّ، ولم يجعل مني عبدة له.. في وسعه الآن أن يتابع ما بدأ به، وكلّنا شوق للسمع، لأن حكايا البحّارة والبحر تكون مشوّقة دائمًا، عندنا وعند غيرنا على السواء.

قال صالح:

ـ عين المحبّ كليلةٌ عن رؤية العيوب دائمًا. هذا ليس مثلاً، إنه حقيقة انبثق منها، وعنها، المثل، وما الأمثال، في حياة البشر، الا حقائق! تبدأ القصّة بداية بسيطة: المرأة تحبّ في الرجل شمائله قبل فحولته، ومعها أيضًا، تحبّ الرجل المكافح، المقاوم، المغامر، حين المغامرة، في سبيل نفع الناس تكون، ولها هدف شريف بعيد عن الأنانية وحبّ الظهور، وقد حدّثتكم عن البحّار وما يلاقيه منذ أن يبحر، وحدّثتكم عن هذا البحّار في ضعفه وقوّته معًا، وعن قانون البحر في خيره وشرّه، القانون الذي كتبه البحر، في غير محاباة، على خشب المراكب وجبين البحّارة، بسيخ محمّى، ليكون نقشه حرقًا عصيّاً على الامحاء، ومن أجل هذا الميسم، الظاهر على جبين البحّار أو المستتر، فإن هذا البحّار يكون محبوبًا من المرأة بخاصّة، ومن الذين على الشاطئ بعامّة، وقد عرفت، أنا صالح حزّوم، مثل هذا الحبّ، بعد عودتي سالمًا من مغامرة إنقاذ المراكب من براثن الإعصار، عدت إلى «حي الشرادق»[1] عودة ملك متوّج، وكل إنسان يستطيع أن يكون هذا الملك، إذا توفّرت له مقوّماته.

سأل الوطواط بنبرة حسد وسخرية:

ـ نحن في حضرة ملك إذن!؟

ردّت العنقاء:

ـ ملك توّجته العاصفة بإكليل من حبّات الزبد البيضاء!

ـ وأين عرشه؟

---

١ ـ جمع شردق، وهو الكوخ الخشبي، والكلمة تركية.

ـ على ذروة اللّجّة، حين تكون جبلاً من ماء، وتحتها هاوية القاع المرعبة!

صاحت السوسة محتجّة:

ـ كفى! توقّفوا عن الأسئلة ودعونا نسمع القصّة..

قالت البومة:

ـ القصّة التي من نسج خيال محموم، برعدة الخوف من العاصفة!؟

ـ القصّة المنسوجة من خيوط العاصفة، ومن شجاعة الإنسان الذي يواجه غضب الطبيعة ولا يبالي، لأنه ابنها وعريسها في آن!

ـ إذن لتكفّ كاترين عن الضغط على ظهري، ناقلة رعشة أصابعها إليّ، ولتخجل من نقل شعور الأنثى أمام الذكر، لأن لهذا الشعور المرعش وقتًا آخر، وعلى انفراد! ثم لماذا هذا الشعور أصلاً، ما دامت هي التي أنقذت صالح حزّوم، هذا الفشّار الذي أتخمنا بحديثه المملّ عن مغامرته الزائفة، التي لم يكن فيها بطلاً، أو مغامرًا شجاعًا، من النوع الذي ينتصر بقدرته، ويصنع الأعجوبة بنفسه، دون الاستعانة بغيره، ليصنع له هذه الأعجوبة، ولو كان امرأة!

قالت العنقاء بغضب:

ـ تسخرين، أيتها البومة القبيحة، من المرأة؟ وتنكرين عليها، بسبب من جمالها وحقدك عليه، أن تكون أخت الرجل في الشدّة؟ لا فائدة! القبيح يغتاظ من الجميل دائمًا، وغيظه لؤم، واللئيم يموت بلؤمه الذي لا شفاء منه.. أما الرعشة التي تستشعرينها فهي رعشة

حسد، والحسد قاتل لصاحبه، وهنا عدله وفضله معًا! لماذا تحاولين، أنت والوطواط، قطع سياق القصّة الرائعة والمثيرة معًا؟ ألا تعلمين أنك بفعلتك الغبيّة هذه، تزيديننا تشويقًا لسماع بقيّة القصّة!؟ ما رأيك يا كاترين، أيّتها الجميلة بين النساء!؟

قالت كاترين:

ـ رأيي أن المحاولة الخبيثة، من الوطواط والبومة، قائمة، وهدفها قطع سياق القصّة، التي كان في وسع صالح حزّوم أن يصنع أعجوبتها بنفسه دون مساعفة مني أو من غيري، لأن من يحتمل الهول يومًا، يحتمله ساعة إضافية أيضًا! لقد كنت، يوم دخل صالح الحيّ، شاهدة لا حبيبة، الحبّ، ضربة القدر النبيل هذه، كان لاحقًا لا سابقًا، ولأنه كذلك، فإنّ بإمكاني القول إن عودته المظفّرة، ونجاحه بإنقاذ المراكب بالتّضحية، قد خلعا عليه بهاء البطولة في أجلى مظاهرها، لكن صالح دفع غاليًا ثمن نصره، وبقي أيامًا يتأرجح بين الموت والحياة، وقد صلّى الناس لأجله، وكذلك صلّيت أنا، ورغم أنني، في ذلك الوقت، كنت منبوذة من الجميع، فإنه مدّ يده ورفعني من الحضيض إلى الأعالي، عندما أشار إليّ، أمام الجميع، قائلاً: «أنتِ»! طبعًا هذا القول أرضى فريقًا وأغضب آخر، إلا أن أحدًا لم يستطع أن يرميني بحجر منذ تلك اللحظة، لا خشية منّي أنا الضعيفة آنذاك، إنما تحسّبًا من توجيه لعنة إلى امرأة باركها رجل، فطوبى لرجل يبارك امرأة خاطئة، وطوبى لامرأة تتقبّل بركة رجل قادر على الأخذ بيدها، وعلى حمايتها، ومساعدتها، وإعادة كرامتها إليها، ومثل هذه المرأة تحبّ مثل هذا الرجل، لأنه صار رجلها حتى

قبل أن يمسسها، ولأنه لم يطلب لمعروفه بدلاً، ولم يمنّ عليها، وكان شأنه في ذلك شأن البحر: يعطي ولا يطلب أيّ مقابل لعطائه، فيكون، هكذا، كبيرًا وجليلاً!

أضافت كاترين الحلوة وهي ترفع يدها تقزّزًا عن البومة:

ـ أنت، يا ناعقة بالخراب وسط الخراب، لا ترتعشين لذّة بل من ألم، وأنا لا أرتعش بشعور الأنثى أمام الذكر، وإنما بشعور الإعجاب أمام البطولة وذروتها التضحية. صالح حزّوم كان مفاديًا لذلك كان بطلاً، ومن لا يعرف معنى المفاداة، ولا ينهض لها، لا يكون بطلاً أبدًا. ثم ما هي البطولة، في ذاتها وفي معناها؟ إنها الاندفاع إلى الموت دون تردّد في سبيل الآخرين، وإنها الاحتراق في سبيل إنارة سبل الآخرين، حتى الذين لم يَرَ لهم وجهًا، فالبطولة، بهذا المعنى، ترتفع على الصغائر، والعلاقات، والمودّات، وإنقاذ الذين لهم في رقابنا منّة أو دين، فأن نقارب البطولة الحقّة، يعني أن نفتدي، وننقذ، بالتضحية، أولئك الذين هم إخوة لنا في الإنسانية، بصرف النظر عن معرفتهم، أو الصلات التي تربطنا بهم، أو المنافع المتبادلة معهم، ورغم العداء والحسد وألوان الكراهية التي يحملونها لنا، ونعرف أنها موجودة، ومؤكّدة، وقد لحق بنا الأذى بسببها! إن انتشال الغرقى في البحر أو النهر، وإنقاذ الحرقى من ألسنة النار، ودرء الخطر عن الذين يحيق بهم، في الماء أو اليابسة، هو فعل بطولة مفادية، لا حذر فيها، ولا سؤال عن الجنسيّة أو اللون أو المصلحة، أو حتى المشاعر والنوايا والمواقف، وبصورة خالية من التردّد، فالثانية الضائعة، في الإقدام أو الإحجام، قد تجعل أوان المساعفة يفوت،

وإمكانية الإنقاذ أشدّ استحالة، وكل بطولة خارج هذه الشمائل باطلة، وصالح حزّوم، بدفع من هذه الشمائل، أقدم، وضحّى، وأنقذ، ولم يرم بنفسه إلى التهلكة، في معناها المتعارف عليه، والمتّفق عليه، بغير كلام، بين الخبثاء وغير الشرفاء، وغير الشجعان من بني البشر، وإنما رمى صالح بنفسه إلى تهلكة سامية، واجبة، فيها تضحية بالذات لإنقاذ ذوات أخرى، وفيها معنى آخر، متّفق عليه، بغيركلام، بين الشرفاء والشجعان من بني البشر، وهذا المعنى هو الواجب الإنسانيّ، في أبهى تمظهراته، وبصمت، وترفّع، ونبذ للأنانيّة، ولكل خسّة تحطّ من قيمة المفاداة وكرامتها.. هذا، في رأيي، من يعطي للملك، في نبل الصفة، أن يكون ملكًا، وللأمير أن يكون أميرًا، وللفارس أن يكون فارسًا، وبذلك، وبالحب الصادق في كل ألوانه، يأتي العرش مجدًا، والتاج غارًا، والصولجان اعتدادًا ينطوي على حبّ الإنسانية العظيم.. وهذا، بقدر ما استطعت الإيضاح، هو ردّي على الوطواط والبومة، وعلى هذا النحو أخذ صالح حزوم بيدي، رافعًا، ومرتفعًا بي، من حضيض المهانة التي كنت فيها، إلى قمة الكرامة التي صرت إليها، ومنذ قال لي، بعد عودته المظفّرة إلى الحيّ، وأمام الجميع: «أنتِ!» أدركت أنه رجلي، كما أدرك هو أنني المرأة اللائقة به، لا على طريقة «الخاطئة الفاضلة» وإنما على طريقة الاعتراف بأن لكل منا خطيئة في هذه الحياة، وأن لا حق لأحد بالإدانة تاليًا، وأن المدانة بفعل سقوط اجتماعيّ قسري، غير مدانة بسقوطها القسري هذا، وبدلاً من أن نحاسبها هي، علينا أن نحاسب المجتمع الذي دفعها إلى الطريق الملتوية، الطريق التي تبحث مثل هذه

المرأة، وفي كل يوم، عن طوق النجاة منها، لأن المعوّل عليه، في هذه الحال، هو البقعة البيضاء في الداخل، البقعة الموجودة، في مكان ما، من صدر الإنسان، ومن صدر حتى المجرم أو الخاطئة، مهما تكن الجريمة أوالخطيئة، ما دام الدافع الخارجي، الاجتماعي، هو السبب، وهو الجلاّد، وما دمنا نحن، بآثامنا، ضحاياه، ومن غير العدل أن نحاسب الضحيّة، وأن نعاقبها، وأن نترك الجلاّد بغير حساب أو عقاب.. إن المرأة لا تؤتى بالذكورة وحدها، أو الفحولة وحدها، وإنما معها، ومع الاريحيات المقترنة بها، واسألوا النساء تعرفوا. اعترف! أنا كاترين الحلوة اعترف. كنت خاطئة، وكنت مدانة، إنما بغير وجه حقّ، وهذه ليست مرافعة القصد منها الحصول على صكّ براءة، فهذا الصكّ لا يهمني في كثير أو قليل، وليس من أحدٍ بقادر على منحي إيّاه، أو سلبه مني، وليس من احد، أو من دافع خارجيّ، بقادر على تحطيمي، اذا لم انكسر من الداخل، وقد كنت ولا ازال، عصيّة على هذا الانكسار.. صالح حزّوم أحبّني، رفعني، كرّمني.. اليس كذلك يا صالح؟

قال صالح:

ـ نعم! أحببتك، واحبك، وسأبقى احبك، لأنك جديرة بهذا الحب يا كاترين، وقد بدأت القصّة بكلمة «أنتِ!» هذه التي بهتَتْ الجميع، وذهل لها الجميع، ولقيتُ بسببها العتب، والملامة، من القريب والغريب، من اهل بيتي ومن أهل بيوت الآخرين، هؤلاء الذين لم يفهموني، بل واتّهموني، وأدانوني، إلاّ أن احدًا منهم لم يستطع النيل مني، أو الإساءة إلى سمعتي، فالسمعة الحسنة يأتي بها الانتصار،

وقد انتصرت دون أن أفكّر، لحظة، بهذه السمعة، والا لكنت نذلاً، ولكنت فاديت في سبيل مغنم، وهذا بعيد عن شرفي كإنسان أولاً، وكبحّار ثانيًا، أما ما تبقى ففي وسع كاترين أن تقوله، لأنها الشاهد على أنني كنت في شبه غيبوبة، وبقيت كذلك أيامًا، يتجاذبني اثنان: الموت والحياة، وقد فازت الحياة وفزت معها، وهذه مكافأة على مغامرتي، أعترف بها، وأعتدّ، وأعتزّ.. قولي، الآن، يا كاترين، ما تشائين، وقولوا أنتم كلكم ما تشاؤون أيضًا، فصدري مفتوح للحوار، وعلى أوسع مدى، ولم يضق أبدًا بالرأي الآخر، المخالف، لأن هذا الرأي حق للآخر، وحقّ مكتسب لا أنازعه فيه، أو عليه، أبدًا.

سألت السوسة كاترين:

ـ هل مجرّد كلمة «أنتِ!» كانت كافية لأن تستشعري جديدًا في قلبك وحياتك يا عزيزتي؟

قالت كاترين:

ـ كانت كافية، لأن صالح قالها بصوت هادئ، حازم، يوحي بالثقة، والدفء، والحب!

قالت البومة:

ـ نحن نعرف، سماعًا، أن هناك حبًا من النظرة الأولى، لكننا لم نسمع بحب من الكلمة الأولى، لذلك أشكّ في أن كلمة «أنتِ!» أوحت لك بكل المعاني التي ذكرتها. في رأيي أن صالح كانت له معك معرفة قديمة، وعلاقة أثيمة قديمة، وان يخون زوجته معك، دون أن يحلّل أو يحرّم! بطلك هذا يا كاترين عديم الضمير، وكان يرغب، في مغامرته

الطائشة، إنقاذ مركبه وحده، لا مراكب الآخرين كما يدّعي، وقد لعبت المصادفة، هنا، دورها، لأن مركبه كان مربوطًا، وقاطرًا للمراكب الأخرى.

أجابت كاترين:

ـ وإذا قلت لك، بشهادة أصحاب المراكب، أن صالح هو الذي ربط، وقَطَر، هذه المراكب، وأنقذها بتضحيته، دونما مصلحة شخصية له في هذا الإنقاذ؟

ـ أنت، في هذا، تكذبين يا كاترين، وشهودك شهود زور، اخترعتهم بغباء فاضح، لأن الحبّ أعمى، وهذا العماء، قادك إلى تصديق ما يقوله صالح، دون تدقيق أو تمحيص، والغاية اختراع بطولة وبطل، إرضاء لعشقك الدنس!

قالت العنقاء:

ـ أنا سريرة صالح حزّوم، وكنت معه لأنني منه، وما قاله صحيح تمامًا، يعرفه الجميع، بعد أن عاينه الجميع، لأنهم كانوا هناك، على الضفّة، وشاهدوا ما جرى، وتابعوه إلى النهاية، وكلّ تشكيك بما وقع باطل، صادر عن نيّة خبيثة، غايتها الافتراء، وصولاً إلى قلب الحقائق.

سأل الوطواط:

ـ أين كنت أنت، يا كاترين، وقت الإعصار؟ وما رأيك اذا قلت لك إنك كنت تمارسين الحب في ذلك الوقت، ولديّ شهودي كما لديك شهودك؟

صاحت السوسة:

ـ اخرس أيها المفتري، أقلع عن هذه الوسوسة والخَنْسَنة اللتين لا تفيدانك بشيء، فقد سبق وقالت كاترين إنها كانت هناك، وصلّت، كما فعل الحاضرون، لأجل نجاة صالح حزّوم، الذي رآها وهي تبتهل إلى العليّ القدير، ومن أجل ذلك قال لها «أنتِ»!

قال الوطواط:

ـ سأفترض أنه قال لها «أنتِ»! فماذا يعني هذا؟ إنه يعنى أحد اثنين: إما أنّ صالح كان يهذي، وهذا مرجّح لديّ، أو أنه كان يعبر عن فجور عشيق لإرضاء عشيقته! كاترين هذه كانت سائبة، كانت خاطئة كما اعترفت بلسانها، فلماذا تريدين، أيّتها السوسة، القارضة، أن نكذّبها ونصدّقك؟ الاعتراف سيّد الأدلّة، وقد اعترفت كاترين بأنها خاطئة أمامكم جميعًا، فما هو عقاب الخاطئة، حتى لا أقول الكلمة الأخرى، التي تصحّ عليها باعتبارها متزوجة؟ الجواب، هنا، قاطع، وعادل، وهو المطالبة برجمها بالحجارة، ونحن لم نطلب هذا تورّعًا، مراعاة للرأفة، لكننا في المقابل، لا نوافق على أن تجعلوا منها قدّيسة!

ردّت الحيّة:

ـ أنت بارع حقًا في الوسوسة والخَنْسنة أيّها الوطواط..

قاطعها:

ـ هذا هو المنطق يا آكلة الفئران والجرذان، ودحضه لا يكون الا بمنطق مماثل، أما تهمة التسويس والتخنيس فإنني فخور بها،

باعتبارها شكًا، والشكّ في ذاته فلسفة، فاقرئي ديكارت تعلمي، أو اقرئي، ببساطة، فيلسوفنا العربي أبا العلاء المعري، فإذا كنت لا تجيدين فهم الفلسفة، وهذا واضح، فإنني أحيلك إلى كاتب من عصرنا، هو طه حسين، وكتابه «في الشعر الجاهلي» تخصيصًا، الذي اضطروه إلى تحويره، أو تغييره، إذا لم أقل إنكاره، بقوة «العدالة» حفاظًا على التراث!

قالت الحيّة:

ـ لعبتك في قطع سياق قصّة صالح وكاترين، وتشتيت الأفكار، وتغييب الموضوع الأساس، غير ذكيّة كما تتوهّم يا آكل الهوام أنت! الطبيعة، وبمنطقها الحق، تحفظ توازنها، ومن هذا التوازن أن تأكل أنت الهوام، وأن آكل أنا الفئران والجرذان، ولولا فعلتي هذه ما بقيت غابة على وجه الأرض، ومن هنا فضيلتي في خدمة الطبيعة والبشرية معًا. الجهل، كما عرفه أبو حيّان التوحيدي، «لوح لا كتابة عليه»، ولن أزعم أنك هذا اللوح، إلاّ أنني أؤكد، من جهتي أنني أنا أيضًا، لست هذا اللوح، وهذه حجّة مقابل حجّة، فلا أنت جاهل ولا أنا، إذن بأيّ منطق تصادر معرفتي قبل أن تسمع ردّي؟ إن الوسوسة بقصد السوء، غير الشكّ بقصد إمعان النظر، حتى لا يكون كل ما نسمعه، أو نقرأه، في المسلّمات، وعندئذ تنطلي الأمور علينا، بخبيثها وجيّدها معًا، وهذا هو جوهر فلسفة ديكارت، ولها أتباع وأنصار، في كل مكان، غير أن التعميم، استنادًا إلى هذه الفلسفة، لا يصحّ أبدًا، فالعلم له ثوابت مؤكدة، منها، مثلاً، أن الأرض تدور، وأن الرعد يحدث بفعل احتكاك السالب والموجب في

الغيم، وأن الكمّ يتحوّل إلى نوع، وأن أبجديّة فهم السياسة هي فهم الاقتصاد، وأن أشياء الوجود مترابطة، لا منفصلة ولا متراكمة، وأن الأنظمة الاجتماعيّة تتبدّل وتتعاقب، وأن الحركة، لا السكون، هي محرّك السيرورة التاريخيّة. ومن هذا كله، أو من بعضه، ما يثبت أنني لست جاهلة كما تدّعي زورًا، وأن أبا العلاء المعري كان في شكّه طارح أسئلة، وغاية المعرفة طرح الأسئلة على الحياة وعلى أنفسنا، وأن طه حسين لم يحوّر في كتابه «في الأدب الجاهلي» بقوة العدالة بل بقوة الضغط القامع، وأننا لا نسعى إلى خلع القداسة على كاترين الحلوة، وإنما «ندرأ الحدود بالشبهات». ولئن كان الاعتراف سيّد الأدلّة، فان كثيرًا من المتهمين الأبرياء اعترفوا بما لم يرتكبوا تحت التعذيب، أو لغاية يدرجونها في سرائرهم، كأن يكونوا قد ملّوا الحياة، أو كرهوها، نتيجة ما فيها من سوء، أو فساد، أو ظلم، أو إخفاق في الحبّ، أو فشل في النجاح، وإذا كانت كاترين قد اعترفت بأنها خاطئة، وهذا واقع لا نماري فيه، فإن اعترافها لا يجيز لنا أن ندينها، دون محاكمة، دون أخذ للدوافع المسبّبة للوقوع في الخطأ أو الخطيئة، وأنت، أيّها الوطواط، تعرف، أو يجب أن تعرف، أن الفاروق عمر بن الخطاب، لم يطبّق في سنة الجوع حدّ قطع يد السارق، لأن عمر، بحكمته، أخذ دوافع الجوع في حسابه.. وأحسب أننا، بعد كل الذي قلناه، آن لنا أن نصمت، وأن نسأل صالح حزّوم أن يواصل رواية قصّة حبّه لكاترين، دون مقاطعة، لا لأن القصّة مشوقة بذاتها، وإنما لأنها قصّة حب، والحب هو اسمى ما في وجودنا من صادق العواطف.

قال صالح حزّوم:

ـ ما أكثر ما تعلمت من هذا الذي سمعته، وكم أنا سعيد لأنّني سمعت وتعلّمت، فكَوْني بحارًا لا يعفيني من التعلّم، ولا يعذر جهلي بأمور البرّ، على فرض أنّ لي معرفة بأمور البحر! أما قصّة حبّي لكاترين، وقولي لها «أنتِ»! من دون سائر النساء الموجودات حولي، فليس هذيانًا، فالإغماء جاءني بعد لحظة وعي، وعندما استعدت وعيي، وتقوّت أعصابي، وتوفّرت لي القدرة على الكلام، سألت زوجتي كريمة:

ـ من كان يسهر عليّ في مرضي؟

أجابتني كريمة:

ـ أنا وكاترين بالتناوب!

ـ أنت زوجتي، وهذا واجبك، لكن كاترين ليست قريبة، وليس هذا واجبها.

ـ فكّرت، مثلك، بما تقول، لكن كاترين ليست أيّ امرأة.. أنت نفسك أشرت إليها وقلت: «أنتِ!» وكانت، فعلاً هي!

ابتسمتُ كأنني في ربيعي الأول، كأنني ولدت من جديد، أخذت كفّ كريمة بين يديّ الواهنتين، كانت كفّها دافئة، ونظرتها عذبة، حنونًا، حدبة، مشفقة، يلوح فيها ابتسام حييّ، ينطوي على فرح، يغالب الدمع المتحيّر، كمن لا يعرف أن يعبّر بالقول عمّا به، فلما قبّلت هذه الكف، راودني شعور غريب، شعور من يقبّل كفّ أمه لا زوجته، وفكرت: هل هذا لأنها طيبة؟ هل هذا لأنها تقدّمت في العمر قليلاً؟ أنا

أكبرها بسنوات، ومثلها تقدّمت في العمر، لكنني لا أحسّ بأنني في مقام والدها، ولا أملك مشاعر هذا الوالد لو كان لا يزال حيّاً.. إنها يتيمة الوالدين، مثلي تمامًا، ومن المفروض أن تكون شراكة الحياة الزوجية، والوفاء الذي عرفته فيها، والمحبّة الغامرة التي لمستها في تصرّفها حيالي، والتفاني في خدمتي، بأكثر من تفانيها في خدمة بيتها وأولادها، كلّ هذا كان يرتّب إحساسًا آخر، أو يجب أن يكون كذلك، إحساسًا بها كامرأة، كأنثى، كزوجة، قاسمتني فراشي طويلاً، وأمتعتني كثيرًا، إلا أنّ صورة الأمّ حلّت محلّ صورة الزوجة، ولم تعد كريمة، منذ ذلك اليوم، تثير فيّ أيّ إحساس بأنها أنثى وأنني ذكر، فقد تبدّل شيء ما في داخلي من هذه الناحية، حيّرني، أدهشني، عذّبني، ولم أستطع أن أفهم، حتّى مع الرغبة في ذلك، السبب الحقيقيّ لهذا التبدّل، ولم يخطر لي على بال أنّ حبّي القديم قد انتهى، قد مات، وأن حبّاً جديدًا ولد، وأنه هو الذي دفعني، بعفوية، إلى قول كلمة «أنتِ»! وأنا أشير إلى كاترين باصبعي، اصبع الحبّ المبارك وغير المبارك، لأنه كان برغمي، وضدّ إرادتي، وقد روّضني بسهولة، أنا الذي روّضت الإعصار بمشقّة، وبجهد استنفد قوّتي، وطرحني مريضًا في الفراش، والحمّى تشوي بدني كما لو كان على نار!

قلت لكريمة مستغربًا:

ـ ألم تأخذك الغيرة من وجود كاترين قرب فراشي؟

أجابت من فورها:

ـ أبدًا!

أضافت:

ـ لماذا تسأل سؤالاً غريبًا كهذا؟

ـ لأن الغيرة هي التي تحرس الحب، فهل مات حبّك لي ولم يعد بحاجة إلى حراسة؟

ـ أبدًا! حبّك في قلبي كما كان منذ عرفتك!

ابتسمتُ وقلت:

ـ لكن هذا الحبّ شاخ قليلاً!

ـ ربما! أنت أدرى!

ـ كيف أنا أدرى!؟ هل أشعر، نيابة عنك، بشعورك الشخصيّ!؟ الحبّ، يا كريمة، شعور إنسانيّ، داخليّ، لا يعرفه الا صاحبه، وبشكل شخصيّ تمامًا، مع الفارق بين شعور الرجل وشعور المرأة، حيال هذا الحبّ، قبل الزواج وبعده! ام أن لك رأيًا آخر؟

ـ رأيي أني لا أفهم بالضبط ما تريد أن تقول! تتحدّث عن الحب والغيرة بأيّ مناسبة؟ أنا كما كنت، زوجتك كريمة، والحبّ، بيننا، كما كان، لم يمت ولم يتغيّر، ولن يموت أو يتغيّر إلا بموتي، وأفكارك هذه سببها الحمّى التي زال خطرها الآن، وأنا سعيدة بنجاتك وشفائك، فاسترح واخز الشيطان، واسأل الله أن يعطيك العافية لتعود كما كنت، زوجي صالح حزّوم، الذي مثلي، لا يتبدّل ولا يتغيّر!

هممت أن أقول لها:

ـ صالح تبدّل يا كريمة!

لكنّ الكلمات توقّفت في حلقي.. كريمة امرأة طيّبة، فلأتركها لطيبتها، وكريمة لا تغار وهذا جيّد، وإذا كانت لا تحسّ بأن شيئًا ما تغيّر، فهذا يعني أنها أكثر هناءة مني، وقد فتحت بيتها وقلبها لكاترين، فلماذا أزرع الشك في قلبها!؟ وما نفع ذلك؟! غسل وجدان؟ إظهار البراءة؟ تكفير عن ذنب؟ وأين الذنب؟ أنا أحبّ كاترين، فمن قال إن كاترين تحبّني؟ الشيء الوحيد الذي لا أشكّ فيه، هو أنني بعد المغامرة، لم أعد كما كنت قبلها، هناك جديد في حياتي، وهذا الجديد يفرحني ويتعسني، يجلب لي الطمأنينة، بمقدار ما يجلب لي الخوف، وغريب أمري: أتجرّا على الإعصار، وأخشى ما هو أقل منه من ناحية الجرأة؟ أين شجاعتي إذن؟ هل هي كذبة؟ هل أنا فشّار كما قالت البومة، أم أنا بطل كما قالت العنقاء؟ لا أدري، لا أدري، لا أدري! ولأنني لا أدري فقد احترت، ونَكَسْت، وعاودتني الحمّى، وواصلت كريمة وكاترين السهر عليّ، والعناية بكل ما يسرع في شفائي التامّ، دون أن تستطيع أيّ منهما، دفع القدر الذي كان قد ضرب ضربته وانتهى الأمر!

قالت كاترين:

ـ كنت، يا صالح، تهذي تحت وطأة الحمّى، وكنت تردّد اسمي، وأنا أحمرّ خجلاً أمام زوجتك كريمة، لكنها هي، كانت كبيرة القلب، متفهّمة للوضع، تهوّن عليّ بقولها «كل ما يساعد صالح على الشفاء أتقبّله بسرور، وأنت، يا كاترين، من يساعد، ويسرّع في شفائه،

فكوني إلى جانبه، وساعديه، لأن الله هكذا شاء، ومشيئة الله فوق مشيئة البشر، فالحياة فانية، ونحن زائلون، ولا بد من مكافأة التضحية بمثلها، فلنضحِّ، انت وأنا، من أجل إنقاذ صالح، وفي هذا وحده نكون جديرين بكرامتنا الإنسانية، وبمحبة القريب والغريب التي ترضي الخالق... وقد لا تكون هذه كلمات كريمة حرفيًا، إلا أن المعنى الذي تقصده هو هذا، وقد فهمته، وكنت سعيدة به، ولأنني كذلك فقد زايلني الخجل، لفترات قصيرة أولاً، ثم لفترات طويلة ثانيًا، ولم أعد، في نظر نفسي على الأقل، كاترين الخاطئة، بل كاترين المرأة، التي فهمتها المرأة الأخرى، الصالحة، كريمة، زوجة الرجل المنقذ، والتي صارت، بالإغضاء عن خطيئتي، منقذة مثله، على طريقتها هي، في الطيبة، والدماثة، والعذوبة، ونكران الذات، وهذا ما جعلها أشبه بقدّيسة في نظري، وهذا ما أربكني، وأساء إليّ عند التفكير في نفسي، في حياتي الماضية، في أخطائي! وعندما كنت أقارن، بيني وبينها، كان يعاودني خجلي، ويعاودني شعوري بالضعة، بالمهانة، لأنني، أنا القويّة، ضعفت أمام الطيبة، أمام السماحة، وأمام الغفران، وبذلك جعلت الأخرى تنتصر علي، تشفق على حالي، ومن طبعي رفض الشفقة، ومقاومة الانكسار، أمام أيّ مخلوق في هذا الوجود، حتى لو كان في مثل طيبة كريمة، ولهذا عشت عذابًا مؤلمًا، ودارت في داخلي معركة صامتة، فانقلب حبّي إلى كره، وتمنّيت لو أن كريمة عاملتني بقسوة، وحتى بالطرد من بيتها، دونما رحمة، فذلك يتيح لي أن أكون أنا، المتحدّية، المقاومة، المنتصرة، أكون كاترين الحلوة وكفى! ولأن ذلك لم يقع، فقد تحمّلت

ذلّ موقفي بكثير من الصبر، وكثير من المعاناة، وحين عجزت عن التحمّل هربت من بيت المرأة التي أحسنت إليّ، هربت بسبب إحسانها هذا، إحسانها الذي شعرت أنه جرّدني من سلاح الكبرياء مع الخطيئة، مفضّلة عليه الخطيئة مع الاحتفاظ بسلاح الكبرياء.. نعم! هذا ما حدث يا صالح، وأنت في غيبوبة الحمّى، وعندما جاءت إليّ زوجتك كريمة في بيتي، وركعت أمامي، ركعت بدوري أمامها، وبكينا معًا، بكينا حتى اغتسلنا بدموعنا، وبها تطهّرنا، فعدت معها إليك، بإحساس آخر، جديد هذه المرة!

قال صالح:

ـ لا أحد، يا كاترين، يستطيع أن يروي قصة الآخر، مثل الآخر نفسه.. لقد رووا قصّتنا بأشكال مختلفة، وأصدقك القول إنني، الآن، أسمع قصّتنا الحقيقية، بتفصيلاتها الدقيقة التي لا يعرفها غيرنا، ولا يجيد قصّها سوانا، حتى لكأنها قصّة جديدة، أعيشها من جديد، فهل تعيشينها، أنت أيضًا، من جديد، وبشعور مغاير لشعورنا السابق؟

قالت كاترين:

ـ كأنك، يا صالح، تنطق بلساني... شعوري، الآن، مثل شعورك، مغاير تمامًا، لذلك أرغب دائمًا، وأفضل أيضًا، سماع قصص الناس من أفواه الناس مباشرة، وأميّز، في هذه القصص، بين الكاذب منها والصادق، لمجرد النظر في عيني الذي يتكلّم، أو التي تتكلّم، لمعرفتي، من خلال التجارب التي عشتها، أن الكثير ممّا يقوله الناس عن

حيواتهم فيه إخفاء للأشياء السيّئة في هذه الحيوات، ونادرون هم الذين يتكلّمـون من القلب وليس من الفم، وأندر الذين لا يجـمّلون أنفسهم، وأندر بكثير الذين يقولون الحقيقة كاملة، بكل قبحها وعريها، كي يكونوا في «الصادقين» من جهة، ويتخفّفوا من عبء هذه الحقيقة التي يبهظهم كتمانها من جهة أخرى، ومع ذلك، وبرغم صدقهم، وجرأتهم، فان هناك، دائمًا، سرًا لا يقال، لسبب أو لآخر، وعلينا أن نتفهّم ذلك ونعذره.

قال صالح:

ـ لكم أنت رائعة يا كاترين!

قالت:

ـ قصّتنا هي الرائعة يا صالح، ونحن منها على مشارف البداية بعد!

- ١١ -

كانت قصّة صالح حزّوم وكاترين الحلوة مشوّقة، لكنها لم ترقْ للوطواط، الذي اعتبرها خدعة من جهة، وقصّة داخل قصّة من جهة أخرى، بقصد صرف الانتباه عن غايته في إقناع دعبس الفتفوت بأنه على حق في كره نفسه، وفي تجريمها وقتلها، لأن الزمن، الآن، هو زمن «الكره والتجريم والقتل ثم القتل»، بعد المرور بكل الموبقات، ومقاربتها، وارتكابها، طلبًا للمغانم التي أصبحت بغية الجميع، في «أيّام التسيّب والنفعيّة اللذين لا يُحاسب عليهما أحد» على رأي البومة التي تحاول استدراج الآخرين إلى تقبّل فكرة «الخراب العام» ما دامت الحياة أصبحت «خربة كبرى» ليس فيها سوى النعيق، الذي هو الموسيقى المفضّلة لدى «أبناء العصر الحالي» العصر الذي كان مجيدًا في بدايته وصار سافلاً في نهايته» وهي، البومة، ترى هذا جيّدًا، وتدعو إليه، وتؤكّد أن «الفضيلة الكاذبة» ليست سوى قشرة للسفالة الملائمة للناس، عندما يعرفون «الحقيقة» ويفيدون منها في سبيل «مصالحهم الخاصّة.. وحدها!» لذلك قالت:

- نحن هنا للنقاش في أمور أكثر أهميّة من القصص.

قال الوطواط:

ـ هذا لبّ المسألة! نحن نناقش لأننا نؤمن بالديموقراطية، وهذه ترتكز على الحوار، ورغم الشتائم الموجّهة إلينا، حليفتي البومة وأنا، فإننا لن ننجرّ إلى ما يراد لنا من نسيان الموضوع الأساس، ولن ينجح أحد في تغييب هذا الموضوع، حتى بالسحر.. كاترين هذه ساحرة، وقد رأينا بأعيننا كيف خلعت عنها ثوب المسمّى صالح حزّوم، الذي يريد اقناعنا، برغمنا، أن الحبّ هو أقوى من الكره، وأن النهر أفضل من المستنقع، وأن البحر ـ تأمّلوا هذا جيّدًا! ـ هو الأصل، وأن البرّ هو الفرع، وكل ذلك لأن كاترين، حبيبته المزعومة، من البحر، وأنه، هو، كان ريّسًا، وفي البحر أيضًا، ومع كل عظمة البحر كما يفهم من كلامه، استطاع أن يصنع أعجوبته، وأن ينقذ المراكب تحدّيًا، لأنه شجاع، ومنتصر، وموضع إعجاب ومحبّة كل أهل «حيّ الشرادق» وأن مكافأته على هذه الشجاعة، وهذا الانتصار، هو خيانة زوجته، وأن هذه الزوجة المسكينة، المغلوبة على أمرها، هي من سهّلت له هذه الخيانة.. وباركتها أيضًا!

قالت البومة:

ـ هكذا تكون، زوجة صالح حزّوم، قد صارت...

قاطعتها العنقاء بحدّة:

ـ اخرسي يا وجه الشؤم، وإياك أن تتلفّظي بتلك الكلمة البذيئة بحق امرأة فاضلة.

ـ وما هي فضيلتها؟

ـ فضيلتها أنها ارتفعت على الأنانية، في سبيل شفاء زوجها، وأخذت التضحية لحسابها، إيمانًا منها بأن الحب أقوى من الكره بما لا يقاس، وأن إنقاذ خاطئة من خطيئتها هو التسامي الذي لا يحسنه إلاّ أنقياء القلوب، وقد كان في وسع زوجها أن يخدعها، أن يخونها، أن يتزوّج عليها، أو، على الأقل، أن يخفي مشاعره كما يفعل الجبان، والمخاتل، والنذل من الرجال، إلاّ أن الريّس يبقى ريّسًا في تصرّفه، وفي التعبير، بصدق، عمّا خالجه من عاطفة حيال امرأة كانت ضحيّة مجتمع لا يرحم، امرأة رُجمت طويلاً. وهي، دون كلل، تبحث بإخلاص عن يد تمتدّ اليها فتنتشلها من سقطتها، لأنها نقيّة السريرة، بينما هناك الكثير من النساء ذوات السرائر الخبيثة، المدنّسة بخيانات مستترة، يتظاهرن بالشرف وهن منه براء، لأنهن غير محتاجات، ولم يلوِ البؤس هيبتهنّ كما فعل مع كاترين، التي قال لها صالح حزّوم، بجهارة الصوت، وأمام الجميع: «أنتِ»! لأنه وجدها الأطهر، وبذلك تكرّمت شهامته، في حين تسفّلت ثعلبة الآخرين، الذين يسلكون مسلك الغدر، فيرتدّ الغدر إلى صدورهم!

قالت الأفعى:

ـ نعم! ثعلبة الآخرين، هذه هي الكلمة المناسبة، المعبّرة عن الفارق بين الإنسان الشهم، والإنسان الوضيع، بين الذئب الجائع، الذي يطلب الشبع بالغدر والخسّة والمكر.. صحيح أن فعلة الذئب غير مبرّرة، وهي عدوانية بالمحصّلة، إلا أن فعلة الثعلب غير مبرّرة أيضًا، وهي عدوانيّة بالقدر نفسه، وماكرة بقدر أكبر، لا يأتي بمثلها الا الجبان والسافل! اسمعوا هذه الحكاية الصغيرة: كانت سلحفاة

تسير في طريقها، وهي مستغرقة في تفكير عميق، وفجأة ظهر الثعلب أمامها، فما كان من السلحفاة الا أن ادخلت رأسها وأرجلها داخل جسدها الصلب. كان الثعلب جائعًا، فما ان وجد السلحفاة أمامه حتى اندفع نحوها، إلا أنه لم يعرف كيف يأخذ قضمته الأولى من ذلك الجسد الصلب. جلس يفكر طويلاً، حتى ظنّت السلحفاة أنه قد انصرف، فبدأت تخرج رأسها بحذر شديد، وكانت تلك هي اللحظة التي ينتظرها الثعلب الذي انقضّ على فريسته، وتناول رأس السلحفاة بأسنانه.. صرخت السلحفاة من الألم، وراحت تندب سوء حظها وهي تقول: «كيف استطاع الثعلب أن يخدعني وأنا أذكى الزواحف في العالم، ومن المكرّمة في الأساطير الصينيّة والديانة البوذية؟» أما الثعلب فراح يضحك في غرور المنتصر وهو يقول: «لقد آن الأوان لتعرفي أن الثعلب هو الأذكى!» وبمجرد أن فتح فمه للكلام، كانت السلحفاة قد انتشلت رأسها من بين أسنانه، وأعادته إلى داخل صدفتها الصلبة، ومن ذلك المكمن الأمين راحت تقول: «كم أنت غبيّ أيها الثعلب! لقد عاد إليّ ذكائي في اللحظة التي فتحت فيها فمك لتتكلّم!» أما الثعلب فلم يكن أمامه سوى أن يركل صدفة السلحفاة عدة مرات من الغيظ، وينصرف خائبًا وجائعًا!»

أضافت الأفعى بعد أن روت هذه القصّة الصينيّة الصغيرة:

ـ صالح حزّوم، لمن يريد أن يعرف، وكذلك يقتنع، كان رجلاً من فصيلة الرجال الشجعان، أصحاب الشيم، والصراحة، والصدق في التعامل مع المرأة.. رفض أن يكون ثعلبًا، وترك الثعلبة لأمثال الوطواط والبومة، هذين المخلوقين الكريهين اللذين كلّما ظنّا أنهما

نجحا، وجدا أن ثعلبتهما مكشوفة، مفضوحة، وباءا بفشل مخزٍ، كان كافيًا لردعهما لو كانا من الذين يرتدعون!

قال الوطواط:

ـ أنا أيضًا أعرف قصص الحيوانات البريّة والبحريّة، وفي إمكاني الردّ على ترّهة السلحفاة والثعلب، بحكاية القرش والحوت، لكنني أؤجل ذلك إلى وقته، طارحًا هذا السؤال: هل نحن، الآن، أمام كاترين المرأة أم كاترين السمكة؟ وهل نحن، كذلك، أمام دعبس الفتفوت الذي يكره نفسه، أم أمام صالح حزوم الذي يحب نفسه إلى درجة النرجسيّة؟ إن الجواب عن هذا السؤال، يجعلنا نعرف مع من نتعامل، ومع من نتحاور، ويكون لنا، تبعًا لذلك، القدرة على الردّ المناسب للنفاق المناسب، بأيّ زي تزيّا، وأيّ شكل اتخذ، وأيضًا كشْف الثعلبة والرجولة، اللتين يجري الخلط بينهما لغاية خبيثة، يراد تمريرها بالكلام المزوّق، أو الحكاية البائخة، المعروفة، وهي حكاية «الغراب والثعلب»، التي تحوّلت إلى حكاية «السلحفاة والثعلب» على الطريقة الصينيّة أو البوذية، لإضفاء مسحة من الصدقيّة عليها! لقد طرحت، بخصوص كاترين وصالح، سؤالاً محددًا، وأنتظر جوابًا محدّدًا، بعيدًا عن لعبة الأقنعة التي تمارس، دون نجاح، أمامنا! وبعيدًا، أيضًا، عن التشنيع الذي هو سلاح العجزة!

ردّت السوسة:

ـ صدق من قال: «ومن البليّة... خطاب من لا يفهم!» وتزداد هذه البليّة اذا كان المخاطب لا يريد أن يفهم، سواء بالكلمة أو بالرمز أو

الحكاية، لأنه قرّر سلفًا الا يفهم، وهنا تعاسته! لقد قلنا، وكرّرنا، ونكرّر، أن الوَسْوَسَة والخَنْسَنَة لن تجلبا أيّما فائدة للوطواط والبومة، سواء كانت هناك أقنعة أو لم تكن.. طريق جهنم هذا الذي يغريانا به ليس طريقنا، ولن نتبعهما عليه، مهما تلوّن المكر، وتعسّل الكلام.. إذن لا فائدة، مرّة وإلى الأبد! ثم إننا أذكى من الوقوع في فخّ السؤال الذي طرحه الوطواط علينا، فالجواب هو في دلالة قصّة كاترين وصالح، وليس في مسألة نعم أو لا! القصّة هي قصّة حب، وأعرف أن الوطواط والبومة، اللذين يُضارّان لمجرّد ذكر الحبّ، غير مرتاحين لقصّة هذا موضوعها، الا ان المثل يقول: «اذا أردت أن تُطاع فاطلب ما يُستطاع!» ونحن، للأسف، لا نستطيع أن نلغي ناموس الحبّ، لأنه ناموس الحياة، فمن كان ضدّ الحب فإنه ضدّ الحياة، ولا حيلة في اليد اذا ما كانت الحياة تميت من يقف ضدّها صبرًا، وأحسب أن هذا الإيضاح كاف، مؤقتًا على الأقل، كي يُتاح لنا متابعة القصّة، دون إزعاجات من الذين نقدّر وطأة عذابهم وهم يستمعون إلى ما لا يرغبون، فالرياح، كما قال الشاعر، لا تأتي بما تشتهي السفن دائمًا، ونصيحتي لمن لا يريدون الاستماع أن يخرجوا من هذه القاعة.

صات الوطواط:

ـ مؤامرة! هذه مؤامرة، القصد منها انفراد المتآمرين بالساحة، وإخراجنا منها كي يخلو لهم، ولأضاليلهم، الجوّ، وهذا لن يكون أبدًا، نحن أيها المتآمرون الأغبياء، كابوس فوق صدوركم، ولن

نتزحزح عنها حتى تُزهق أرواحكم، ومن هذا وحده يتبيّن أننا نفهم بأكثر مما تتوهّمون، وأنّ البليّة فيكم لا فينا!

ردّت السوسة:

ـ اذن اسمعوا وعوا!

قال الوطواط:

ـ سنسمع وسنعي جيدًا، ولن نموت صبرًا أو بغير صبر، لأننا لكم بالمرصاد، ومن يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا، وهذه قيلة نحفظها عن ظهر قلب.. أما نصيحتك، أيتها السوسة، فانها بلهاء، وقد قال الحكماء: «في العجلة الندامة، وفي التأنّي السلامة». ونحن غير مستعجلين.. ثم لماذا نستعجل!؟ تزعم السوسة أننا مع الكره ضد الحبّ، ولكن أيّ حب؟ حبّ الخيانة الزوجيّة الذي تبرّره؟ نعم! نحن ضد حبّ كهذا، لأننا مع الأمانة الزوجيّة، وبشكل مطلق، لا ثعلبة فيه، ولكن لا ذأبنة أيضًا، ويبقى السؤال هو هو: أمام مَنْ نحن؟

قالت كاترين:

ـ أمامي!

ـ بأيّ صفة؟

ـ صفة الإنسانة التي أنا على صورتها.

ـ إذن أنت تستحقّين الرجم.

ـ الرجم لأنني أحب؟

ـ ما بينك وبين صالح حزّوم ليس حبّاً، بالمعنى الشريف للحبّ.

ـ وما تعريفك للشرف، يا قليل الشرف أنت؟

ـ تشتمينني أيضًا يا كاترين يا..

قاطعته السوسة:

ـ اخرس، وللمرة الثانية، وإذا كنت تعرف الشرف، وأنت منه براء، فما هو تعريفك له؟

قال الوطواط:

ـ الشرف ألاّ نفعل شيئًا نخجل منه!

ـ كاترين وصالح لم يفعلا ما يخجلان منه.

قال الوطواط:

ـ ثم أن يكون هذا الذي نفعله في العلن وليس في السرّ!

ـ ما فعلاه كان علانية، وعلى رؤوس الأشهاد.. قال صالح لكاترين، أمام الجميع، وبصوت سمعه الجميع: «أنتِ»! فماذا بعد؟ وهل من علانية أكثر من هذه؟

ـ وإذا كانت هذه وقاحة؟

ـ الوقاحة تكون حيث يكون الكذب، لكنك، أنت كوطواط، لا تعرف الصدق، ولك غاية واحدة، وحيدة، من كل هذه المراوغة: النكران! أنت، وكذلك البومة، تنكران الحبّ، ولن أسأل: لماذ؟ فمن الإسفنجة المشبعة بالماء العكر، لا ينقط الماء الصافي، ومن القلب الذي يضخّ القيح الكريه، لا نتوقّع دمًا أرجوانيًا! هناك، في مثل هذا القلب الذي هو قلبك، سواد، وسنكون أغبياء، إذا أملنا منه بياضًا، أما الشرف،

الذي عجزت عن تعريفه، فهو الوفاء، وأما الحب فهو الصدق، وكل ما نفعله بصدق فإنه أخلاقيّ، وشريف، ووفيّ، و«طوبى، كما قال أحد الفلاسفة، للدودة الوحيدة»! لأنها تنكح نفسها بنفسها، فهل تريدنا دودة وحيدة؟ وهل الشرف محصور في حوض الرجل أو المرأة وكفى؟ إذًا ماذا يبقى لليد واللسان والوجدان؟ وماذا في الضمير الذي ينغل فيه الدود، اذا حصرنا التدويد في الحوض وحده؟ هناك أناس يكذبون، يخبثون، يسرقون، يمشون بالنميمة، يعيشون على الفساد والإفساد، فهل هؤلاء شرفاء، لمجرّد أن حوضهم لم يمسّ علانية، بينما هو يمسّ، وبفحش كبير، سرًا!؟ أنت والبومة، تدعوان إلى الكره، ونحن جميعًا ندعو إلى الحب، وهذا هو الفارق بيننا، وهو فارق كبير كبير، والخلاف حوله سيبقى، ما بقيت عقليّة قديمة وعقلية جديدة، ولأن الجديد يصبح قديمًا مع الأيام، فإن علينا أن نتجدّد دائمًا، كي نكون أبناء المستقبل، عندما نتخلص من قيود الماضي، وأعني الماضي السيّئ، الذي يكبل منا الأيدي والأرجل! لنرمِ، مرة وإلى الأبد، بكل عقليّة متحجّرة، وبكل ضمير مدوّد، وعين كليلة عن رؤية الحسن، إلى بالوعة المجارير.. والآن، عودة إلى قصّة حب صالح وكاترين، التي بدأت بكلمة «أنتِ»! ثم كانت الحمّى، وكانت الغيبوبة، وسهرت كاترين على صالح حتى شفي، فماذا بعد شفائك يا صالح؟ قل، كما وعدت، كلّ شيء، وبتفصيل دقيق، أرجوك.

قال صالح:

ـ الحبّ، أيتها السوسة، خُلق ليعاش لا ليُحكى، فكل كلام على الحبّ يقتله، وأنا أرفض قتل حبّي بكلامي، وأترك، بعد أن شخْت،

القول لمن لم يشخ بعد، لمن له ذاكرة حيّة، بينما ذاكرتي شبه ميتة، تكلّمي يا كاترين، يا عزيزتي، عما جرى لك، بعد أن قلت لك، تلك الكلمة التي قفزت من قلبي إلى لساني، لا أدري كيف، وبأيّ دافع، منذ رأيتك، وتلاقت، كأنما للمرة الأولى، عينانا!

قالت كاترين:

ـ كنت خاطئة..

قاطعتها البومة:

ـ وما زلت خاطئة، وهذا نعرفه! إننا، هنا، في قاعة وليس في كنيسة، وليس لدينا كرسيّ اعتراف، تجلسين عليه وتعترفين، فنقول لك: «انهضي مغفورة خطاياك!» هذه مسألة من اختصاص غيرنا، أولئك الذين يغفرون بعد سماع الاعتراف، وبعد إظهار الندم والتوبة من المعترف، لكنك، أنت يا كاترين، اعترفت وانتهى الأمر، وأنت غير نادمة وغير تائبة، بذريعة أن الخطيئة حبّ، وأن الحبّ فوق الخطيئة، وهذا من العجب، حتى لا أقول إنه من الكذب، لذلك نُدينك وأيدينا على قلوبنا، وضمائرنا في غاية الراحة، والإدانة، هنا، مزدوجة: على خيانتك وعلى سحرك، وكلاهما معاقب بحكم القانون، لأنهما يلحقان الضرر بالغير، وما نريد معرفته هو الآتي: أين دعبس الفتفوت الذي يكره نفسه، وهو على حق في هذا الكره؟ إن الرجوع عن الخطأ فضيلة، ودعبس، كما قال، كان سخيفًا، ثرثارًا، ماجنًا، بذيئًا، وقد حاول الإقلاع عن هذه المعايب فما أفلح، لذلك لام نفسه، عاتبها، قاصصها، وأخيرًا كرهها، لاعتقاده، وهو مصيب، أنه يكره نفسه

يطهّر نفسه، وهذه فضيلة له، فلماذا عوقب على فضيلته بالسحر!؟ ولماذا، يا كاترين، مسخْته!؟ ثم لماذا يُمسخ الفاضل، إلى آخر غير فاضل، إلى آخر يحبّ نفسه إلى حدّ النرجسيّة، فيدّعي بطولة زائفة في البحر، وبطولة زائفة في البرّ!؟ صالح حزّوم هذا مهرّج، زانٍ، مدان، وأنت تسعين إلى غسله من أوضاره، وإرغامنا على سماع قصّة حبّه، أي قصة خيانته لزوجته، هذه التي تعافها النفس الكريمة، وتأباها الضمائر الحيّة!؟

تساءل الحاضرون: عن أيّ نفس كريمة، وضمائر حيّة تتحدّث هذه البومة!؟» كان تساؤلهم نظرات متبادلة ليس إلا، وعلى وجوههم ارتسم قرف واشمئزاز، وشيء من غضب أيضًا! إنها المراوغة ذاتها، والكلمات الخبيثة، الخبيثة، ذاتها، والسمّ ذاته، في دسم منطق مغالط، مكرور، قيل وقيل وقيل، وجرى الردّ عليه مرارًا، دون فائدة، دون خجل، وباصرار على قلب الأبيض إلى أسود، في مغالطات محلاّة بالعسل المرّ، القصد منها بهرجة، لا تخفي تزاويقها كل ما تستبطن من قبح، إلاّ أنّها تبقى بهرجة، يتلطّى باطلها وراء ألفاظ مفرغة من معانيها، مثل الشرف، والأمانة الزوجية، ورفض الحبّ لأنه «خطيئة»، وتجميل الكره لأنه «فضيلة»، والغيرة على دعبس، والتباكي على غيابه، والإزراء بصالح حزّوم، مع نكران بطولته، وتحقير أبهى عواطفه، وكلّ هذا الختل يتطلّب ردًا، لو ينفع الردّ، أو لو كان، مثلاً، يُقنع، فينهي مهزلة الإلهاء التي اعتمدها الوطواط والبومة!

«ثم من قال، كذلك تساءلت العنقاء، إن حبل الكذب قصير!؟ لا! حبل الكذب ليس قصيرًا، وقد أدرك، هذه الحقيقة، غوبلز، فكان

شعاره: اكذب، اكذب، اكذب، ولا بد، مع التكرار، أن يصير الكذب صدقًا، وقد اقتضى فضح هذا الكذب، سنوات من الحرب الدامية، وعشرات الملايين من الضحايا، والنهاية معروفة.. اما نهاية تلفيقات البومة والوطواط فانها غير معروفة، وسنقع في الشرك المنصوب لنا، اذا نحن استُدرجنا إلى الأخذ والردّ.. الأفضل أن نتابع القصّة، وسنتابع «لذلك أقول: ـ ذكرت، يا كاترين، أنك خاطئة، وبعد..؟

قالت كاترين:

ـ نعم! أنا خاطئة، لكنني لست مريم المجدلية، حتى أجد من يقول لمن يلاحقونني: «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر!».. لقد رُجمت، ورُجمت، وكانت الأحجار تتساقط على جدران كوخي الذي هو من خشب وصفيح، بعد أن مات زوجي، وذقت مرارة الجوع، والعري، والاتّهام، وكذلك الملاحقة، للمرأة الأرمل التي هي أنا.. وبعد صبر طويل، وتحمّل شتاء أطول، بعت جسدي برغيف وثوب، وطلبًا للسترة تمويهًا، تزوّجت العجوز «حبّابا» الذي لا ينفع ولا يضر، وبدلاً من أن يقدّم لي رغيفًا، كان عليّ أن أقدم له أنا هذا الرغيف، وبقيت كذلك إلى أن وقع الاعصار، وكانت معركة الصراع معه لانقاذ المراكب، وعندما انقذها، بأعجوبة، صالح حزّوم، وقال لي تلك الكلمة، وجدت الذي كنت أبحث عنه، وجدت مَنْ قال لمن يلاحقونني «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر!» وفعلاً لم يجرؤ أحد، منذ ذلك اليوم، أن يرميني بحجر!

قال الوطواط:

ـ ولكنك، يا كاترين، خنت هذا الذي أنقذك، ومع أعدائه أيضًا، فهل تنكرين!؟

أجابت كاترين باستغراب:

ـ خنت!؟

أضافت بعد توقّف:

ـ لا! لم أخن! أنا لم أشأ، الحظّ هو الذي شاء، فماذا في وسع الإنسان أن يفعل أمام مشيئة الحظ؟ إنّه قدري! لوموا، إذن، قدري إذا كان لا بدّ من اللوم، فقد نشبت معركة، في مدينتنا مرسين، بين العرب والأتراك، واستبسل فيها صالح، وردّ العدوان عن «حي الشرادق»، لكنه، هذه المرة، دفع الثمن سجنًا لخمس سنوات، وعقب سجنه عادت الأحجار تتساقط علي، وعلى كوخي، وبعد ذلك استباحه بعض الأتراك واغتصبوني، فكنت الضحيّة من جديد، الضحيّة التي سقطت غدرًا، ولم يشأ صالح، بعد خروجه من السجن، أن يتفهّم وضعي، فطردني من مرسين، حتى لا يقتلني كما قال، وليته قتلني، اذن كنت استرحت!

قال صالح:

ـ نعم! أنا المذنب وكاترين هي البريئة، وقد ندمت، الا أن الندم لا ينفع بعد فوات الأوان.. كان عليّ ألاّ أتهوّر، أن أستمع إليها، أن أقدّر ظروفها، إلاّ أنّ العدوّ هو العدوّ، وسماعي بأنها «كانت لأعدائي» أعمى عيوني، فكان الذي كان، وكما قالت كاترين تمامًا، وبصدق!

أضاف صالح بعد توقّف، بعد تردّد، وبعد أن أدار بصره في مَنْ حوله:

- أنا أيضًا لم أشأ، ولكن الحظّ شاء! لقد تزوّجت بغير حبّ، وعشت بغير حبّ، وما كنت أحسب أن الحبّ ينتظرني وأنا في الخمسين من عمري، وأن عواطفي التي كَبتُّها، بعثرتها، أضعتها، ستنتقم لنفسها هذا الانتقام الرهيب، فتفرض، ولا تفرض، علي هذا الحبّ العظيم، الذي زعزع كياني كلّه! أذكر أنني التقيت، في خمّارة بمدينة الاسكندرية، رجلاً يونانيًا، يكبرني قليلاً، وكان، قبل أن يترك البحر، أو يتقاعد منه حسب تعبيره، بحّارًا مثلي، وخلال حديثنا عن البحر، وحياة البحّارة، تطرّقنا إلى الحبّ، بشكل جانبيّ، وعفوي تمامًا، وفجأة سألني:

- ما هي أغرب حادثة حبّ في حياتك؟

قلت له:

- يا ريّس اسطفانو، أنت بحّار، وأنت قبطان، ولك تجاربك الكثيرة في المحيطات والمرافئ وتعرف أن قدر البحّار أن يرحل أبدًا، وأنه قد لا يعود إلى مرفأ واحد مرّتين، حتّى في البلد الواحد، لذلك فإنه طير عابر، مهاجر، كجميع الطيور المهاجرة، العابرة للقارّات، سالكة مسارات طيران لا تكون ذاتها كل مرة، فمن أين له أن يتعرّف إلى أنثى طير مقيمة؟ وحتى لو تعرّف إلى هذه الأنثى، فإن تعارفهما يكون عابرًا، لا يكفي لنشوء حبّ متبادل، يحتاج إلى وقت كي ينشأ، ويتنامى، ويتعاظم؟

ابتسم القبطان اسطفانو وقال:

ـ تشبيهك البحّار المبحر دائمًا بالطير المهاجر أبدًا، تشبيه جميل، فيه رمزية جميلة، وأنت على حقّ في قولك إن الحب يحتاج إلى وقت، كي يولد ويكبر، ولكنك نسيت، أو تناسيت، أن الحبّ يكون من النظرة الأولى أحيانًا، فما قولك في هذا؟

ـ قولي إنّك على حقّ، فالحبّ يكون من النظرة الأولى أحيانًا، ويكون على السمع وحده أحيانًا أخرى، والشاعر العربيّ يقول، وكذلك الأمثال العربية: «الأذن تعشق قبل العين أحيانًا» غير أن هذا يحدث نادرًا.

ـ لكنه يحدث!

قال ذلك القبطان اسطفانو، وهو يشرب نخبي من البيرة المثلّجة، وبعد أن تناول بعض حبّات الفستق السوداني، ونظر إليّ في عيني، أضاف:

ـ هذا الحبّ النادر حدث معي مرة، فرجّ نفسي رجّاً قوياً، إلى درجة أنه أنساني الاسكندرية، وعائلتي فيها، فرغبت في البقاء، والإقامة، وتطليق البحر، وهجران زوجتي.. حدث ذلك في أثينا، عندما كانت سفينتي قيد الاصلاح في مرفأ هذه المدينة الشهيرة، وكان اسم المرأة التي أحببتها كل هذا الحبّ ايزابيلا.

ـ امرأة يونانية طبعًا!

ـ لا! امرأة إيطالية، متزوّجة من يوناني!

ـ وبعد ذلك؟

ـ نشب صـراع في ذاتي، بين حـبّي لايزابيـلا، وحـبّي للبـحـر، فـانتصـر حبّ البحـر، إلاّ أنني كنت أعود إلى ايزابيـلا كلمـا سنحت الفرصـة، واقضـي إجازاتي السنويّة معها، إلى أن فرّق الموت بيننا، وكان مـوتها ضـربة قاصـمـة، لم اتوقّعـها ابدًا.. لقـد مـاتت ايزابيـلا بحادث سـيارة يا قبطان صـالح! وكـان حزني عليـها شـديدًا جدًا.. إنني، الآن، ومعك يا قبطان، اشـعر بأنني على مـا يرام، رغم الذكرى الأليمة، لذلك أرغب بمزيد من البيرة!

ـ حتى تنسى!؟

ـ حتى اتذكّر!

ـ ١٢ ـ

تابع صالح حزّوم كلامه فقال: جاءت البيرة فشربنا، القبطان اسطفانو وأنا.. شربنا صامتين أولاً، احترامًا لذكرى ايزابيلا التي رحلت، ثم انقشع جوّ الصمت الكئيب، وعدنا إلى الكلام على البحر، وعلى أحداثه الغريبة، وعلى الإبحار، في رحلات قصيرة أو بعيدة، وما يصادفه البحّار خلال هذه الرحلات، من متعة في الطقس الهادئ، المريح، والسفينة تنطلق مع الريح الرهوة، يشقّ مقدّمها الماء، كما يشقّ المحراث التربة الليّنة، بيسر وسهولة، وعن شقاء البحّار عندما تهبّ العاصفة، ويواجه الخطر المميت، في رعب شديد، والسفينة يتلاعب بها الموج العاتي، كما يتلاعب الأطفال بكرة من مطّاط، ويصبح الموقف على حدّ الفصل، بين غرق أو نجاة...

وفي التفاتة مباغتة، سألني القبطان اسطفانو:

ـ إذن لم تحبّ، بعد، يا قبطان صالح؟

قلت وأنا أتفرّس وجهه الأحمر، ذا القسمات المليحة، وجبينه الوضّاء، المتغضّن بحكم الزمن، وتقاطع ملامحه القاسية، التي رسمتها أهوال البحر التي عاشها:

ـ لم أحبّ، بعد، يا قبطان اسطفانو!

ردّ بنبرة حاسمة:

ـ انتظر وستحبّ!

ـ بعد هذا العمر!؟

ـ لأنك في هذا العمر!

ـ محال!

غضب القبطان اسطفانو من جوابي، فكّر، تمهّل، وسأل بسخرية:

ـ تحسبني سكرت!؟ لا! لم أسكر، ولم أخرف، إنني في كامل قواي الجسديّة والعقلية!

وبعد أن ضرب الطاولة بقبضة يده الخشنة، فاهتزّ كل ما عليها، أضاف:

ـ ستحبّ، يا قبطان صالح، يعني ستحبّ، وبعد هذا العمر، ولأنك في هذا العمر، سيكون حبّك من النوع العظيم، أو النوع المجنون.. إنني أعني ما أقول!

أضاف بعد توقّف لاجتراع كأس البيرة:

ـ النساء الناضجات، يا صديقي، يحببن الرجال الذين تجاوزوا الأربعين، هؤلاء يملكون التجربة، الخبرة، الدربة في إثارة النساء، وفي تهيئتهنّ جيدًا قبل ممارسة الحبّ، وعلى العموم، وحسب رأيي الشخصي، فان المرأة، في أيّ مكان من العالم، تفضّل ثلاث خصال في الرجل: الكرم، الشجاعة، المكانة الاجتماعية، وطبعًا فإن الفحولة

مطلوبة، ولكن ليس لذاتها، والمال مطلوب، لكن ليس لذاته، والحبّ هو أساس في علاقة المرأة بالرجل، ومع الحب الإخلاص، الوفاء، الصدق، إلا أن التهالك، من أي من الطرفين، يسيء إلى الحبّ، يجعل المتهالك، أو المتهالكة، في موضع الخفّة، وهذا يؤدّي، تدريجيّاً، إلى نقص في الاحترام، والإنسان غير المحترم غير محبوب، مهما كانت بداية حبّه ملتهبة، أما آفات الحبّ القاتلة فهي كثيرة، منها، أو في مقدمتها: الكذب، التبجّح، البخل، وعدم إعطاء المرأة الوقت الكافي، والاهتمام الكافي، مهما تكن مشاغل الرجل.

قلت بعد تفكير بما سمعت:

ـ في كلامك، يا قبطان اسطفانو، ما هو معروف، وما هو غير معروف..

قهقه القبطان اسطفانو وقاطعني قائلاً:

ـ هوْ! هوْ! أنت، يا قبطان صالح، على حقّ، ما قلته معروف من قبل كل الناس الذين لهم تجارب، وأنت لك تجارب كثيرة، مثلي، أو ربما، أفضل مني.. أنا لا أنجّم، وأفهم بالبحر بأحسن مما أفهم بالبرّ، لكن المرأة، هذا المخلوق العجيب، كتاب ضخم، لا يستطيع أيّ رجل، ومهما قرأ كتابها، أن يقول: «لقد ختمته!» كتاب المرأة هو كتاب الحياة، فهل يزعم أحد، الا اذا كان فشارًا، أنه ختم كتاب الحياة؟ نحن نتحدث على كأس، نتسلى، نُفَضْفِض، لكننا، أنت وأنا، نعرف أشياء لا يعرفها الآخرون، فاذا سألتني: «كيف؟» أجبتك: «لأننا بحّارة!».

قلت:

ـ طبعًا! طبعًا! البحّار يطوّف كثيرًا، يعرف، اذا كان قديمًا في البحر، العالم، من خلال احتكاكه بالناس.

قاطعني:

ـ الناس لا يغنون عن الكتب..

ـ هذا صحيح!

ـ إذن الكتب والناس، هذه هي المسألة، أنت قبطان وتعرف قانون البحر، سواء في قلب المحيط، أو في المرفأ.. ثم ماذا في المرفأ؟ خمّارة وامرأة، وهذا كل شيء، وماذا في المحيط؟ البعد عن اليابسة، ثم البعد أكثر، الاشتياق، والحنين، والرغبة في فتح الصدر، بعد حرمان يقاسيه البحّار، وبعد خوف، وهو يواجه العواصف والأعاصير، ويحسب أنه هالك لا محالة، هل أنت معي؟

ـ معك تمامًا!

ـ إذن العودة من اللّجّة إلى الشاطئ هي الخلاص، لذلك قالوا: «شاطئ السلام!» عندما ينزل البحّار إلى الأرض، بعد الشدّة في البحر، يكون قد ولد من جديد، ومن حقّه أن يستمتع، إنما المتعة ليست واحدة، فلكل مرفأ نكهة خاصة، ولكل امرأة مرفأ نكهة خاصة، وما أردت أن أقوله هو أن البحّار، أو القبطان، مهما عرف من نساء البحر أو البرّ، من نساء المرافئ أو نساء المدن، من نساء الحضر أو الغجر، فإنه لا يعرف، ولا يمكن أن يعرف المرأة بصورة كاملة أو نهائية.. خذ هذا في حسابك يا قبطان صالح.

قلت ضاحكًا:

ـ لم يبق في دفتر حساباتي، يا صديقي، مكان للأخذ!

التقط القبطان اسطفانو النكتة، قهقه على طريقته، طلب زجاجة أخرى من بيرة ستيلا وقال:

ـ إذا كنت قد أغلقت دفتر الأخذ، فافتح، بدورك، دفتر العطاء!

أجبت وأنا أجاريه في المزاح:

ـ تحسبني من تجّار الدفاتر!؟

ردّ ببديهة حاضرة:

ـ لا! من تجار الشنَط!

ـ أنت، يا صديقي، يونانيّ قحّ، واسكندرانيّ قحّ، وابن خالتك قحّ أيضًا!

شرب نخبي مسرورًا وسأل:

ـ كيف عرفت أنني ابن خالتي؟

ـ من حديثك الذي يغسل الهمّ عن القلب!

ـ وأيضًا!؟

ـ من طريقة شربك البيرة، وحديثك عن المرأة!

نظر إليّ وفي عينيه احمرار ضعيف، عكر، وقال من فوره:

ـ كل هذا صحيح، وكل هذا مهمّ، لكنك نسيت ما هو أهمّ!

ـ وما هو هذا الذي أهمّ؟ أنا، مثلك أيضًا، أفهم في البحر لا في التنجيم!

قال:

ـ اسمع إذن! أنا ابن خالتي مظبوط.. تعرف لماذا؟ أنا أقول لك: خالتي كانت كذا، وأنا ابن كذا!!

أضاف وهو يستقرئ ملامحي:

ـ لا تستغرب، كلّنا أولاد «أوادم!» نحن البّحارة..

قاطعته ضاحكًا:

ـ ولماذا الاستغراب يا قبطان؟ كلّنا، البحّارة وغير البحارة، أولاد «أوادم» بطريقة ما، ولكن غير طريقة البحّارة الانكليز! وغير طريقة البحّارة اليونانيين!

جاراني في الضحك، وكان السكر قد لوّحه، فرفع كأسه قائلاً:

ـ في صحّة خالتك!

قلت:

ـ أنا لست ابن خالتي مثلك!

ـ في صحة أمّك، يا ابن أمّك أنت!

ـ أنا ابن أبي يا قبطان، فلا تكن يونانيًا سيّئًا، ولا تكن مصريًا مُدَمْيطًا!

رازني القبطان اسطفانو، حاول أن يسبر أعماقي، أن يكتشف ما تحت لدي، ونوع القلب الذي أحمله! لم يكن غاضبًا، ولم يكن راضيًا بالتعريض بالبحّارة اليونانيين، وربّما أثرته لأنني نسبته إلى دمياط، مدينة الاجرام في مصر، لذلك قال بنبرة غير وديّة:

ـ بعد الذي قلته يا قبطان صالح، لم يبق الا اختبار القوة بالمكاسرة، حتى لا نلجأ إلى شكل آخر من الاختبار!

أجبته لا مباليًا:

ـ لك أن تختار الطريقة التي تناسبك!

أزاح الزجاجات الفارغة، والأقداح، وصحن الفول السوداني، ركّز كوعه على الطاولة وقال:

ـ هيّا!

فعلت مثله، كان عتريسًا، ضخم القامة، بارز عضلة الساعد، وكان، كما لاح لي، معتدّاً بقوّته، وبكونه قبطانًا، وهو سريع الغضب، سريع الرضى، يرغب أن يُهاب، وأن يُظهر بأسه وسطوته، إلاّ أنه، من جهة أخرى، كان بحّارًا شريفًا، يتحلّى بمزايا القبطان الحقيقيّ، يراعي قانون البحر، وأخوّة البحّارة، وما أن وضعت كفّي في كفّه، حتى استجمع كل قوته في كفّه وساعده، باذلاً جهده في لَيِّ ذراعي دون جدوى، وأمام الذين تجمّعوا حولنا من زبائن الخمارة، وأغلبهم من البحّارة اليونانيين الذين استوطنوا الاسكندريّة، لم يكن من الملائم كسر شوكته، ولم يكن ملائمًا أن تنكسر شوكتي، فلجأت إلى لعبة حفظ ماء الوجه، فقلت وساعدانا في نقطة الاستقامة بعد:

ـ يكفي هذا يا صديقي، أعترف أنك قويّ الساعد، وأنك قبطان مجرّب، وتحترم زمالة البحر!

قلت ذلك بصدق، وما أن توقّفنا عن المكاسرة، حتى نهضتُ فقبّلته، وكان صادقًا بدوره، فاحتضنني وقبّلني، وضحكنا معًا،

وصفّق الذين حولنا، فصحت بالكرسون: «بيرة للجميع، على شرف الريّس اسطفانو!» وبعد أن شربوا نخبنا تفرّقوا، فالتفت إليّ القبطان وقال:

ـ لو لم نوقف المكاسرة، من كان يغلب في رأيك؟

ـ أنت!

لم يعلّق بشيء. كان ذكيًا بما فيه الكفاية ليعرف أنه لم يكن الغالب، وأنني تداركت الموقف بشكل لائق، لهذا قال، بعد هنيهة من الصمت والتفكير:

ـ لا بد لنا جميعًا من تقبّل حكم الزمن!

ـ ومن الإقلال من الشرب، حتى لا نرهق أنفسنا.

ـ وإذا كنّا نشرب لننسى؟

ـ أفضّل أن نتعود النسيان دون الإكثار من الشرب.

ـ هذا حكي!

أضاف:

ـ كنت حزينًا جدًا قبل أن تأتي، وقبل أن نتعارف.. طلّقت، منذ أيام، زوجتي!

فوجئت بالنبأ، ملت إلى الصمت احترامًا للحزن الذي اعتراه مجدّدًا، تساءلت عما إذا كان نادمًا على فعلته، وأن ندمه هو الذي يحزنه، وكي أخفّف عنه قلت بعد وقت قصير:

ـ هذا يحدث يا قبطان!

أجابني مهمومًا:

ـ ليس في مثل عمري.. أنا قبطان متقاعد كما ترى، وزوجتي إيلين تصغرني قليلاً فقط، أي أنها كهل مثلي، وأولادنا كبروا وتزوّجوا، فلم يعد في البيت الا هي وأنا، وشراكة العمر وحّدت بيننا، صار أحدنا محتاجًا للآخر، والذي حدث بسيط، لكنّني أنا المخطئ، لماذا، يا صديقي، بعد تقاعدنا من البحر، نصرّ على عيش حياة البحر التي صارت وراء الزمن؟

سألته:

ـ هل عملت في البحر طويلاً؟

ـ منذ أن كنت فتى، وبغير انقطاع..

ـ العادة طبيعة ثانية، وقد اعتدنا، أنت وأنا، حياة البحر، ومهما نحاول، فان القطع مع الماضي وعاداته أمر صعب جدًا، لذلك أفهمك جيدًا، وأنا، تقريبًا، في مثل وضعك.

ـ مطلّق!؟

ـ لا! هناك ما هو أسوأ من الطلاق: الخيانة الزوجية!

ابتسم القبطان اسطفانو وقال بلا مبالاة:

ـ هذا لا شيء!

ـ تظنّ!؟

ـ بل أنا على يقين، ليس من بحّار إلا ويخون زوجته، والزوجة تتفهم ذلك، وترضى به، لأنه من طبيعة حياة البحر..

قلت راغبًا في التخفيف من تأنيب الضمير:

ـ أن تتفهّم زوجة البحّار خيانة زوجها فهذا مفهوم، ولكن أن ترضى بها فتلك مسألة أخرى.

ردّ بلامبالاته نفسها:

ـ بلى! تعرف زوجة البحّارخيانة زوجها، وترضى بها، ولكن لماذا تسمي هذا خيانة!؟

ـ وما هي إذن؟

ـ لا خيانة! أنت تعرف المثل القائل: «الداخل إلى البحر مفقود والخارج منه موجود!» نعم!؟ تعرفه! إذن جيّد، زوجة البحار تبقى في حالة قلق، ما دام زوجها في البحر، ما دام مفقودًا، وهي لا تفكّر، وحتى إذا فكرت تتعوّد، تتفهّم أن زوجها مضطرّ، بعد أسابيع من البعد عن اليابسة، أن ينزل في أول مرفأ ترسو فيه سفينته، أو مركبه، بحثًا عن التعويض.. تعويض ماذا؟ تعويض الحرمان الذي عاناه، وهو بعيد، يمضغ ذكرياته، مواجهًا الأخطار، معانيًا الوحدة، والرعب، وحتى فقدان الأمل، أحيانًا، بالنجاة من العواصف، فما تنتظر منه أن يفعل؟ أن يتوجّه إلى الكنيسة؟ إلى الدير؟ إلى جمعية نشر الفضيلة!؟ لا! هي تعرف، بإحساس الأنثى، وبذكائها الفطري أو المكتسب، أن زوجها يذهب أولاً إلى الخمّارة، ويبحث، ثانيًا، عن امرأة، فاذا كان شاذاً، يبحث عما هو أدهى، وعندما يعود إليها، بعد طول انتظار، هل تتوقّع أن تسأله، أو تستحلفه، بأنه لم يعرف غيرها؟ وإذا كان، بحكم الضرورة، قد عرف غيرها، فهل يكون قد خانها؟

وإذا كانت هي لا تسأله، وتقدر ظروفه الصعبة، فهل يقدّر، هو أيضًا، ظروفها فلا يسألها؟ أترك هذا لفطنتك يا قبطان صالح، وكل ما عدا ذلك فهو سخف، صدّقني!

قلت:

ـ شرحك، يا قبطان، جيّد، وأنت أنصفت البحّار، وبرّأته من الخيانة..

قاطعني:

ـ أنا لم أبرّئ أو أدن، ولم أنصف أو أغبن، تحدّثت ببساطة، عن البحر وقانونه بالنسبة للبحّار، ما دام بحّارًا، ولكن عندما يتقاعد، أو يعتزل حياة البحر، أو يستقيل منه، لسبب من الأسباب، فإنّ الأمور تختلف، ومن هنا ينشأ الخلاف.. العادة طبيعة ثانية، كما قلت يا قبطان صالح، إلا أنّ الذي يعتزل البحر، عليه أن يعتزل عاداته، وهذا ما طالبَتْ به زوجتي، وهي على حقّ، وهذا ما لا أستطيعه، وأنا على حقّ أيضًا.. ماذا ترى أنت؟

ـ المسألة معقّدة!

ـ وما هو الحلّ؟

ـ لا أدري، ولكن.. ربما.. ربما يكون من الأفضل أن تتفاهما.

ـ حاولنا ذلك، تردّدت، فكرت، أعدت التفكير، دونما فائدة.. ايلين لا تغار عليّ، زمن الغيرة ولّى، إلا أنها تريدني إلى جانبها، في البيت لا في الخمارة، وماذا في البيت بعد أن أصبح فارغًا من الأولاد؟ عجوزان ضامران، أبلهان، شائبان، دون أسنان.. أهذه حياة!؟ قل أنت!

فكرت في قضيّة الشيخوخة هذه، غالبت نفسي كيلا أبتسم، فالصورة الطريفة الكاريكاتورية، التي رسمها للإنسان، للمرأة خاصّة، حين تشيخ، حين يصير صدرها خشبًا، وفمها فوهة سوداء، هي صورة تدعو إلى الأسى، وكذلك إلى الإشفاق، لكنها تدعو، أيضًا، إلى الابتسام، حتى لا أقول الضحك، وهو شرّ البليّة، لذلك قلت:

ـ أنت تبالغ يا قبطان، فالشيخوخة ليست بهذا القبح، وليس البيت فارغًا ما دام هناك الأولاد والأحفاد، وفي وسعك أن توفّق ما بين البيت والخمارة، فتعطي من وقتك لزوجتك ما يجعلها سعيدة، وتأخذ لنفسك من الوقت ما يجعلك سعيدًا أيضًا، ثم لا بدّ لنا أن نرضى بحكم العمر، وأن نعرف أن لكل مرحلة من عمرنا حلاوتها..

قاطعني القبطان اسطفانو مهتاجًا، صارخًا:

ـ حلاوتها!؟ للشيخوخة حلاوة!؟ عن أيّ حلاوة تتحدث أنت!؟ وماذا اذا قلت لك أن المرأة تصبح، في الشيخوخة، مخلوقًا لا يطاق، وجهًا وجسدًا وحركة وكلامًا؟ المرأة، يا قبطان، تكون نعمة في الصبا، وتصير نقمة في الكبر!

قلت مازحًا:

ـ أنت في نقمة الآن، أو هذا ما تشعر به، كان الله في عونك! لكن اسمح لي أن أكون صريحًا معك، وأن اقول لك إنك فاسق، كما أيّام زمان، أيّام البحر والرياسة، وأن ايلين، زوجتك، لم تعد قادرة على إشباع فسقك، لذلك طلّقتها!

قال بغير مواربة:

ـ نعم! هذه هي الحقيقة، المرأة تشيخ قبل الرجال، حتى ولو كانت أصغر منه سنًا، فماذا يفعل الرجل في مثل هذه الحالة؟ يصبر، يصبر، وبعد؟ لا بدّ له من حلّ، فإمّا أن تراعي زوجته العجوز وضعه، وحاجته إلى امرأة خارج البيت، وإما الطلاق، ولأن ايلين، في صحوة الشيخوخة، باتت كلبيّة الغيرة، فقد طلّقتها وأنا غير نادم!

ـ هل تصغرك ايلين كثيرًا، أو لنقل، بشكل معقول، عشر سنوات مثلاً؟

ـ بخمس سنوات فقط، وهنا البليّة.. هذه خطيئتي، وهي خطيئة عمري، كان عليّ أن أفكر بهذه الناحية، فالفرق بين الرجل والمرأة المتزوجين، حسبما قرأت وسمعت، يجب ألا يقل عن عشر سنوات، عشر سنوات كحدّ أدنى!

قلت محاولاً تهدئة القبطان:

ـ خمس سنوات فرق جيّد بين عمريكما، هذا يعني..

قاطعني القبطان صارخًا:

ـ يعني الموت! زوجتي ماتت، من ناحية الواجب الزوجي، منذ عشرين سنة، فماذا أفعل بنفسي، أنا الذي لا أزال قويًا؟ أدخل الدير، ارتسم كاهنًا، أخصي نفسي؟ كلّ هذا غير وارد، وفي مثل هذا الوضع هناك حلاّن، أن أتخذ عشيقة أو أنتحر بالشراب انتحارًا بطيئًا، وها أنا أفعل، لكن تضحيتي هذه لم تقابل من ايلين بما يجب، وبدلاً من الكياسة، القناعة، التفهّم لوضعي بشكل ما، راحت تنكّد علي حياتي، إلى أن فرغ صبري فطلّقتها!

فكرت بما قاله القبطان اسطفانو، توقّفت عند نقطة فارق العمر بين الزوجين، وعن كفّ المرأة، في سنّ معينة، عن الرغبة في أداء واجبها الزوجيّ، ثم الامتناع عنه، بشكل نهائي تقريبًا، وعن خطيئتي التي لا تغتفر، بزواجي من كريمة وهي في مثل عمري، وبما ينتظرني عندما أتقاعد من البحر مثل القبطان اسطفانو، فنهضت مغمومًا، وقلت له:

ـ إلى اللقاء يا قبطان! كانت الجلسة معك ممتعة، وقد استفدت كثيرًا مما قلته.

قال القبطان:

ـ أنا مريض يا صديقي.. مرضي نفسيّ من نوع غريب، لا أعرف ماذا أريد من الدنيا، هل هذا بسبب الطلاق؟

تأمّلته بعد أن وقف لوداعي، شعرت بحزن لأجله، كانت نهاية جلستنا كئيبة، رغم أنه، كما بدا لي، غير آسف على الطلاق، وأنه يحاول إغراق همومه في سطل من البيرة التي كان يعبّها عبّاً، وقد تصرّف معي بلياقة تخلّلها بعض النزق، وعندما ناديت الكرسون لدفع الحساب، عنا نحن الاثنين، لم يمانع، وقد اكتفى بالقول: «أنت ضيفي، وقد جلست إلى مائدتي، وصار بيننا خبز وملح كما يقولون، وأن يدفع ضيفك عنك فهذا، بصراحة، ليس من شِيَم المضيف، فكيف اذا كان قبطانًا ويونانيًا؟ إلا أنني، يا صديقي، لا أملك مالاً، أو لا أملك من المال كي اتصرف بكفاية، وكما يليق بقبطان سابق!» ربّتُ على كتفه، قلت له: «أفهمك تمامًا يا قبطان، وآمل أن تكون زمالة

المهنة شافعًا، لنغلق هذا الموضوع، غير الجدير بالذكر اصلاً!» ثم تحدّثنا في أمور شتّى، وها أنا، وقد حان وقت انصرافي، أسمع منه شكاة تنبض بالأسى، يقول عنها إنها «مرضي النفسيّ» وأنه لا يعرف ماذا يريد من الدنيا! سألته واليد في اليد:

ـ هل حقاً أنت لا تعرف ماذا تريد يا قبطان؟ وهل تجهل مرضك النفسيّ!؟

تحيرت دمعة في عينيه وقال:

ـ عندما لا تستطيع تحقيق ما تريد، يكون من الأفضل الادّعاء بأنك تجهله!

ـ ومرضك النفسيّ؟

ـ هذا لا دواء له، ولا شفاء منه.

ـ وإذا قلت لك إنني أعرف هذا المرض، وأن الشفاء منه بسيط جدًا!؟

ـ العودة إلى زوجتي؟

ـ بل العودة إلى البحر!

ـ آه! هذا صحيح، العودة إلى البحر!

أضاف وهو يشدّ على يدي:

ـ لماذا قلت ذلك؟ لماذا أثرت شجوني؟ تحسبني لا أعرف؟ البحر! نعم! البحر! ولكن زمن البحر مضى يا صديقي، أصبحت، من هذه الناحية حُطامًا، كالمركب الذي شاخ، انعطب، تخلّع، ولا سبيل إلى إصلاحه!

قلت:

ـ الإنسان غير المركب.. العودة إلى البحر ممكنة.

ـ كي أشتغل معاون طباخ، أقشّر له البصل والبطاطا؟ لا! القبطان اسطفانو لم يُخلق لهذا.. إمّا أن أكون في غرفة القيادة، أو على هذا الشاطئ، ولا خيار ثالث.. لم أعد صالحًا للقيادة، لذلك أحالوني على التقاعد برغمي.. مصيري تقرّر يا صديقي.. أنا هو المركب المرميّ على الشاطئ.. شكرًا على كل شيء، وإلى لقاء.. اذا مررت بالاسكندرية تجدني هنا، في الخمارة!

ـ سأمرّ، وسأجدك حتمًا!

عانقني وقال:

ـ ربّما! ربّما! مع السلامة..

افترقنا، سافرت، سافرت، وخلال السفر الطويل، كانت ذكرى لقائي بالقبطان اسطفانو تسافر معي، وكلماته «أنا هو المركب المرميّ على الشاطئ» ترنّ في أذني، وكنت أتساءل: «ترى يكون مصيري، كريّس، كمصيره!؟» وعندما عدت، بعد عام ونصف تقريبًا، إلى الاسكندرية، قصدت الخمارة وسألت عنه، فأجابني بحار عجوز:

ـ القبطان اسطفانو رحل..

ـ في البحر؟

ـ لا! في طريق اللاعودة، انتحر بكل بساطة!

ـ ١٣ ـ

قالت كاترين الحلوة لصالح حزّوم:

ـ ولكنك، أنت، لم تنتحر يا حبيبي، وهذا جيّد، إنه انتصار للحياة على الموت، وللعقل على الجنون!

ردّ صالح:

ـ بلى! يا كاترين، يا حبيبتي، انتحرت ولكن بطريقة أخرى، وعلى أيدي الغير.

قالت العنقاء:

ـ لشد ما أحزنتني قصّة القبطان اسطفانو، ميتته كانت مأساوية جدًا!

أجاب صالح:

ـ وكانت مريحة جدًا، عاد فيها الفرع إلى أصله.

قالت السوسة:

ـ نعم! عاد البحّار إلى البحر.

قالت الأفعى:

ـ عاد إلى القاع ولو بالروح، وهناك هنئت روحه إلى جانب أرواح البحّارة إخوته!

صات الوطواط:

ـ اخرسوا جميعًا! قصة القبطان اسطفانو ملفّقة كلها، الغاية منها التبرير.. طبعًا نهايته كانت جيّدة، كانت مثالاً لا يُحتذى لتحدّي الحياة، والرحيل مع الموت الذي هو رفيق سفر طيّب، إلاّ أن صالح حزّوم هذا، حبيب كاترين هذه، اخترع، بحبْك جيّد، قصّة تبريريّة، ملخّصها أن البحّار كالفنان، كلاهما يتصرّف بطريقة غير معقولة، وهو معذور، في ذلك، لأنه فوق المعقول والمتعارف عليه، وأن زوجة البحّار لا حقّ لها في الاعتراض اذا خينت، ما دامت الخيانة كانت اضطراريّة، متوافقة وقانون البحر! لا تفهموني خطأ! لست ضدّ الخيانات، من كلّ الأنواع، ولست مع الوفاء، من كل الأنواع أيضًا، فالوفاء حمق، بل أكذوبة، إلاّ أنّ صالح حزّوم، هذا «البطل المزيّف»، يرمي إلى إقناعنا بأنّ تصرّف زوجته كريمة، في تسهيل لقائه، وفي رضاها عن حبّه لكاترين، كانت تسلك السلوك الطبيعيّ لزوجة البحّار! هذه، باختصار، دلالة القصّة التي رواها.

قالت البومة:

ـ صالح حزّوم جعل من زوجته قوّادة له!

قال الوطواط:

ـ هذا ما يقال عنه تسمية الأشياء باسمائها.

قالت العنقاء:

ـ مؤسف أن يُفهم الحب هذا الفهم التعيس والمغرض.. كاترين لم تكن امرأة لتغار منها كريمة زوجة صالح حزّوم، كاترين هي عروس بحر، وهي، بهذه الصفة، كانت بيننا، وقد خلعت قناعها البحريّ، وخلعت عن صالح حزوم قناعه الدغْبسي، لأنه آن الأوان لخلع الأقنعة.. جميع الأقنعة!

قالت السوسة:

ـ هذا ما يجب ولكن..! فكّروا بالفضائح التي ستثار، لو توصّلنا إلى خلع أقنعة الناس!

قالت الأفعى:

ـ من الصعب جدًا الوصول إلى خلع أقنعة الناس.. هؤلاء المتقنّعون يملكون القوة، والبدائل، ووسائل الإغراء.. هناك تواطؤ ضمنيّ بين القناع والقوة، وما هي القوة في المحصّلة؟ إنها المُلْكيّة من عقار ومال، والمالكون يتستّرون بالأقنعة كما يتستّر اللصوص بالظلمة، وفي هذا الزمن تغيّرت حتى هذه الأستار! وُضعت جانبًا، كالثوب الذي بطلت «موضته»، اللصوص، الآن، يسرقون في النهار، وعلى المكشوف، ويسرقون أربعًا وعشرين ساعة في الأربع والعشرين ساعة، لكنهم لا يسرقون لأنفسهم بل لغيرهم، لذوي الأقنعة، هؤلاء الذين يمكن معرفتهم، ولكن من المحال محاسبتهم، لأن

القوة تحميهم، أما الفضائح فإنها نافلة، في مجتمع فضائحيّ، أصبحت فيه الفضيحة بسبعة رؤوس، ولا من يهتم أو يكترث، وقد تراجع الحبّ بمعناه السامي، وحلّ محلّه الفسق بمعناه الخسيس جدًا، وبكل أنواعه، فصرنا فاسقين بالكلام والفعل، وصارت بعض البيوت، التي هي أوكار لهذا، منتشرة، محميّة، والقارح تتبختر، عارضة نفسها باغراء، كما يعرض الجزّار لحوم البقر، وبشكل مقزز، وبعد ذلك، ونكاية بالطهارة، أصبح للرذيلة بازار، وسماسرة، وبائعون، وشارون، وعلى عيني وعينك يا تاجر، ثم يأتي هؤلاء الفاسدون، المدوّدة ضمائرهم، ليحاسبوا، ليقاضوا غير الفاسدين، وليصدروا أحكام الإعدام بحق الحبّ والمحبّين، كما يفعل هذا الوطواط، وكما تفعل هذه البومة، وكذلك أمثالهما، من الذين نضب ماء الحياء في وجوههم، وأعينهم وجلودهم السوداء المقرّحة، ذات البثور التي تنزّ قيحًا نتنًا، يأتي جميع هؤلاء لينكروا البحر، وقانون البحر، وماءه، وملحه، وسطحه، وقاعه، دفعة واحدة، وليدينوا البحّار، العائد من رحلة الموت، على فرحه بالحياة، وانبل ما فيها: المرأة! وليرموا زوجة هذا البحار بالقوادة، لأنها تقدر ظروف زوجها، وحقه في أن يتمتع بعد حرمان، وأن يحب بعد كره، على نحو ما قاله القبطان اسطفانو، الذي سمع كلنا قصّته الشقية، ونهايته التراجيدية!

قال الوطواط:

ـ تبرير الخطيئة ممكن دائمًا، ودائمًا تبقى الخطيئة خطيئة رغم

تبريرها! نعرف الذي قال: «كونوا حكماء كالحيّات!» ولكنه لم يقل صدّقوا الحيّات اذا هي بررّت ما لا يبرّر: الخيانة! نحن على البرّ، فلنأخذ بقانونه، ولندع قانون البحر للبحر، فالزانية ترجم، وما كاترين هذه سوى زانية، وعبثًا تخلعون عليها رداء الفضيلة، أما صالح حزّوم هذا فإنه رجل، والرجل لا يعيبه أن يزني، ولا يُعاقب على ذلك، من الناحية القانونية على الأقل، ولكن ماذا بشأن الناحية الأخلاقية؟ مرة أخرى أقول: لا تفهموني خطأ! أنا لست ضد اختراق المحرمات، بالعكس، إنني أدعو إليه، وبذلك فقط يعود الفرع إلى الأصل، وما هو الأصل!؟ إنه الشرّ. ففي البدء كان الشرّ، كانت حواء والخطيئة، كان السقوط من الفردوس إلى الجحيم، وكان، لذلك، الحساب والدينونة، وكاترين وصالح هذان مدانان، برغم وصية: «لا تدينوا لكي لا تدانوا»، هذه التي تدعو إلى التسيّب، وإلى تهريب الجانح والمجرم من العقاب، وهو ملح الأرض، وضابط توازنها، فاذا كنتم مع اختلال الأرض وما عليها، فان هذا يرضيني، شريطة أن تؤمنوا بذلك مثلي، وتدعوا إلى ذلك، وتصرّحوا به، فيزول ما بيننا من خلاف، ونعقد الصلح الذي هو سيّد الأحكام، ماذا تقولون؟

ردّت الأفعى:

ـ نقول إنك كإبليس، تزيّن الشرّ وتجعله بدءًا، وتريدنا أن نصدق، وهذا لن يكون، لأننا مع الحبّ وضدّ البغض، والحبّ ألوان، وأشرفه هو أصدقه، وصالح حزّوم كان صادقًا في حبّه، وقد سلك اليه طريقًا مستقيمًا، بخلاف طرقك الملتوية أيها الوطواط الكذوب، إذن كفّ عن

خلافك وتضليلك، فصالح حزّوم بحّار، وقد عاش قانون البحر بشرف وأمانة، وكان حبّه لكاترين صادقًا، صافيًا كدمعة الطفل، علنيًا كضوء النهار؛ استشعره كالفرحة في ذاته، وكان مبتهجًا بهذا الفرح، وصانع بهجة للتي أحبّها، أليس كذلك يا كاترين؟

قالت كاترين:

ـ نعم أيّتها الحكيمة! كان هناك رجال في حياتي، ولم يكن هناك حبّ أبدًا.. صالح حزّوم، بحبّه صنع لي مسرّة، وكنت بحاجة إليها، كي أفرح قليلاً، كي أنهض، كما المُقْعد، بأعجوبة، وكان الحبّ هو الأعجوبة، فهل يلام الانسان المُقْعد، اذا جاء من يقول له: «انهض!»؟ وإذا كان هذا الكسيح قد نهض فعلاً؟ أنتم جميعًا تعرفون قصّتي، وإني لأرغب عن التكرار، وكل ما أقوله أن حياتي، قبل مجيء حبيبي، كانت فارغة، تافهة، مهانة، مذلّة، وبعد مجيئه تبدّل كل شيء.. من لا يعرف فرحة الحب لا يعرف بهجة الحياة!

أضافت كاترين:

ـ عندما قال لي صالح حزوم «أنتِ!»، اختلج شيء ما لا يوصف في ذاتي.. عدت إلى «شردقي» وبكيت من سعادة.. آمنت، بعد تأمّل، أن كل كلمة قادرة على اسعاد مخلوق شقي مثلي، فالكلمة، أحيانًا، تحيي وتميت، وقد كنت ميّتة فاحيتني كلمة، لذلك أقول: «مباركة الكلمة»!، هذه التي كانت في البدء، وكانت للخير لا للشرّ، ونحن البشر، أقلّه بعضنا، من لوّث الخير بالشرّ، فكان علينا، بعد ذلك، أن ننظّف الخير من الشرّ، وهذا ما فعله صالح حزّوم معي، فكيف

أرفض نعمة السماء هذه!؟ كيف أقتل فرحي!؟ كيف أتنكّر لمن أنزل عني متاعبي ببساطة مدهشة؟! وما يكون الجواب على نداء من قال: «أيّها المتعبون تعالوا إليّ وأنا أريحكم!»؟ إن شقاء هذا العالم مصدره الاستحواذ، من المال إلى العقار إلى الإنسان، فلِمَ كل هذا الجشع؟ ولماذا نرتهن للمال والمال يستعبدنا؟ ولماذا لا يكون هناك متّسع لأن نحبّ دون أن نحتكر من نحبّ؟ ثم لماذا نسعى إلى استملاك الآخر، الأخرى، وفي هذا النوع من الرقّ الاستعباديّ، الذي يعيدنا إلى عهد الرقيق والعبوديّة؟ كريمة هي الزوجة، وأنا هي الحبيبة، ولئن كنّا، في هذا الزمن المركّب، المعقّد، قد فارقنا عذوبة فطرتنا الأولى، يوم مشاعيّة الأشياء، فإن السؤال هو: من منّا على حقّ، كريمة أم أنا؟ جوابي أن كلينا على حقّ، وكلينا على باطل، وهذا حكم المجتمع الذي نعيشه، فللزوجة، كما هو العرف السائد، أن تستملك زوجها، وللزوج أن يستملك زوجته، بحب أو دون حبّ، إلا أنّ الإنسان يتوق، مع الأيام، إلى الانعتاق، إلى الخروج من قمقم الزوجيّة، وملاقاة الهناءة في فضاء الحرّيّة، خصوصًا إذا كانت لديه إضافة لا تزال، وقوّة لا تتوفّر للشريك في الزوجيّة، ورغائب لا تُلبّى، وحاجات تتطلّب أن تُقضى، ويكون الطرف الآخر، في الحياة الزوجية، على فهم لهذه الضرورة، وتقدير لموجباتها، وهذا الطرف، العاقل، الحكيم، في قصّتنا هذه، هو كريمة، سواء كانت على علم بقانون البحر أم لم تكن، لأن حسّها السليم قد قادها إلى الإدراك الصحيح، ومقابل هذه التضحية منها، كانت تضحية صالح حزّوم لأجلها، فلم يتزوّج عليها

مع أن ذلك كان في ميسوره، ومع حبّه لي، كان إعزازه لكريمة، وفي هذا تكافؤ، وإرضاء للذات وللذات الأخرى.. لكن السعادة لا تدوم، نار الهشيم هذه تنطفئ بسرعة، وقد انطفأت سعادتنا، لكن حبّنا ظلّ كما كان، لم ينحدر لأنه لم يكن قد بلغ الذروة بعد.. وعندما افترقنا، على النحو الذي تعرفون، كان فراقنا أبدياً، لأن صالح غرق في تلك الباخرة الفرنسية الجانحة في مدينة إسكندرونة، وعبثًا بحث ابنه سعيد عن جثّته في هيكل تلك السفينة.

صات الوطواط:

ـ قصّة أخرى ملفّقة.. إذا كان صالح حزّوم قد مات، فكيف بُعث الآن، ولسنا في يوم القيامة؟

أجاب صالح حزوم بهدوئه المعتاد، ونبرة صوته المفعمة رجولة:

ـ أنا لم أمت!

ـ أين كنت إذن؟

ـ هاربًا من أعدائنا الفرنسيّين، ومقبوضًا عليّ من قبلهم!

ـ في الباخرة الجانحة؟

ـ في الجبل!

ـ إذن لم تغرق في البحر كما قالوا؟

ـ البحر أبي، فهل يغرق الابن في أبيه؟

ـ لكنك، في أيام المجاعة، كنت، كما زعموا، تنزل إلى الباخرة الجانحة لتستخرج تنكات الكاز منها، وتنفق على أسر البحّارة!

ـ لم يكن هذا زعمًا، كان حقيقة.

ـ وكيف قبضوا عليك؟

ـ وشاية!

ـ من الذي وشى بك؟

ـ أنت!

ـ أنا!؟

ـ ولماذا الاستغراب؟

قالت البومة:

ـ قصة أخرى ملفّقة، أيضًا وأيضًا!!

ـ الحقيقة لا تكون تلفيقًا، ولا تصير!

ـ صارت! الوطواط ليس مخبرًا، ولا يستطيع أن يكونه.

ـ أنتِ إذن!

اضطربت البومة وقالت:

ـ أنا!؟

أضافت:

ـ أنت، يا صالح حزّوم، مصاب بعَتَهِ الشيخوخة.. البومة لا تكون مخبرة، ولا تستطيع.. ثم لماذا!؟

ـ لوجه الشرّ!

أضاف صالح:

ـ حين يكون هناك خير، يكون هنا شرّ، يتربّص به ليغتاله.

سألت البومة:

ـ كيف!؟ وبأيّة وسيلة؟

أجاب صالح:

ـ تعرفين وتسألين؟ هناك، بين النفوس الطيّبة، تكون نفس خبيثة دائمًا، وهذه لا تحتاج إلا إلى التحريض! الشيطان ينام في غابة الشَعْر، بينما الملاك ينام بين الأصابع، وكلاهما عدوّ يرصد الآخر، إلا أن خبث الشيطان أقوى من طيبة الملاك، ولهذا كان الشرّ سريع الانتشار، قويّ السيطرة، وكان الخير مسكينًا، يأتي متأخّرًا، وبعد فوات الأوان.. المسألة، هنا، دقيقة جدًا، فمن يستند على الشجرة، غير الذي يستند إلى ظلّها.. الشجرة هي القوة، وجذرها الملكيّة، ومن يملك يتقوّى بملكه، ويستخدم الشيطان في أغراضه، أما الذي لا يملك، وسنده ظلّ الشجرة لا جذعها، فإنه ضعيف رأسماله النيّة الطيّبة، والنوايا الطيّبة تنفع، اذا نفعت، في الآخرة لا في الدنيا، والملاك الحارس يغطّ في النوم، بينما الشيطان يقظ، يشبَح في طوايا النفوس، موسْوسًا، مخنّسًا، فما إن يجد نفسًا جبانة، أو طمّاعة، أو متهافتة، أو نذْلة، حتى ينسرب إليها، ويتسلّط عليها، ويسيّرها، في الاتجاه الذي يريد.. بكلمة: الشيطان يدفع، والملاك ينصح، وماذا تفعل، في هذا الزمن، النصيحة العزلاء، أمام الدفع المسلّح بالمال!؟

قال الوطواط:

ـ ولكننا، البومة وأنا، لا نملك، وتاليًا لا ندفع.

ردّ صالح حزّوم:

ـ أنتما وسيلة بيد المالك والدافع.. مَنْ وشى بي قبض الثمن!

قالت البومة:

ـ وماذا في ذلك؟ نحن في زمن الدفع والقبض! وهذا جيّد، فالناس يريدون الانتفاع، هل أنت ضد ما ينفع الناس؟

ـ أنا ضدّ ارتزاق الناس، لا ضدّ نفعهم!

ـ وما الفرق؟

ـ الفرق كبير، ولا حاجة إلى التذاكي أو التغابي! الارتزاق رذيلة، وأنا أحد ضحايا هذا الارتزاق!

ـ وإذا كان نصف الناس، على الأقل، مرتزقة؟

ـ نكون في الوضع السيّئ الذي نحن فيه!

قال الوطواط ساخرًا:

ـ لماذا، إذن، لا تخرج إلى الناس ناصحًا، فينتهي الارتزاق والمرتزقة!؟

ـ لأنني لست مبشّرًا، ولست قادرًا على تغيير هذا الوضع السيّئ حتى مع التبشير، فالفساد أصبح طاعونًا، ومكافحة الطاعون ليست، راهنًا، بالأمر الممكن..

أضاف:

ـ الذي وشى بي كان بحّارًا مع الأسف، فبين البحّارة يكون المرتزق، كما يكون بين العمّال وبين الفلاّحين، وبين الفقراء الذين يكافح المكافحون لإنقاذهم من فقرهم الأسود، ومن بؤسهم وتعاستهم، وأنت لا تستطيع، وما ينبغي، أن تأخذ الجماعة بذنب الفرد، فالتعميم، في هذا المجال، خطأ، واليأس خطأ، والكفّ عن الكفاح في سبيل الحريّة، وفي سبيل العدالة الاجتماعيّة، خطأ أيضًا، لأن عليك أن تبحث، وبالجديّة اللازمة، عن دافع الخائن إلى الخيانة، وعن دافع المرتزق إلى الارتزاق، وستجد هذا الدافع في الضلال، فالمضلّل أعمى، أصمّ، أبكم، ميت الشعور، فاقد الضمير، وقد وقع في الضلالة لا بسبب الحاجة وحدها، أو الجهل وحده، وإنما وقع فيها، عدا عن ذلك كلّه، بسبب الوسواس الخنّاس، «الذي يوسوس في صدور الناس» زاعمًا كما هي حال هذا الوطواط، أو هذه البومة، أنّ الشرّ كان بدءًا، وسيبقى ختامًا، وألا مفرّ منه، وأن على المرء، في قلب الشقاء العامّ، أن يبحث عن خلاصه الخاصّ، وأن يتبع إبليس وصولاً إلى مبتغاه، لأن إبليس هو الأقوى، وأن الملاك هو الأضعف، لكن الموسْوِس المخنِّس لا يقول الأشياء بهذه الصراحة، أو هذه الصيغة، لأن الغواية لا تسلك الطريق المستقيم، بل تلفّ وتدور، وتخدع حتى باسم الدين، والدين منها براء، وترمي، زورًا، المؤمنين بالكفر، وتأخذهم، وهنا الرياء الأكبر، بكفرهم، وتقتلهم بسببه، قافزة فوق القانون، جاعلة لنفسها قانونًا خاصًا، من صنع يديها هذه المرة، لذلك قلت، وأكرّر، وأؤكّد، أن الذي وشى بي هو الوطواط، أو هو البومة، والمنفذ كان وسيلة بدفع من أحدهما ليس إلاّ!

احتجّ الوطواط صائتًا:

ـ هذا كذب، هذا تلفيق، هذا دجل!

قاطعته السوسة قائلة:

ـ كاد المريب أن يقول خذوني، ونحن نأخذك، وبومتك معك، باقوالكما، وكلّنا شهود عليها.

قال صالح حزّوم:

ـ نعم! هذا ما حدث! كانت هناك وشاية، وكان هناك واشٍ، وعندما نزلت من الجبل، حيث كنت أحمل السلاح ضدّ الفرنسيين المحتلّين، وقعت في الكمين المنصوب، عند الباخرة الجانحة تمامًا، ولم ينفعني تنكّري، فدود الخلّ منه وفيه، والواشي كان بحّارًا على مركبي، وكان يناديني «ريّسي»! وقد باعني، كما يهوذا، بقليل من الفضّة، وهو الذي زعم أنه رآني أنزل إلى الباخرة الجانحة وأغرق فيها..

صاحت السوسة:

ـ وبعد!؟

قال الريّس صالح:

ـ أنتم تعرفون ما جرى بعدي على البرّ، لكنكم تجهلون ما جرى معي في البحر..

ـ ولماذا في البحر؟

ـ لأنهم أخذوني، معصوب العينين في زورق، ومنه نقلوني إلى

زورق آخر، ومن هذا الزورق إلى قطعة بحريّة، وفي قاعها بدأ تعذيبي كي أعترف، كي أدلّهم على من كانوا معي في الجبل، ومن أين كان يأتينا السلاح، وبأيّ واسطة، ومن هو الزعيم فينا، ولماذا حملت السلاح ضدهم، ومن حرّضني على ذلك، إلى آخر هذه السلسلة من الأسئلة التي التزمت الصمت حيالها، صيانة لشرفي، وحماية لإخوتي في السلاح، وعندئذ قال لي الجلاّد بينهم:

ـ نحن نعرف كيف نجعلك تتكلّم، إذا ما بقيت مصرّاً على عدم الكلام.. أنت تعمل لحساب الأتراك، وتأخذ السلاح والمال منهم!

أجبت:

ـ الأتراك أعدائي مثلكم، وقد سجنوني لأنني قاومتهم في قلب بلادهم، في مرسين تحديدًا!

صرخ الجلاد:

ـ أنت تعمل لحساب الانكليز إذن، ومنهم تأخذ المال والسلاح!

أجبت بلا مبالاة:

ـ عدائي للانكليز مثل عدائي لكم، أنا عربي أوّلاً وأخيرًا، وأنا وطنيّ، قوميّ، والانكليز ضدّ العروبة، وضدّ القوميّة العربيّة، وهم أصحاب وعد بلفور، وهم الذين سلّحوا العصابات اليهوديّة، مثل شترن والهاغانا، لتقتل العرب في فلسطين، وتهجّرهم منها، وتهدم بيوتهم على رؤوسهم، فكيف أكون معهم؟

قال الجلاّد واسمه تراك:

ـ إذن اعمل معنا، لأننا، نحن أيضًا، ضدّهم.. ونحن لسنا قساة مثلهم، ولم نسلّح اليهود ضدكم!

قلت:

ـ وميسلون؟

قال:

ـ هذه حرب، وفي الحرب يكون غالب ومغلوب دائمًا!

ـ ويوسف العظمة؟

ـ هذا وزير دفاعكم الملعون، الذي أنذرناه فردّ بالنار على إنذارنا! وكان جزاءه القتل!

ـ والذين كانوا معه؟

ـ كانوا مجرمين على شاكلته! وقد قُتلوا مثله.

ـ ومن كان المعتدي، ومن كان المعتدى عليه!؟

صاح تراك:

ـ اخرس! نحن جئنا منتدبين عليكم، لنأخذ بيدكم ونمدّنكم!

ـ بقوّة السلاح!؟

ـ وماذا تريد إذن!؟ بقوة اللّطف!؟

ـ بقوة العدل، والعدل كان معنا، لأننا كنا ندافع عن بلدنا، بينما أنتم تغزونه!

صفعني تراك بقوة وهو يصرخ:

- Merde!

أضاف:

- أنت أخطر مما كنّا نظنّ! من أين لك هذا الاطّلاع على السياسة، لو لم تكن زعيم عصابة مجرمة!؟ سأعطيك وقتًا للتفكير، للرجوع عن الخطأ، لإظهار الندم والتوبة، ثم الاعتراف الكامل، وإلاّ طلقة واحدة في الصدغ، هي طلقة الرحمة، ونصفّي حسابنا معك!

قلت متحدّيًا:

- لا ضرورة للتفكير! أنت تهدّدني بطلقة الرحمة، فاجعلها طلقة القسوة، وعندها تعرف من منا هو الأشجع.. هيّا! نفّذ تهديدك، وفورًا!

- ١٤ -

قال الوطواط أسيفًا:

- ولماذا لم ينفّذ، فورًا؟

قالت البومة:

- وبغير رحمة؟

- قال صالح:

- لان «تراك» الجلاّد كان يأتمر بتعليمات من هو أعلى منه!

سأل الوطواط:

- وما هي هذه التعليمات الغبيّة؟ أنا مع التنفيذ الفوري، برحمة أو غير رحمة، والنازيّون يعجبونني من هذه الناحية، لأنهم ليسوا على طريقة بيلاطس البنطي، الذي طلب ماء وصابونًا، وبعد أن غسل يديه قال: «أنا بريء من دم هذا الصدّيق!» أي صدّيق هذا؟ الذي حمل السلاح بالسلاح يُقتل! هذا ما يسمّونه الجزاء من نفس العمل، آه لو أحكم العالم يومًا!!

سألت السوسة:

ـ وماذا كنت تفعل!؟ تعدم العالم!؟

ـ أعدم نصفه الضعيف، الحقّ مع القوة دائمًا، هذا شعار جيّد، فمن يملك القوّة عليه أن يستعمل القوة، وخاصّة مع الضعفاء الذين لا نفع منهم.. القاعدة الذهبيّة هي التالية: «قتل الضعيف لإحياء القويّ!» بذلك وحده يكون الاصطفاء العرقيّ!

قالت البومة:

ـ وفوق ذلك هناك القصاص! المثل القائل «مَنْ يرمني بوردة أرمِهِ بحجر» يختصر، ويكثّف، تجربة أجيال وأجيال من البشر.. صالح حزّوم هذا رمى الفرنسيين بالرّصاص، وكان عليهم أن يرموه بالرّصاص في المقابل، هذه هي العدالة المتكافئة في نظري!

قالت العنقاء:

ـ يا لها من أريّة جديدة!

قال الوطواط:

ـ مع شرف السبق! أنا، لا هتلر، من نادى أوّلاً بهذه النظرية الاصطفائيّة! النازيّة لم تأت من فراغ، كان لها، قبل تحقّقها، فكرٌ استندت إليه، بعد أن انبثقت منه، فالفلسفة، قبل أن تكون فلسفة، أخذت عناصرها من أفكار الناس، ومن رغائبهم أيضًا.. المهمّ، الآن، هو ما جرى بين الجلاّد «تراك» وهذا المجرم المدعو صالح حزّوم: نفّذَ أم لم ينفّذ؟ ولماذا، وهنا النقطة الأساس، لم ينفّذ!؟

قال صالح حزّوم:

ـ لأن التعليمات كانت تقضي بإماتتي قبل الموت!

ـ هذا خطأ! محاكم التفتيش سلكت طريقًا آخر، أقصر وأسرع!

ـ ما رأيك إذن، أيّها الوطواط الآريّ، النازيّ، بأن نرفع عرائض نطلب فيها إعادة محاكم التفتيش، وإيصال النازيّة من جديد إلى الحكم؟

قال الوطواط:

ـ هذا سيحدث دون عرائضك، بل إنه حادث الآن، فاطمئن!

أضاف الوطواط:

ـ كان «تراك» هذا جبانًا! ما حاجته إلى طلب التعليمات، والتقيّد بالتعليمات؟ الوجه إلى الجدار، وطلقات في الظهر، وهذا كل شيء! لو فعل ذلك لوفّر علينا الوقت والجهد، ولما كان صالح حزّوم حيّاً بيننا، يتحفنا ببطولاته، وفشره، وقصص حبّه البائخة!!

قالت العنقاء:

ـ يا للحقد الوطواطيّ غير المقدّس! ماذا فعل لك صالح حزّوم؟

ـ جاءنا بالحبّ، من حيث كنا نتوقّع البغض، والجرم، ههنا، شنيع! إنني اشمئزّ حتى من النظر إلى وجهه..

ـ بسبب البطولة؟

ـ بسبب البراءة!

ـ وعكسها صحيح أيضًا! ألا تعرف كم هي مقزّزة بشاعتك؟

قالت البومة:

ـ البشاعة جمال من الجمال يا عزيزتي العنقاء.. كيف غابت عنك هذه البدهيّة؟ الأقدمون كانوا أكثر فراسة، وأحدّ نظرًا، لذلك كنت أحد رموز الجمال عندهم، وكانوا يرونني فأل خير، حين أنتم ترونني شؤم شرّ!

قال صالح حزّوم:

ـ جاءني «تراك» قبل الجلد، ليقول لي إن الفرنسيّين غير الانكليز والإيطاليين والألمان.. نحن، قال، بنبرة افتخار، حفدة أولئك الأبطال الذين فجّروا الثورة الفرنسية، ونادوا بالحريّة والإخاء والمساواة، وقد تغيّرت، مع هذه الثورة، أفكار كثيرة في أوربا والعالم، ثم إن باريس عاصمة النور كما تعلم..

قاطعتُه:

ـ عن أيّ نور تتكلّم وأنا أعيش في الظلام، معصوب العينين أولاً، ثم في زنزانة ضيّقة، نتنة، على ظهرهذه السفينة ثانيًا؟

قال تراك:

ـ هذه سفينة حربيّة، وقد منحناك شرف ركوبها تكريمًا، وبيدك أن تعود منها أو تواصل الرحلة معها إلى المنفى، في أحد المحيطات البعيدة جداً، حيث تنقطع أخبارك، أو تموت ميتة الكلاب إذا لم تتعاون معنا.

ـ والحريّة والإخاء والمساواة؟

صاح وهو يضرب بسوطه على جزمته، فيفرقع الجلد:

ـ الإخاء لا يكون مع العداء! أنت عدوّ فرنسا، وقد حملت السلاح ضدّها.. تعرف ما هي عقوبة من يحمل السلاح ضدّ الذين جاؤوه بالحرية والمساواة!؟ إنها الإعدام، رميًا بالرصاص!

أردت مناقشته حول هذه «الحريّة» المزعومة، وأن أبيّن له أن فرنسا جاءتنا محتلّة، تحت تسمية واهية، خادعة، هي الانتداب، وأنّ لنا الحق في حمل السلاح، ضدّ الذين احتلّوا بلدنا بالسلاح، متناسين شعارات الثورة الفرنسيّة، وخائنين لها، لكن «تراك» صاح بي ما إن فتحت فمي:

ـ اخرس! المجرم غير الثائر، أنت مجرم حقير!

ـ وأنت!؟

احتدّ «تراك» وعاد إلى صفعي وأنا مقيّد بالحديد، قال لي:

ـ أعطيناك مهلة للتفكير، فهل فكرت؟

أجبته والحقد يملأني:

ـ فكرت منذ أن اخترت مقاومة عدوانكم علينا، فلا حاجة بي لأيّ تفكير إضافيّ!

ـ تعرف ماذا ينتظرك؟

ـ الموت!

وضع المسدّس على صدغي الأيسر وقال:

ـ نعم! الموت!

ـ أطلق اذن، وبسرعة!

ـ كي ترتاح؟

ـ كي أموت شريفًا كما عشت شريفًا.

ـ لن نحقّق لك أمنيتك يا شيطان!

قال ذلك ورفع المسدّس عن صدغي، وبعد أن أعاده إلى خصره أطلق هذا التهديد:

ـ المهلة التي أعطيناك إياها للتفكير انتهت.. أنت الذي أنهيتها! الآن جاء دور الندم، ستندم على عنادك، وتلعن اليوم الذي BÊTE ولدتك فيه أمك العاهرة!

بصقت عليه وأنا أصرخ:

ـ أمّي شريفة، بينما أمك هي الداعرة، افعل بي ما تريد!

رفع السوط وجلدني على وجهي مرةً ومرةً، قال:

ـ سأعلمك كيف يكون الأدب يا ابن الـ COCHON! اخلع سترتك وقميصك!

ـ غبيّ!

ساطني من جديد على العنق، وهو يزعق مهسترًا:

ـ من الغبيّ يا قملة!؟

ـ الذي يطلب مني خلع ثيابي وأنا مقيّد!

ـ ستخلع ثيابك وأنت مقيّد! إنني أعرف ما أقول! مزّقها بأسنانك!

تابع صالح:

رفضت! لن أنهش نفسي وليفعل بي ما يريد... أعرف ما

ينتظرني: الجَلْد! ليكن! أنا بحّار وأعرف أكثر منه أساليب الجَلْد على سفن القراصنة، فالعبيد، وهم يُخطفون ويُنقلون إلى أسواق النخاسة، يتمرّدون أحيانًا، وحتى البحّارة ينتفضون من حينٍ إلى آخر، ضدّ قبطانهم الظالم، وغالبًا ما يفشلون، فيكون جزاؤهم الجَلْد بقسوة ووحشيّة حتى الموت، أو ما هو أفظع من الموت، لكنّهم، على كل حال، ينالون شرف التمرّد، شرف الانتفاض على ظالميهم، وأنا من هؤلاء، ما دام المثل يقول «تنوّعت الأسباب والموت واحد!» نعم! الموت واحد، أكان على الخازوق، أو المشنقة، أو بالنار، أو الرصاص، أو الجَلْد، لذلك قلت لتراك:

ـ أنت قذر! الجَلْد لا يهمّني في شيء، باشره متى شئت!

قال تراك وفي عينيه العكرتين ينزّ حقدٌ عليّ:

ـ سأباشر الجَلْد في الوقت الذي أريده أنا لا أنت، وعندئذ ستنقلب هذه الغطرسة إلى ضراعة، القطّ، يا حيوان، لا يأكل الفأرة رأسًا، يعذّبها، يتلذّذ في عذابها، ثم ينقضّ عليها.. أنت فأرة دخلت المصيدة، وهناك طرائق لإعدام هذه الفأرة، منها سكب الماء المغليّ عليها، ما رأيك إذا نقعتك أولاً في «بانيو» من الماء المغليّ؟ الأتراك كانوا أغبياء، ومع ذلك وضعوا المجرمين أمثالك على الخوازيق، هذه ميتة لائقة أيضًا! هنا، على هذا الطرّاد، خازوق جاهز، يليق بك كوطنيّ عربيّ سوريّ حمل السلاح ضدّنا! البطولة ليست في حمل السلاح فقط، وإنما في دفع ثمنها أيضًا..

قاطعته:

ـ إنني مستعدّ لدفع هذا الثمن!

قال:

ـ ليس بالسرعة التي تتمنّاها!

ـ إذن بالبطء الذي تريدونه أنتم!

ـ وقح!

قال ذلك وساطني على عنقي. أحسست بعنقي يلتهب. كانت الضربة محكمة، في الموضع الذي أراده «تراك» تمامًا. إنه جلاّد مدرّب، وقد أدمى عنقي، لكن الدم لم ينقط. السوط أحدث جرحًا بغير جرح، ترك علامة تتسعّر، حاولت لمسها دون جدوى، فالقيد في اليدين، مربوط بجنزير حديديّ إلى القدمين، وقد لاحظ تراك محاولتي هذه ضاحكًا وهو يقول:

ـ هذه مقدّمة، نوع من التهيئة المناسبة، عربون لا أكثر! قلت لي بصلف إنك مستعدّ لدفع الثمن، إذن هذه دفعة على الحساب، أما الحساب نفسه فإنه أغلى مما تظنّ، تكلّم قبل دفع الثمن، حتى لا تندم وأنت تتكلم بعد دفعه.

ـ ليس لديّ ما أقوله!

ـ لديك الكثير ونحن نعرف. أنت رئيس الجماعة المسلّحة في جبال اسكندرونة وانطاكية، فمن هم أفراد هذه الجماعة؟ أين يختبئون؟ كيف يهاجمون قواتنا ومتى؟ من هم الذين يزوّدونكم بالطعام والماء؟ ممن يأتيكم السلاح وبأيّة طريقة؟ وأخيرًا كيف تتّصلون بالشيخ العلي والذين معه في «الشيخ بدر» وجبال طرطوس؟

هل تكتب وتقرأ؟ إذا كان الجواب بنعم نفكّ يديك من القيد، وتكتب الأجوبة عن هذه الأسئلة وغيرها من مكان مخصّص لذلك ومحروس جيدًا.. جمال باشا كان سفّاحًا، لكنه كان أبله، شنق الكثيرين في دمشق وبيروت في يوم واحد، إلا أنّه شنقهم قبل أن يحقّق معهم بالطريقة المناسبة، الطريقة التي يتكلّمون معها ويقولون كل ما في بطونهم، لماذا؟ أنا أقول لك: جمال باشا كان مهتمًا بنشر الرّعب، وهذا ما لم يتوصّل إليه، لذلك فشل، إنّه متخلّف! تركيّا، في ذلك الوقت، كانت، كما أسموها «الرجل المريض» وكانت تحارب على عدّة جبهات، بجنود لمامة وسلاح عتيق، خردة، أما فرنسا فإنّها شيء آخر، فرنسا دولة عظمى، وهي منتدبة على سورية ولبنان من قبل «عصبة الأمم»، وغايتها الإعمار، التمدين، التهيئة اللازمة كي تكونوا صالحين، اداريًا وسياسيًا، لحكم أنفسكم بأنفسكم، ثم تعطيكم الاستقلال وتنسحب، بكل بساطة! لماذا لا تريدون أن تفهموا هذه الحقيقة؟ لماذا تحملون السلاح ضدنا، بدل أن تشكرونا؟ فكّر، يا صالح، بكل ما قلته لك، بغير تسرّع، بغير طيش، بهدوء، وتمعّن، وبعد ذلك يكون كل شيء على ما يرام، فنطلق سراحك، وتعود إلى وطنك وأهلك.. انتبه! هذا عرض كريم، لا يصدر إلا عن فرنسا وحدها، ومرّة أخرى أذكّرك: نحن لسنا قساة كالأتراك والانكليز!

قلت للجلاّد «تراك»:

ـ لا حاجة بي إلى التفكير، الأجوبة، عن كل أسئلتك، جاهزة.

سألني فرحًا:

ـ تقولها فندوّن أقوالك، أم تكتبها بنفسك وبشكل مفصّل؟

ـ لا أقولها ولا أكتبها، أسجّلها في محضر المحكمة!

احمرّت عينا «تراك» وصاح:

ـ أيّ محكمة هذه!؟ تتباله عليّ!؟

قلت بنبرة أقرب إلى اليقين:

ـ المحكمة التي سأُحاكم أمامها طبعًا!

ـ ومن تظنّ نفسك؟ الشيخ صالح علي؟ ابراهيم هنانو؟ أنت مجرد شقيّ، مجرّد رئيس عصابة من الأشقياء!

أجبته بهدوء:

ـ أنا ثائر لا شقيّ، وأنا أحمل السلاح ضدكم كما يفعل الثوّار الوطنيّون.

بصق في وجهي ونبح:

ـ أنت قاطع طريق، تحمل السلاح ضدّنا، وتحمله، كذلك، للتشليح، لسلب أموال الناس، يعني أنت لصّ، ومجرم، ورئيس عصابة من المجرمين، أتفهم؟

أجبته بلا مبالاة:

ـ أنا مناضل وطنيّ، يحمل السلاح ضدّ الذين يحتلّون وطنه، ضدّ المعتدين الذين هم أنتم، أما أقوالك الأخرى فإنها تافهة، لا تستحقّ مجرّد الردّ!

سأل ساخرًا:

ـ هكذا إذن!؟ هذا هو جوابك عن كل الذي قلته لك؟ هذا هو ردّك على العرض الكريم الذي عرضته عليك أيّها «الثوريّ الفظيع»!؟ من أيّ جامعة تخرجت أيّها القانونيّ الضليع!؟

ـ من جامعة البحر! أنا بحّار، أنا قبطان بحريّ، وقد واجهت العواصف كثيرًا، ورأيت الموت كثيرًا، ولا أقول إنني لا أخاف، لكنني أعرف جيّدًا كيف أقاوم الخوف، وكيف أصمد له حتى النهاية!

رازني، دار حولي، عاد يفرقع بسوطه على جلد جزمته، وبعد صمت تعمّده، وكان خلاله يفكر، في محاولة للتأثير عليّ، عن طريق الضغط على أعصابي، انفجر صائحًا:

ـ اسمع! أنا لن أناقشك أيّها «الأدميرال!» ولن أسألك على أيّ دارعة كنت «قبطانًا» أو كم من «معركة حربيّة» خضت، لكنني أقول لك، وللمرة الأخيرة، إنني أعرفك جيّدًا، وبأكثر مما تظن..

قاطعته:

ـ هذا صحيح! الذي وشى بي قال لكم عنّي كل شيء... والباقي اتّهامات رخيصة!

ـ تنكر أنك رئيس عصابة من الأشقياء؟

ـ طبعًا!

ـ وأنك لصّ؟

ـ انكر واستسخف هذا الإسفاف!

ـ ومن الذي كان يسرق الكاز من الباخرة الفرنسيّة الجانحة في اسكندرونة؟

ـ وماذا يفعل الجائع؟ ومن الذي نهب الناس وجوّعهم؟ ألستم أنتم؟ وفي هذه الحال، لو كنتم مكاننا، ألا تفعلون ما نفعل؟ نحن نستردّ حقنا، ننتزعه من أعماق باخرة جانحة، بعد أن احترقت في الميناء، وسحبتموها خارجه، إلى شاطئ مهجور، وصارت من نصيب البحر، ومن هذا البحر نأخذ..

قاطعني بحدّة:

ـ البحر يعطي السمك أم تنكات الكاز؟ ومن قال لك إننا لن نعوّم هذه السفينة ثانية؟

قلت بلا مبالاة:

ـ البحر كريم، يعطي كل شيء، وخاصة للبحّارة الجياع أمثالنا، الذين عطّلتم مراكبهم! أمّا أنكم ستعوّمون باخرة الكاز المحترقة، الجانحة، فهذا كلام يصدّقه غيري، لأن كلفة تعويم هذه الباخرة باهظة، وليس في ميناء اسكندرونة ترسانة بحريّة لإصلاح البواخر.. هذه الباخرة ماتت، ولا فائدة من الحزن عليها، أو تقبّل التعازي بها، أو الصلاة لراحة نفسها!

صرخ بي وهو يهوي بسوطه عليَّ كيفما اتّفق:

ـ ابن عاهرة!

أجبته مناكدًا:

ـ ابن بحر!

ـ ضبطناك بالجرم المشهود!

ـ وأنا لا أنكر.

ـ لو استطعت لأنكرت، ضبطناك وسلاحك معك، وأنت تتعرّى لتسرق السفينة، بعد أن حسبت أنّنا لا نترصّدك.. اسمع! لا مجرم يستطيع أن يخفي جريمته، ولا جريمة إلاّ وتكتشف، مهما ظنّ المجرم أنه في أمان، وأنه لم يترك أثرًا يدلّ عليه!

ـ هذا ينطبق على جريمتكم أيضًا، أنتم معتدون، وقتلة، ولصوص، نهبتم خيرات البلد، وتواصلون نهبكم لأنكم أقوياء، ولا أحد يستطيع أن يحاسبكم، المشانق في كل مدن سورية تشهد عليكم، لكنكم، وأنا واثق مما أقول، لن تنجوا من القصاص، ستخرجون من سورية عاجلاً أم آجلاً، والسفن التي جاءت بكم ستعيدكم، ولكن بعد ماذا؟ بعد تلطيخكم شعارات الثورة الفرنسيّة بالوحل!

لا أدري اذا كان المترجم، وهو من أصل مغاربي، كان يترجم أقوالي بدقّة، أو يفهمني بدقّة، لأنه كان يسألني عن بعض العبارات، ويترجمها بعد أن يستوضحني معناها، وقد كانت لغته العربية، رغم لكنتها، او لهجتها الغريبة عليّ قليلاً، عسيرة في البدء، ثم ألفتها، وصرت أكثر فهمًا لها، وكان واضحًا أنه يتعاطف معي، ويستشعر بعض شعوري، وظنّي أنه كان يلطّف كلماتي الحادّة، ويحاول، قدر المستطاع، مساعدتي، وقد قال لي، عندما اتّهمت الفرنسيين المحتلّين، بخيانة شعارات الثورة الفرنسيّة، وتلطيخها بالوحل:

ـ لا تتسرع أو تقع في الاستفزاز!

أجبته:

ـ أريد أن أصيب منهم مقتلاً!

ـ دع الكلام محصورًا في الدفاع عن نفسك، هذا أفضل لك!

سأل «تراك»، وهو برتبة مساعد في الشرطة الفرنسيّة (البريفوتي):

ـ ماذا يقول ابن الكلب هذا؟

أجابه المترجم «بو غدير»:

ـ يذكّرك بشعارات الثورة الفرنسيّة.

قال «تراك»

ـ لا حاجة إلى هذا التذكير، من يحمل السلاح ضدّنا، يحمل السلاح ضدّ هذه الثورة نفسها.

قلت:

ـ هذا منطق المحتلّ لا منطق الثورة.

سألني:

ـ وما الفرق!؟

ـ الفرق يعرفه الحقوقيون الفرنسيّون، إنهم ضدّ هذه التصرّفات اللاإنسانيّة.

ـ من قال لك هذا؟

ـ البحّارة الفرنسيّون، زملاؤنا، هل نسيت أنّني بحار؟

ـ لم أنس أنك بحّار، ولكن بأيّ لغة قالوا لك ذلك؟

ـ بلغة الإشارات، ثم إنني أفهم بعض الكلمات الفرنسيّة، رفاق البحر يتعلّم بعضهم من بعض، خاصّة في المرافئ!

ـ اللغة التي تتكلم بها معروفة المصدر: المنشورات المعادية لنا!

أضاف «تراك»:

ـ كلمات هذه المنشورات عربيّة، إلا أن أفكارها إنكليزية، وهي تطبع خارج سورية، في فلسطين غالبًا، ومن هناك تهرب إلى دمشق، ويجري توزيعها سرّاً، في مختلف الأنحاء.. نحن مطّلعون على كل شيء، السلاح يهرب اليكم من تركيا، والأفكار المسمومة من العراق، أو مصر، عبر فلسطين، وكذلك المال، وبالليرات الذهبيّة الانكليزيّة، ولكن هل تعرفون كيف يحكم الإنكليز في العراق ومصر وفلسطين ذاتها؟ بالحديد والنار! ألم يقل لكم البحّارة المصريّون، كيف ينصب الانكليز المشانق في مصر؟ وهل نسيتم مشانق جمال باشا؟ تذكّروا تدركوا أننا الأرحم، لأننا أبناء الثورة الفرنسية، هذه التي نحفظ، ونحافظ، على مبادئها!! لكن المسألة ليست هنا، المسألة أننا نردّ على الرصاص بالرصاص، المسألة أننا أمام أشقياء، لصوص، قطّاع طرق، يتخفّون بثياب الثوّار لو كان للثوار ملابس خاصّة... أنتم حفنة أشرار، يزرعون الفساد تحت غطاء مقاومتنا، وأنت، يا صالح، مجرم، قاتل، لصّ، تحفظ بعض الكلمات وتردّدها كالببغاء! أنت أخطر مما كنّا نظنّ، أنت عصابة ولست فردًا، وأنت رئيس هذه العصابة التي وقعت في الفخّ، بعد بحث طويل عنك وعنها، لذلك ندع لك فرصة أخرى للنجاة، فكّر جيدًا بما أقوله لك، قبل أن ننفّذ فيك حكم الإعدام!

تلفّظ «تراك» بهذه العبارات التهديديّة وانصرف.. كان يلعب معي دورًا مزدوجًا: دور المحقّق والجلاّد معًا! وكان يظنّ أن محاضرته، بكل ما فيها من ترهيب وترغيب، ستؤثّر عليّ، إلاّ أن المترجم «بو غدير» قال لي، قبل أن يلحق به:

ـ لا تخف!

نظرت إليه بودّ، بامتنان، بشعور شقيق عربيّ، تجاه شقيقه العربيّ وقلت:

ـ لست بخائف!

قال قبل أن يدير ظهره لي:

ـ التهديد بالإعدام غير الإعدام.

قلت بحزم:

ـ أعرف!

أضفت:

ـ شكرًا لك، الأمر لديّ سيّان! كن واثقًا من ذلك.

قال بو غدير:

ـ أنا واثق! واثق جدًا!

ـ ١٥ ـ

قالت كاترين الحلوة، متلهّفة لسماع بقيّة قصّة صالح حزّوم:

ـ وبعد يا صالح؟ هل يئس الجلاّد «تراك» منك فتركك وشأنك؟

قال صالح:

ـ الجلاد يصبح، مع الأيام، محترفًا، فكيف يترك حرفته؟

سألت كاترين:

ـ جلدك إذن؟ شفى غليله منك هذا المحترف تعذيب ضحاياه؟

أجاب صالح:

ـ الجَلْد نوع من التعذيب، وليس كلّ التعذيب.. الضحيّة مثلي يعذّب جلاّده بأكثر مما يتعذّب هو! «تراك» كان يتعذّب بشكل مضاعف، وبقدر إصراري على عدم الاعتراف، كان إصراره على انتزاع اعتراف مني، لا لأن الاعتراف بذاته كان مهمًا جدًا، وإنما كي يرتاح! نفسيّة الجلاّد المحترف، تصبح مع الأيام نفسيّة مريضة، لا شفاء لها إلاّ بأمرين: أن يجعل ضحيّته تتكلّم، أو تموت.. هل رأيتِ يا كاترين إنسانًا لحظة شنقه؟ لا؟ أنا رأيت.. كان ذلك في مرسين، وكان الشنق بدائيًا،

جاؤوا بالمحكوم في عربة يجرّها بغل، ولما وصلوا إلى السّاحة العامّة، ورأى المحكوم المشنقة، حاول أن يتماسك، أن يظهر بمظهر الشّجاع، لكنه كان مجرمًا عادياً، كان قاتلاً بدافع السرقة، ولم تكن له قضيّة، أو هدف، أو أيّ سبب يموت لأجله، لذلك خانته أعصابه، بكى، صاح: «لا أريد المشنقة، أعدموني رميًا بالرصاص.. هذا هو مطلبي الأخير من الدنيا!» أجابه الجلاّد، صاحب الوجه القاسي، الجهم، والشوارب الطويلة: «لا تؤاخذنا، هذه المرّة فقط، لأجل ذقني!» ولما استمرّ في الصياح، وفي مقاومة النزول من العربة أمسكه الجلاد من صدره ونتره، جرّه إلى المشنقة جرّاً، وأصعده حملاً إلى الكرسيّ، وبعد أن ألبسه القميص الأبيض، المكتوب عليه قرار الإعدام، فوق يديه المكبّلتين بالحديد وراء ظهره، تراخى المحكوم، تكوّم فوق الكرسي، راح يستجير، يتشفّع، يبكي، يحاول التملّص من الأنشوطة، يمانع، بحركة هستيرية، وضعها في رأسه، إلاّ أنّ الجلاد المدرّب، المكفهرّ الوجه، غير المسموح له بالضرب عند تنفيذ الإعدام، صعد إلى الكرسيّ الخشبيّ، رفع المحكوم إلى الأعلى، أدخل رأسه في الأنشوطة، وبحركة اعتادها، سحب الجلاّد الكرسي، فتدلّى المشنوق، وراح ينتفض، وعندئذ، وبكل برودة، شدّه من رجليه كي يموت، فلما مات، نفّض الجلاد يديه، وأشعل سيكارة... لقد استراح الآن!

قالت السوسة:

- رهيب!

قالت الأفعى:

ـ وحش! الإنسان، أحيانًا، وحش! قاتل، ومن خوفي أن يقتلني ألدغه.. أعتبره عدوّي الأكبر!

قال الوطواط:

ـ الإنسان عدوّنا كلّنا، وعدوّ نفسه أيضًا! المخلوق، في هذا الوجود، قاتل أو مقتول، لذلك عليه أن يكون قاتلاً، أن يكون جلاّدًا، أن يسدّ طريق الرحمة إلى قلبه، كما يفعل «تراك» تمامًا!

قالت البومة:

ـ من كل حكاية تنفيذ الإعدام التي رواها صالح، لذّت لي نقطة واحدة، في صورتين: إحداهما بكاء المحكوم، وثانيتهما سيكارة الراحة التي أشعلها الجلاّد!

قالت العنقاء:

ـ هذا يسمى التشفّي!

ردّت البومة:

ـ نعم! التشفّي!

أضافت:

ـ أنا أتشفّى أيضًا بما أسمعه عن تعذيب صالح.. «تراك» هو الرجل الشجاع في نظري، إنه جلاّد؟ لا بأس! أنا أفضّل الجلاّدين دائمًا، لأنهم يقومون بما أعجز أنا عن القيام به: قتل الإنسان الذي يلاحقني، ويخرّب أعشاشي حتى في الخرابات، لأنه يتشاءم مني، مع أن أسلافه كانوا يرون في نظراتي ما هو جميل، وفي منقاري

المعقوف ما هو قويّ.. أما حكاية صالح وتحدّياته لتراك فهي فشْوَرات.. صالح جبان، لأنّ الشجاع لا يتحدّث عن شجاعته، أو كرهه لنفسه، أما صالح هذا فانه يكره نفسه، وهذا واقع، فلماذا إغماض العين عن الواقع!؟

سألت العنقاء:

ـ عن أيّ واقع تتحدثين؟ ما قاله صالح كان وصفًا، كان تحليلاً لنفسيّة الإنسان في لحظة ضعفه.. ما من مخلوق في هذا الكون إلا وله لحظة ضعف، حتى أنت نفسك، فاذا كنت موتورة لأن صالح لم يهن، لم يستسلم، واذا كنت، إشباعًا لنزوع الشماتة في ذاتك، تفضّلين الجلاّد على الضحيّة، فإن هذا يجلب لك السعادة وليس النصر.. «تراك» هذا لن ينتصر.. انتظري تري، «للظلم يوم وللمظلوم يومان!» هكذا قال الشاعر، وهو على حقّ، أما أن صالح جبان فهذا تفكير رغبيّ، أنت تتمنّين أن يكون جبانًا كي توغلي في شماتتك، لكن الشماتة مثل اللؤم، بعض الناس يموتون لؤمًا، وكذلك بعض الطيور أمثالك!

قال الوطواط:

ـ إنني أشمّ رائحة عشق جديد!

ردّت العنقاء:

ـ العشق جديدًا يكون دائمًا، وبه تعمر الدنيا، مهما خرّبها المخرّبون.. صمود صالح للتعذيب مدين للحبّ، فقد صمد بحبّه لكاترين، كان له من يصمد لأجله، كان له هدف في الحياة، وعندما يكون للإنسان هدف تكون الأعجوبة.. الحبّ هو الأعجوبة الكبرى..

«تراك» نصح صالح بأن يفكّر، وهو يعرف أن صالح فكّر وانتهى إلى قرار: المقاومة! لذلك، ورغم التعذيب، كان صالح مرتاحًا، بينما كان «تراك» معذّبًا، سلاحه التهديد، وبِمَ ينفع سلاح التهديد إذا كان مثلومًا؟ بو غدير المترجم كان هناك، وقد سمع ورأى، وقال لصالح هامسًا: «التهديد بالإعدام غير الإعدام» فأجابه صالح «الأمر لدي سيّان!» كان هذا جواب رجل شجاع، يرى الموت فلا يرفّ له جفن، وكان يعرف أن رأسه ليس رأس لفت، حتى يُقطع بهذه السهولة، وحتى لو قطع، فإن قطعه، في سبيل قضية وطنية، أمر يستحقّ! المهم، حتى الآن، هو أن صالح لم ينكسر من الداخل، أما ما هو من الخارج، فإنه لا يؤثر، وهذه حكمة جديرة بالحفظ!

قالت كاترين:

ـ بلى! هذه حكمة، جديرة بالحفظ، وبالتأمّل أيضًا.. ماذا فعل «تراك» بعد ذلك يا صالح؟

قال صالح والمرارة تمتزج بكلماته، وترشح منها:

ـ ما كنت أحسب يومًا أنني سأقف هذا الموقف، وأُحاط بهذا الجمع الذي انقسم حولي إلى اثنين: أحدهما قبيح قباحة الموت، يتجنّى عليّ بعيب الكلام، والآخر يدفع عنّي هذا التجنّي، كما لو كنت متّهمًا، وبعوزٍ إلى من يشفق عليّ! لا! الأمور ليست هكذا، أنا لست بشمشون، وكاترين ليست دليلة، ولا حاجة إلى البحث، في أيّ مكان من جسمي، عن نقطة قوّتي أو نقطة ضعفي، وإذا كانت هذه القاعة ليست بهيكل، ولا أنا مربوط إلى أحد الأعمدة، فإن في وسعي، رغم

ذلك، أن أهدم هذه القاعة عليّ وعلى من معي! ليكن، إذن، صمت، ولتكفّ هذه البومة عن نعيبها، وهذا الوطواط عن خبثه، فإنني لا أؤخذ ترهيبًا أو ترغيبًا، ولا سبيل للتأثير عليّ بالوشوشة والخَنْسنة، واذا كنت أكره نفسي أو أحبّها فهذا من شأني وحدي، وكذلك من شأني أن أكون شجاعًا أو جبانًا، صامدًا أو رخوًا، مصقعًا أو حارّاً، والشماتة، اذا ما كانت، فإنها خساسة ودناءة، ولم أبالِ، حياتي كلها، بالمدح أو القدح، وما أبهت، في أيّما لحظة، بسوء الطويّة، وبهذا الحضور من حولي، وقد عذّبتُ «تراك» بأكثر ممّا عذّبني، وفي وسع كلّ إنسان يحترم إنسانيّته أن يفعل مثلي، فالجلاّد جلاّد، والمحكوم محكوم، والفارق الوحيد هو من أجل ماذا؟ إنّ هذا السؤال مطروح دائمًا، وجوابه حاضر أبدًا، ولا حاجة للقول إن الفرز بين الصالح والطالح، يكون يوم الدينونة وحدها، فالدينونة قائمة في كل وقت، والذين إلى يمين تكون سيماؤهم في وجوههم، وكذلك الذين إلى يسار، وأنا إلى يمين الحقيقة، برغمكم جميعًا، وكاترين معي، والحقّ معي، والعيب بعيد عن شرفي، في البحر والبرّ معًا، وقد وشى ذلك النمّام بي، وقبض عليّ، وحاول «تراك» عبثًا أن يرهبني، وبعد أن جلد وجهي وعنقي، حَسِبَ أن الألم الذي عانيته على يده، كفيل بأن يجعلني أتراجع، لذلك أعطاني مهلة جديدة للتفكير، وما إن انصرف حتى أعادوني إلى الزنزانة، دون طعام، دون ماء، دون علاج حتى بمرهم بسيط، لوقف اللهيب الذي ظلّ يحرق ويحرق في أماكن السوط على وجهي وعنقي، لكن بو غدير نجح، بطريقة ما في إيصال بعض الطعام والماء إليّ، وكذلك أوصل سائلاً دهنت به مشارط السوط، فهدأ، قليلاً،

لهيبها الجهنّميّ، وبذلك استطعت أن أتكوّم، في زنزانتي الضيّقة، المظلمة، على بعضي، ونمت من التعب نوم قتيل لا يحسّ بشيء.

في الفجر فتح الحرّاس باب الزنزانة عليّ، فاستيقظت مذعورًا، لمعرفتي أن الإعدام ينفّذ في المحكوم مع الفجر، وبعد أن صحوت تمامًا، نهضت وأنا أعضّ على شفتيّ كي أتماسك، ودون أن أسأل: ما هناك؟ وماذا جرى؟ وإلى أين؟ مددت يديّ، فقيّدوهما من خلاف، كما يفعلون مع المحكوم الذي في طريقه إلى المشنقة، وجاء رجل دين، كما هي العادة، طالبًا مني أن أستغفر ربّي عن ذنوبي، مشجّعًا إيايّ بكلمات مثل: «الموت حق» و«الدنيا فانية» و«ان الله يغفر لمن يشاء» و«الموت كأس على كل الناس!» وأنا أسمع وأستجيب، مستشعرًا نوعًا من الطمأنينة، لأنني سأنضمّ إلى قافلة الشهداء، وأبلغ الراحة بعد قليل.

ساقوني حافي القدمين، إلى مؤخّرة الطرّاد، حيث كان الجلاّد تراك، والمترجم بو غدير بانتظاري، وكان الضوء قد بدأ يخترق الظلمة، وفي الأفق، عند مطلع الشمس، كانت نتف من سحب بيض قد أخذت تتوهّج، وأنا أودّع الدنيا، مستروحًا بنسمات الفجر، لاذعة البرودة، وشريط حياتي، بكلّ ما فيها من ذكريات، يكرّ بسرعة في رأسي، وأمامي تنتصب المشنقة، بأنشوطتها المتدليّة، المدوّرة كثعبان أسود، وعلى مقربة منها صفّان من الجنود، يعتمرون الخوذ، يتنكّبون بنادقهم، وأمامهم يقف ضابط ملازم، هو آمرهم ولا شكّ، ومهمّتهم تأدية تحية الاحترام للموت، بعد أن أكون قد لفظت آخر أنفاسي.

بكت كاترين تأثرًا، مسّد صالح شعرها وهو يبتسم، قالت كاترين:

ـ لماذا كل هذه التفاصيل الرهيبة!؟

قالت البومة:

ـ لأنها رهيبة!

قال الوطواط:

ـ ولأنها تلذّ لي متعة أن أرى الموت، وأن أرى الإنسان.. يموت شنقًا!

قالت السوسة:

ـ يقولون إن الإنسان حيوان اجتماعيّ، أنا أقول إنه حيوان لا اجتماعيّ، حيوان غابة متوحّش، لم يتخلّص من بدائيّته، رغم ملايين السنين التي مرّت على نشوئه.. داروين قال بارتقاء الإنسان، لكن داروين كان في مختبره، ولم يكن أبدًا في ساحة الإعدام!

قالت العنقاء:

ـ أو في زنزانة منفردة لعشرات الأعوام، يخرج منها، إذا خرج، محطّمًا جسدياً ونفسياً، يكلّم نفسه بصوت عالٍ، لأنه اعتاد ذلك حتى يتأكّد من أنه لا يزال حيًا!

قالت الأفعى:

ـ بعض الدول ألغى عقوبة الإعدام، استبدلها بالسجن المؤبّد، تعرفون ما يعني السجن المؤبّد؟ تعرفون ما يعني السجن الانفراديّ؟ الموت أرحم.. يختصر الآلام، يأتي رهيبًا في ساعة تنفيد الإعدام، لكنها ساعة وتنقضي، ثم يستريح المعدوم بالموت، يعود إلى العدم الذي منه خرج، إني ضدّ إلغاء عقوبة الإعدام، ضدّ تعذيب الإنسان

حتى يموت صبرًا.. أَفْضَلُ الميتات ما كان سريعًا، خاطفًا، بالسكتة القلبية، بانفجار في الدماغ، يدخل بعدها المصاب في غيبوبة، في نوم عميق، لا يحس معه شيئًا، فهو حيّ ميت إلى أن يتوقّف قلبه عن الخفقان، فينتقل من حالة مريحة إلى حالة أكثر راحة!

أضافت الأفعى وهي ترى إلى الدهشة في عيون مَنْ حولها:

ـ يقولون إن الموت حقّ، لأن الحياة حقّ، هذا منطق لا أجادل فيه.. بودلير الشقيّ قال، وهو في ذروة شقائه: «الحياة مباركة.. إنني أبارك الحياة» هذا قول سليم، الحياة جميلة، جديرة بجمالها، جديرة بأن تعاش، غير أن الموت، في وقت الحاجة إليه، لا يقل جدارة، فهو وحده المنقذ، وحده الذي يضع حدًا للآلام، للعذابات المختلفة، حين يكون هناك يأس من الشفاء، وحين يكون العجز في الشيخوخة، وعندما يرغب المخلوق بالعودة إلى خالقه، لأنه لم يعد لديه ما يفعله، ما يحبّه، ما يلّذه، ما يعيش لأجله، وعندما، أيضًا، تنمو غريزة الموت، وتضمر غريزة الحياة، ويسأم الإنسان تكاليف العيش، الذي يصبح مجانيًا في حالات كثيرة، مثل الشلل وغيره، لذلك فإنني من أنصار «حبّة الرحمة» التي قال بها أحد الأطباء، فقوبل كلامه بالرفض، فهذه الحبّة تضع في ثوانٍ، حدّاً لدهر من القهر والعذاب! لست، طبعًا، من دعاة الانتحار، خاصة في الشباب، أو عزّ العمر، أو أرذله، ومرّة أخرى أردّد مع بودلير «الحياة مباركة!».

قال الوطواط:

ـ هذا هو المكر بعينه، ويا لك، أيّتها الأفعى، من ماكرة شديدة

الخبث، فأنت تباركين الحياة، وتباركين، في الوقت نفسه، الموت، وفي هذا تناقض صارخ، كان يجب ألاّ تقع فيه زاحفة تدّعي الحكمة مثلك! إنني مع نصف ما تقولين، وضدّ نصف ما تقولين، فالشفقة غير مبرّرة، الشفقة مرفوضة، الشفقة مضرّة، وأنتم جميعًا تشفقون على صالح هذا لأنه سيُعدم، ولا تشفقون على قتل حشرة هَرْسًا بالنعل أو الحجر، مع أن الروح هي الروح، وفي الاثنين معًا! فكّروا لحظة: كم نملة يقتل الإنسان بدعسة واحدة ولا يبالي؟ النملة تساوي الإنسان من ناحية الحياة، وأنتم جميعًا تبكون على الإنسان اذا دعس، ولا تبالون بالنملة إذا دُعست، فأين هو العدل في هذا؟ أين هي المساواة؟ أين هو الإخاء؟ أين هي حرّية الكائن في أن يكون، دون أن يمسّه أذى؟ تأخذون على «تراك» قسوته، تصفونه بالجلاّد، تتّهمونه بنسيان شعارات الثورة الفرنسيّة، ترون في هذا النسيان، أو هذا التّجاهل، عارًا، ولكنكم تنسون وتتجاهلون عاركم، لا في قتل الطيور، أو الزواحف، أو حيوانات الغاب، أو الأحياء المائيّة فقط، وإنما بقتل الإنسان أيضًا، بقتل بعضكم بعضًا في كلّ ساعة من ليل أو نهار.. جلاّدون أنتم، وبغير رحمة، وتأخذون على «تراك» أنه جلاّد، وبرحمة أيضًا، لأنه هو، تراك، من أغضى على فعلة بو غدير في إيصال الطعام والماء والدواء إلى صالح في زنزانته.. مراؤون أنتم في إشفاقكم، وفي تأثُّركم، وفي دموعكم على إعدام هذا المجرم الذي هو صالح، والذي هو دعبس قبلاً، والذي يكره نفسه لما في هذه النفس من سخف وخساسة ونذالة! دعبس هذا لا يكره نفسه من توبة بل من ندم، ولكن بعد فوات الأوان!

قالت البومة للوطواط:

ـ سلمت يا حليفي، فهؤلاء..

فجأة توقّفت البومة عن الكلام، انسلّت الأفعى لتحتمي بين رجلي كاترين، اختبأ الوطواط في أعماق حفرة الجدار، اختفت السوسة، تخفّت في مكانها السرّيّ، استعدّت العنقاء للتحدّي، عجب صالح من مرور غراب أسود كالسهم من النافذة، حوّم الغراب، صفق بجناحيه الأسحمين، حطّ على عمود المشجب وهو يقول:

ـ أشمّ في هذه القاعة، رائحة جيفة اجتذبتني!

ردّت العنقاء:

ـ حاسّة الشمّ لديك فاسدة أو كاذبة!

قال الغراب:

ـ كنت هناك، في فضاء ساحة الإعدام، وحاسّة الشمّ لديّ صادقة.

ـ وماذا جئت تفعل هنا؟

ـ أصطاد!

ـ الصيد لا يكون من المقلاة.. ارجع من حيث أتيت!

ـ ليس قبل أن أنعق أداءً لمهمّتي!

ـ مهمّة غراب البَيْن؟

ـ وماذا في ذلك؟

ـ البين لن يقع!

ـ انتظرُ حتى يقع.. النابغة الذبياني قال: «تفراق الأحبّة في غد!».

ـ غدًا هو اليوم، و«تنعاق الغراب الأسود» لا يقدّم أو يؤخّر.

ـ بلى! يقدّم ويؤخّر.. أنا هو «هادم اللذات ومفرّق الجماعات!».

ـ الموت من يهدم ويفرق لا أنت..

ـ وإذا كنت، في تنعابي، نذير هذا الموت؟

ردّ الوطواط من مكمنه:

ـ تكون قد جئت في أوانك!

أضافت البومة:

ـ وتكون قد جئت صديقًا، وبك تتقوّى جبهتنا!

قالت العنقاء:

ـ جبهة الشرّ!

ردّت البومة:

ـ لولا الشرّ ما كان الخير.. لا تنسي ثنائيّة الوجود، أيتها المتغندرة ولا من تتغندرين له.. هل صدّقت أنك رمز الجمال!؟

ـ لماذا لا أصدّق إذا كنت أنت رمز القبح، وهذه ثنائيّة كَوْن أيضًا!؟

صاحت كاترين الحلوة:

ـ كفى! دعونا نسمع بقيّة القصّة.. كيف كان إعدامك يا صالح، على المشنقة أم بالرصاص؟

قال:

ـ لا بهذه ولا بذاك.. كان القصد إرهابي، وقد أحكموا مسرحية

الإرهاب هذه إلى درجة أنني صدّقتها.. أعترف! كان الإخراج متقنًا: التـوقـيت، رجل الدين، المشنقـة، أنشـوطتـهـا، صفّ الجنود وعلى مناكبهم السلاح، ولم يبق إلا التنفيذ.. الا كلمة واحدة ويُقضى الأمر، لكن هذه الكلمة تأخّرت، تأخّرت جدًا، وأنا مقيّد اليدين من خلاف، وفي رقبتي، فوق الكفن الأبيض، قرار إعدامي!

قال الغراب:

ـ نعم! نعم! أنا شاهد على ما يقول.. لكنني استعجلت قليلاً، حسبت أن الأمر قد قضي، وكنت في ذلك على خطأ مرتين: الأولى استعجالي مدفوعًا بجوعي، والثانية غفلتي عن حقيقة أن الذي يعدم في البحر، يكون طعام القروش وليس طعام الغربان.. مع ذلك، ولعلمكم جميعًا، أن صالح هذا كان متماسكًا، وقد أجاب، عندما خيّره «تراك» بين الموت على المشنقة أو الموت رميًا بالرصاص:

ـ الأمر لدي سيان! هل أنا صادق يا صالح؟

أجاب صالح:

ـ صادق أيّها الشوحة! كان الأمر، بالنسبة إليّ، سيان فعلاً، فقد تتعدّد الأسباب.. لكن الموت واحد! ليس من مخلوق يموت مرّتين، وإني لأستغرب ما دام الأمر كذلك، لماذا يخاف المخلوق من الموت؟ إنه منذور له، لمرّة واحدة، مرة واحدة فقط لا غير، ومع ذلك خفت من الموت كغيري، خفت لأنني بشر، ولأن الذي لم يكن بشرًا مثلنا، خاف أيضًا، فقال وهو على الصليب: «أبتِ، أبتِ! لماذا تركتني؟» إن الخوف ليس من الموت، بل من احتضار الموت، من عذاب الحشرجة، ومن

العدم الذي يصير إليه الميْت، عندما يوضع في ظلمة القبر، وفوقه تراب وحجارة، لذلك قال جوريس: «مَنْ لا يخاف ظلمة القبر، لا يخاف شيئًا» وهنا كلّ المسألة! هنا الامتحان الصعب، هنا الفارق بين الإنسان وما عداه، فالحيوان لا يفكر بالموت وما بعده، وإذا كان يضطرب، ويقاوم، عند ذبحه، فإنما بدافع الغريزة، غريزة حبّ البقاء التي هي أقوى غرائز الكائن الحيّ، وقد قال الشاعر: «الطير يرقص مذبوحًا من الألم» هذه الرقصة هي الاحتضار، ومن أجل اختصار هذا الاحتضار أوْجدوا «طلقة الرحمة!» ومن المعيب أنهم طبّقوها، حسب علمي، على الإنسان فقط!

أضاف صالح:

ـ حاولت النظر في عيني بو غدير فلم أفلح، كان هذا الشابّ عميق السمرة، مطرقًا، فتساءلت ما اذا كانت مساعدته لي ليلة أمس قد اكتشفت، وأنه عوقب عليها، لكنني لم أصل إلى اكتشافِ أثر ذلك عليه، وحقيقة ما جرى معه، وهل هو حزين لموتي، أم أنه يرى عملية إعدام للمرة الأولى، وتذكّرت مشهد إعدام ذلك اللّصّ، وبكاءه، وصراخه، وتهاويه، عند وضع الأنشوطة في عنقه، فقرّرت خنق كلّ شعور بالضعف في ذاتي، وصرف النظر عن التطلّع نحو بو غدير، حتى لا أورّطه أكثر، وقلت في نفسي: «لا بدّ أنه يدرك ما كان لمساعدته من وقع طيّب في نفسي.. وهذا يكفي» وعندما تقدّم «تراك» مني وهو معه، استشعرت، لا أدري لماذا، بالراحة، ولعلّني، في تلك اللحظات الأليمة، المؤلمة، أنِست به كعربيّ، بسبب من قرابة الأخوّة، ومن شراكة الدم، ومن كونه شاهدًا، سيروي، بطريقة ما، قصّة

إعدامي، فيعرف أهلي، أولادي، رفاقي في الجهاد، أنني متّ شجاعًا، كما عشت شجاعًا، وفي هذا عزائي، وفيه، أيضًا، مثلٌ جيد لمن سيقفون، من بعدي، وقفتي هذه، سالكين درب الشهادة، فداء للوطن الذي لا بدّ أن يتحرّر يومًا ما، من رجس هؤلاء المحتلّين الطغاة.

طال وقوفي مقيّدًا، مسربلاً بكفني الأبيض، وطال تحديق الجلاّد «تراك» في وجهي، ليرى أثر هذه الوقفة، أمام المشنقة، عليّ، وتقدّم رقيب فرنسيّ، طالبًا منّي الإصغاء إلى قرار الإعدام، وفحواه أنني مجرم، حملت السلاح ضدّ الفرنسيين، العسكريين منهم والمدنيين، وأنني أنال جزاء إجرامي، وهوعقوبة الإعدام، وفقًا للقانون، وطبقًا لقرار المحكمة التي نظرت في قضيتي..

صحت:

ـ أيّ محكمة هذه!؟

فرقع السوط على جزمة «تراك» الذي أجاب:

ـ المحكمة الفرنسية العرفيّة!

قلت:

ـ أنت كاذب!

وبصقت عليه. أضفت:

ـ انا لم أُحاكَم امام أيّة محكمة، وكان هذا من حقّي!

قال:

ـ أنت حوكمت غيابيًا!

سألت بحدّة:

ـ كيف أحاكم غيابيًا وأنا حاضر!؟

ردّ بلا مبالاة:

ـ هكذا!

أضاف وهو يفرقع بسوطه:

ـ كان عليك أن تستأنف الحكم، لو لم تكن قرارات المحكمة العرفيّة الفرنسيّة مبرمة.

قلت:

ـ هذا عارٌ غير مبرّر يلحق بشرف «القضاء الفرنسيّ» إذا كان ما تقوله صحيحًا!

نبح تراك:

ـ لو لم تكن أمام المشنقة، وفي ساعة التنفيذ، لعلّمتك كيف تشتم القضاء الفرنسيّ، الذي لم يُشتم من قبل!

أضاف:

ـ القضاء الفرنسي مشهور بنزاهته أيّها المجرم الحقير، وهذا معروف في العالم كلّه.

قلت بانفعال:

ـ إنني أحترم القضاء الفرنسي، أحترم القضاء العادل، لكنني لا أحترم الحكم بغير محكمة كما جرى معي، بل إنني أبصق على نزاهة كهذه.. هيّا! نفّذ فيّ الحكم الغيابيّ الذي تحسبه سرًا، والذي لن يبقى سرًا في المستقبل.. إنه فضيحة مجلجلة، وهو جزء من فضيحة

أكبر، هي عدوانكم على بلد صغير، خُدع «بعصبة أممكم» وحارب، قبلاً، ضدّ تركيا، باعتبارها حليفكم!

تطاير الشرر من عيني «تراك» وهو يقول:

ـ جرّوا هذ الكلب المسعور إلى المشنقة.

اقترب جنديّان منّي، حاولا إمساكي وجرّي، رفضت، مشيت نحو المشنقة، صعدت درجات المنصّة بقدم ثابتة، أعطيت رأسي للجلاد فادخل الأنشوطة في عنقي، وعندئذ نظرت حولي نظرة الوداع، ثم أغمضت عيني، مسلمًا أمري لربّي، وانتظرت، في نوع من توفّز لا يوصف، أن يُسحب الدرج الخشبيّ من تحت قدمي، فأتدلى وألفظ أنفاسي الأخيرة. غير أن انتظاري طال، وتوفّزي العصبيّ يرسل شحنات من التوتّر المؤلم، الذي لا يطاق، في عمودي الفقري، وكياني الذي يرتعد، بعد أن أفلتّ من ضغط إرادتي، ومن سيطرتي عليه، وكان هذا أقسى من الموت نفسه، فصرخت مفتّح العينين:

ـ إلى متى يا أولاد الأبالسة؟

ردّ الجلاد:

ـ إلى أن تأتي الإشارة!

ـ ولماذا لا تأتي!؟

ـ لا أدري! هذه أغرب عمليّة إعدام رأيتها أو سمعت بها، أنا لست جلادًا محترفًا!

قال بو غدير الذي كان يقف قربي، ويترجم أقوال الجندي المكلّف بالتنفيذ لي:

ـ «تراك» هو السبب، إنه لا يعطي إشارة التنفيذ كما هي العادة، لسبب أجهله!

قلت:

ـ كي يطيل تعذيبي!

قال:

ـ هذا هو على الأرجح.

ـ ولكن إلى متى؟

ـ لا أعرف.. ها هو قادم إلينا، لا تتكلّم معي، ولكن لا تبالِ، سيعرف رفاقك المجاهدون كلّ شيء عن استشهادك، وعن تفضيلك الموت على الاعتراف.. أنت شجاع حقاً، وسأذكرك طويلاً.

قال ذلك وأدار ظهره اليّ، قلت بما يشبه الهمس:

ـ شكرًا، ومن القلب، يا أخي العربي.

صعد «تراك» إلى منصّة الإعدام، فرقع بسوطه وقال:

ـ سأعطيك، يا صالح، خيارًا أخيرًا: هل تتكلّم أم تموت؟ فكّر بعائلتك، بأولادك، بالحياة الجميلة، وبالمرأة التي تحبّها، كاترين الحلوة، أليس هذا اسمها!؟ أما قلت لك إنني أعرف كلّ شيء عنك!؟

قال صالح:

ـ ذكرتك يا كاترين! في ساعة موتي ذكرتك بكل ما في نفسي من شوق وحنان، ذكرتك أنت، قبل أهلي، قبل زوجتي وأولادي، وحتّى قبل رفاقي في الجهاد، وكان هذا غريبًا، فهذا الشيطان «تراك» لامس الوتر

الحسّاس في نفسي، وأمام الخيار الأخير، اخترت الوطن، صرت أنت الوطن، وأنت الجهاد، وأنت الزوج، والولد، صرت الدنيا كلّها، الدنيا التي أتيح لي أن أودّعها من جديد.. قلت لتراك، برباطة جأش:

ـ اخترت الموت!

ـ FOU (مجنون)!

ـ ...

ـ أنت مصرّ على عدم الكلام اذن؟

ـ ...

ـ لماذا لا تجيب؟

ـ ...

ـ حسنًا!

قال ذلك وأعطى اشارة التنفيذ، أغمضت عيني، أعمضتهما عليكِ يا كاترين، وعلى الشمس الطالعة، وعلى زرقة السماء، وزرقة البحر، والنوارس البيض، وفجأة سحب درج الإعدام الذي أقف عليه، فتدلّى جسدي، لكن الأنشوطة انحلّت من حول رقبتي، وكان هذا، في عرف الإعدام السائد، أن الله لا يريد لي أن أموت، لكن «تراك» الذي لا يعرف الله، صرخ كالمجنون:

ـ كيف حدث هذا؟ لماذا انحلّت الأنشوطة؟ هذا تدبير وليس مصادفة، هذه مؤامرة، وسيكون هناك تحقيق صارم لمعرفة من المسؤول عن هذه الفعلة!

ساد صمت ثقيل، موحش، قاتل، ارتبك الجنديّ الجلاّد، خاف بو

غدير، تملكّتني رعشة غريبة، خفت، هذه المرة، حقيقة، خفت أن تعاد عملية الشنق، وأن يعاد العذاب الذي عانيته، وأن أضعف أمام التجربة الجديدة، لإدراكي أن «تراك» لن يرعوي، ولن يأبه بالعرف السائد، عرف العفو عندما ينحلّ حبل المشنقة أو ينقطع، ولم أستطع الكلام، لجفاف شديد في لساني، في حلقي، في حنجرتي كلّها، بما فيها الحبال الصوتيّة، وبحركة لا إرادية، أشرت طالبًا الماء، طالبًا سيكارة، فرفض «تراك» الطلب، حتى أن الجلاد، رغم عدم احترافه، اجترأ على «تراك» قائلاً:

ـ هذا لا يجوز!

صاح به تراك:

ـ وما أدراك أنت بالذي يجوز والذي لا يجوز؟

قال بو غدير:

ـ العُرف سيدي! مثل هذا الطلب لا يُردّ عدْلاً، للإعدام أصول أيضًا!

ردّ تراك بجفاء:

ـ نحن، مع هؤلاء القتلة، في حالة حرب، وفي الحرب يجوز ما لا يجوز في غيرها.

أضاف «تراك» بعد أن زَوَر بو غدير:

ـ لا تجعلني أشكّ في ولائك!

قال بو غدير متحدّيًا:

ـ تستطيع إعفائي من مهمّة الترجمة، وكذلك تقديمي إلى محكمة عسكرية، العرف هو العرف، أنا أيضًا أحمل الجنسية الفرنسيّة، وأخدم في الجيش الفرنسي، ومن حقّي إبداء رأيي كإنسان درس القانون..

قاطعه تراك:

ـ وكإنسان عربيّ! أليس كذلك؟

ردّ بو غدير بجدّيّة:

ـ نعم! كإنسان عربي، مع إخلاصه لفرنسا باريس، وليس فرنسا دمشق!

ـ وما الفرق؟

ـ الفرق تعرفه، فاذا كنت تجهله فسأقوله للمحكمة، تستطيع وضع القيد في يدي أنا الآخر.

ـ وأستطيع وضعك على المشنقة، مثل هذا الكلب!

ـ هذا لا تستطيعه، وهذا المحكوم بالإعدام إنسان وليس كلبًا! انتبه سيّدي المساعد، أنت تتصرف وكأنك الجنرال غورو نفسه..

نبح تراك وهو يفرقع بسوطه على جزمته:

ـ وماذا في ذلك!؟ قل! ماذا في ذلك!؟ وماذا في وسعك أن تفعل!؟

ردّ بو غدير باللهجة نفسها:

ـ بعد إنهاء عملية تنفيذ الإعدام، ستعرف ماذا في وسعي أن أفعل!

- ١٦ -

بعد صمت قصير، للراحة من شدة التأثّر، تابع صالح حزّوم:

- كنت أسمع حوار بو غدير مع «تراك»، دون أن أفهم مضمونه، لكنّني استنتجت من لون الوجهين، ومن حركات الأيدي، ومن ذكر اسمي والتلّفت نحوي، أنهما يتناقشان في موضوعي، وأن بو غدير يحاور «تراك» بقسوة، بغضب، ويردّ عليه بعنف، كاشفًا، دون تحفّظ، أوراقه، كعربيّ، وكإنسان، وكمترجم شاهد على هذا التعذيب الذي لا مبرّر له، والذي يخالف الأعراف والقوانين، مخالفة صريحة. ولقد تمنّيت أن أكلّم بو غدير، أن أقبّله، أن أشدّ على يده شاكرًا، مهنّئاً إيّاه على موقفه الجريء هذا، لولا خوفي أن يكون كلامي مؤذيًا له، مؤدّيًا إلى توريطه، بشكل أو آخر، في قضيّتي! لذلك كتمت ما بي، بانتظار أن يبتّ «تراك» في أمري، ويأمر بتنفيذ الإعدام بسرعة.

فعلاً أمر «تراك» بتنفيذ الإعدام، ولكن رميًا بالرصاص هذه المرّة، كانت الشمس قد أشرقت، طالعة بخفر من وراء الأفق الشرقيّ، متوهّجة بين السحب البيض، مرسلة، كعروس، غدائر شعرها الذهبيّ، التي تتكسّر على الموج، فتعطيه بهاء لونيًا مضيئًا، أخّاذًا،

فاتنًا، ساحرًا، ومع كل ثانية تمرّ، كانت أشعّتها تتسلّق جانب الطّرّاد، إلى أن بلغت أطراف منصّة الإعدام، وتجاوزتها اليّ، كتحيّة أخيرة من سماء تشهد على عذابي، وصمودي، قدرتي كإنسان على مواجهة محنة، نادرًا ما عرفتها عمليات تنفيذ الإعدام، في أيّ مكان من هذا العالم.

أنزلوني من فوق المنصّة، بالحالة التي كنت عليها فوق درج المشنقة، أوقفوني قبالة صفّ من الجنود، بنادقهم مصوّبة إلى صدري.. تقدّم جنديّ ليعصب عيني بعصبة سوداء فرفضت، وقلت بصوت عالٍ:

ـ أطلقوا النار عليّ وأنا مفتّح العينين، فأنا لا أخاف!

قال بو غدير مترجمًا:

ـ هذا لا يجوز أصولاً، حتى لا تعرف من الذي يطلق عليك، ومن الذي يطلق حولك!

قلت:

ـ لم يعد هناك ما يجوز وما لا يجوز، في هذا الجحيم الذي أنا فيه، كل ما أطلبه هو الإسراع في التنفيذ.

ردّ «تراك» بوقاحة:

ـ نحن من يقرّر الإسراع أو البطء.. دعهم يعصبون عينيك أولاً.

رضخت للطلب، عصبوا عينيّ، ربطوني إلى عمود، وكان هذا من الأصول أيضًا، حتى أبقى واقفًا، فلا أنهار وأتكوّم فيصعب

التصويب علي، وقد شعرت، وأنا معصوب العينين، أنني دخلت في الظلمة نهائيًا، وأنني دفنت حيًا، وبعد قليل سأكون في تلك الحفرة الرهيبة: القبر! إذا ما قرّروا نقل رفاتي إلى البرّ، أو سأكون في أعماق البحر، وهذا هو المرجّح، بعد وضعي في كيس من خيش، مثقل بكتلة من حديد، لتأتي وتتناهبني قروش البحر، أو الأسماك المفترسة، وهذا أفضل لديّ من أن ينخرني الدود في القبر، وقد قلت في نفسي: «هذا شرف كبير لك يا صالح حزّوم، لأنك خرجت من البحر، وستعود إليه، وقد كنت ريّسًا في الحياة، وستبقى ريّسًا بعد الموت»!

لكن سوء الحظ لازمني، على المشنقة، وفي إعدامي رميًا بالرصاص، لأن إشارة الإطلاق تأخّرت مرة أخرى، ومرّة أخرى أحسست برعشة التوفّز العصبيّ في عمودي الفقري، فخفت أن تخونني أعصابي، وأن أنهار فيشمت بي ابن العائبة «تراك»، وهذا ما دفعني، وبكثير من الجهد المبذول، إلى الضغط على هذه الأعصاب، مع التوقّع الفاجع، كل ثانية، أن ينطلق الرصاص فيخترق صدري، وبعد ذلك يقترب «تراك» مني، شاهرًا مسدسه ليسدّد إلى صدغي «طلقة الرحمة»، التي وحدها تحمل اليّ الراحة الأبدية.

وقد اقترب تراك فجأة، ومعه المترجم بو غدير، ليقول لي هذا الجلاّد، عديم الرحمة، الكلام نفسه الذي قاله لي وأنشوطة المشنقة في عنقي. أجبته بعصبيّة:

ـ لقد اخترت الموت وانتهى الأمر، فلماذا تطيل تعذيبي؟ لديّ ما

أقوله، لكنني لن أقوله، مهما تفنّنت في إيذائي، وأنا أستعدّ لملاقاة وجه ربّي، افعل بي ما تشاء، ارمني حيّاً في البحر، أو أنزلني حيّاً إلى القبر، مزّق لحمي، قطعة قطعة، اقطع لساني، اسمل عينيّ، لكنني، مهما تفعل، لن أخون، ولن أعترف، ولن تأخذ حقّاً أو باطلاً منّي.

قال تراك:

ـ أفهمك! جيدًا يا وغد، تريد أن تصبح بطلاً، شهيدًا، الا أن هذا لن يصير، ستموت ميتة مجانيّة، ميتة كلب يا ابن العاهرة!

شتمته، أقذعت في شتمه، هتفت: تحيا الثورة! يسقط الاحتلال الفرنسي! قلت له:

ـ أنت جلاّد وأنا ضحيّة، لكنني أقوى، وأشرف منك، ومن حكومتك، في الحالتين، وفي وسعك أن تعذّبني قدر ما تستطيع، وأن تبقيني معصوب العينين إلى المساء، وأن تطلق كلابك البوليسيّة عليّ، إلا أنّ هذا لن يفيدك في شيء، ولن تنتزع كلمة واحدة مني، ولن ترتاح وأنا معذّب، لأنك، في فشلك، تتعذّب أكثر مني، وهذا ما أعرفه جيّدًا، لذلك أنت، لا أنا، من يختار بين العذاب وبين الراحة!

ردّ كالياتس:

ـ Bon! (حسنًا!)

ثم ابتعد، وعدت إلى الانتظار، الا أن انتظاري المؤلم لم يتأخّر هذه المرة، فقد سمعت، بعد قليل، كلمة:

ـ FEU (نار!)

«وعلى الأثر لعلع الرصاص، فغبت عن الوعي، أصبت بالإغماء بشكل عفويّ، توقعت، بعد أن عدت إلى رشدي سريعًا، أن يتفجّر الدم من رأسي، من صدري، من كل مكان في جسدي، وان يطلق عليّ «تراك» طلقة الرحمة، في صدغي مباشرة، إلا أنّ هذا لم يحدث، فقد كان الرصاص خلّبيًا، كما كانت المشنقة وهميّة، وكل هذا الذي حدث ليس سوى مسرحية لإخافتي، وقد عرفت كل هذا من بو غدير، الذي قال لي بما يشبه الهمس، وأنا أساق ثانية إلى الزنزانة:

ـ براڤو! لقد اجتزت الامتحان بنجاح، أهنئك، ولكنّ هذا ليس آخر المطاف!

«جلست في الزنزانة وبقايا الرعشة تسري في أوصالي، كان من المفروض أن أفرح ببقائي حيّاً، لنجاتي من هذه التجربة القاسية، غير أنني لم أكن فرحًا أو مكتئبًا، كنت شبه ذاهل، أتذكر ما مرّ معي، كما يتذكر النائم كابوسًا ضاغطًا، مروّعًا، استيقظ بعده وهو يصرخ، أو يبسمل، شاكرًا الله لأن ما رآه كان كابوسًا وليس حقيقة. ولم آبه كثيرًا بما سمعته من بو غدير، حين قال لي: «هذا ليس آخر المطاف!»، فمن يمرّ بتجربة الموت مرتين، لا يكترث بأيّ تجربة أخرى، مهما تكن قاسية، لأنها أقلّ قسوة من وضع حبل المشنقة في العنق، أو وضع العصبة على العينين وأفواه البنادق مصوّبة إلى الصدر، والمحكوم ينتظر تنفيذ الإعدام، بعد أن ودّع الدنيا وأيقن أنه صار في الأموات!

«العدم! آه ما أقسى العدم! آه ما أقسى الموت وفراق الحياة! آه

مـا أوجـع الاحـتـضـار، اذا كـان المحـتـضـر صـافي الذهن، يعـرف أنه ينازع، وهو يرى إلى أحبَّته من حوله دون أن يستطيع أن يكلّمهم، أن يقـول لـهم إنه راحل، أن يشكو إليـهم مـا به، أو أن يفكر في القـبـر وظلمتـه، وفي إطباق التراب والحجارة من فوقه، وأن يتصوّر الدود ينغل في جسده ويأكل عينيه، وألا يكون في وسعه اختصار النزع، وإطباق الجفون مرة وإلى الأبد، حيث النوم ثم لا شيء!

«أنا، هذا الصّباح، كنت هذا المحتضر، هذا الذاهب إلى الموت، إلى العـدم الذي جئت منه، والآن إليـه أعـود، وقـد فكّرت، وأنشـوطة المشنقة في عنقي، كيف سيكون اختناقي؟ وهل يطول؟ وهل سأحسّ به، طال أم قصـر؟ وكيف سألفظ أنفاسي الأخيرة؟ وهل سيشدّني الجلاّد من رجليّ إلى أسفل، كما فعل ذلك الجلاّد، مع اللّص!؟ وقد سيطرتْ عليّ هذه الأفكار برغمي، طاردة كل مـا عـداها، لشـدّ مـا حاولت إبعادها، نفيها، تجاهلها، نسيانها، لكنني أخفقت! أعترف. أخفقت! وكان «تراك» يعرف، من المؤكد أنه كان يعرف، لذلك أطال في إعطاء إشارة التنفيذ، لإطالة عذابي، الا أنّ صدقي مع نفسي، ومع قضيّتي الوطنيّة، أمدّني بالعزم الكافي لاحتمال هذا العذاب، الذي لم يكن ذاته حين عصبـوا عيني! ومـرة أخـرى عـمـد «تراك» والبنادق جـاهزة للإطلاق، إلى هـذا الأسلوب القـذر، على أمل أن أنهـار، أن أتكلّم، فلم يتحقّق غرضـه، وانكشفت المسرحيّة الأولى، فـهل هناك مسرحيّة ثانيـة؟ ومـا هي؟ وبأية طريقـة ملعونة ستنفّذ؟ هذا مـا لا أعرف، لكنني أعرف، نعم أعرف، أنه بعد مسرحيّة الإعدام، ليس من مسرحيّة تخيف.

«هكذا، تدريجياً، رحت استشعر فرحًا مبهمًا، ومع الفرح، حتى في إبهامه، استشعرت المزيد فالمزيد من الراحة، وعندما آتوني بالطعام والماء، عببت الماء عبّاً، وطرقت على باب الزنزانة طالبًا المزيد منه، فلما اكتفيت، وتلاشى، رويدًا رويدًا، ذلك التوفز، تمدّدت على أرض الزنزانة ونمت، راغبًا عن الطعام، متمنّيًا نومًا عميقًا، لم أفز به مع الأسف، لأن نومي كان متقطّعًا، تخلّلته كوابيس كانت كامنة في اللاشعور، هاجعة مع اليقظة، منبثقة مع الرّقاد. وحوالي الظهر فُتح باب الزنزانة، فأجفلت للوهلة الأولى، متسائلاً في ذاتي عما هناك، وما إذا كان أوان المسرحيّة الجديدة قد آن، إلا أن بو غدير كان في الباب، ومعه محقّق برتبة ملازم أول، ابتسم لي متودّدًا، قائلاً بنبرة هادئة:

ـ لا تخف!

أجبته وأنا أنهض بصعوبة:

ـ لم يعد هناك ما يخيفني.

قال المحقّق كلود:

ـ هذا بسبب حماقة «تراك»!

سألته بجفاء:

ـ وماذا تريد أنت أيضًا؟ وما هي الحماقة الجديدة؟

أجابني منبّهًا:

ـ أنا غير «تراك» وآمل ألا تخلط بيننا، الملازم بو غدير يعرف

مهمّتي، وقبل ذلك يعرفني، نحن حقوقيون، رجال قانون، ونفهم دوافع حملك السلاح ضدّنا، وكل ما نريده حديث قصير، صريح معك، في مكتبي، وقبل الشروع في التحقيق، الذي هو عبارة عن أسئلة وأجوبة بين صديقين، إذا ما اعتبرتني صديقًا لا عدوًا مثل هذا الوغد «تراك». سيتحدّث معك الملازم بو غدير، وهو عربيّ مثلك، إذا ما وضعنا الجنسية الفرنسية جانبًا، والعربيّ يسرّ بالحديث مع عربيّ، أليس كذلك:

تفرّست، بقدر ما أسعفني بصري المجهد، في وجه المحقّق كلود فوجدته بشوشًا، ناعمًا، أصهب الشعر، عسليّ العينين، يحاول، بقامته المعتدلة، الأقرب إلى النحافة، أن يكون رقيقًا، لطيفًا، ودودًا، وبعد أن تأمّلته برهة قلت:

ـ الملازم بو غدير لم يكن سيّئًا، قاسيًا معي، بخلاف تراك، ومع ذلك أفضّل أن تبدأ بالتحقيق، دون اجراء أيّ حديث مع غيرك.

سألني:

ـ لماذا؟ هل تشكّ بالملازم بو غدير؟

ـ بو غدير فرنسي قلبًا وعقلاً، ورغم أنه لم يكن شريرًا في معاملتي، واقتصر دوره على الترجمة خلال لعبة الإعدام القذرة، فإنني لا أرى موجبًا للحديث معه على انفراد أو بحضورك.

ـ كما تريد، لكنني أنصحك بالتحدّث إليه، ومعه، قبل الشروع في التحقيق.

ـ وأنا أرفض النصيحة!

ـ لماذا؟

ـ لإحساسي بالنفور منه!

ـ وإذا قلت لك إنه تعارك، كلاميًا، مع تراك لأجلك؟ وإذا بحث بالسرّ وقلت لك أيضًا إنه قدّم ضدّه تقريرًا خطيرًا إلى القيادة؟

ـ أجيبك أن هذا كلّه لا قيمة له عندي!

ـ وإذا دعاك إلى فنجان من القهوة بحضوري؟

ـ لا بأس بذلك، ما دام بحضورك!

ـ غريب!

ـ ما هو الغريب؟

ـ هذا الموقف من الملازم بو غدير، مع أنه يترجم بيننا! لماذا تكرهه إلى هذا الحدّ؟

ـ ما أدراني أنه يترجم بأمانة؟ أما الكره والحبّ فإنهما لا يكونان بين السجين والسجّان!

تكلم كلود مع بو غدير، قال له شيئًا مضحكًا كما يبدو، وبعد أن فرغ من الحديث معه، التفت إليّ وقال:

ـ هيّا معنا، ودون قيد في اليدين، كعلامة ثقة، أرجو أن تكون متبادلة.

خرجت من الزنزانة، سرت بين الاثنين، لم أكن أعرف الوقت، إلا أن الشمس لم تكن عمودية تمامًا، استمتعت بدقائق من الحريّة، أردتها أن تطول، كان البحر هادئًا، والطرّاد يمضي إلى أمام، مع

اهتزاز خفيف، والسماء زرقاء، عالية جدًا، ولا أثر للنوارس، مما يدل على أننا بعيدون عن الساحل، وأننا نتجه شمال شرق، لا أدري إلى أين، ولا يجوز أن أسأل، حتى لا أبدو مكترثًا، أو راغبًا في معرفة إلى أين يأخذونني، دون أن تفوتني ملاحظة الحراسة، من أمام ووراء، خشية أن أهرب، وأن اقفز إلى البحر، في مغامرة مجنونة، إلاّ أنها واردة، وعندما نزلنا سلّمًا، ودخلنا مكتب المحقّق كلود، سبقنا وجلس وراء مكتبه، وجلسنا، بو غدير وأنا، على مقعدين متقابلين، ملاصقين للمكتب الفخم، في قاعة متوسّطة الحجم، مزدانة بالعلم الفرنسي ومعه بعض الصور لقطع حربية، ووراء المكتب مباشرة، صورة كبيرة، لشخصية بثياب مدنيّة، لا أعرف من هي، قدّرت أنها صورة للرئيس الفرنسي، الذي ربما نسيت اسمه، أو أنني أجهله، لاختلاط الأشياء والأسماء عليّ.

شربنا القهوة مع الماء البارد، دخّنت سيكارة كلواز، وهي السيكارة الأولى التي ادخّنها منذ قبضوا عليّ، وقد قدّم المحقق كلود علبة كاملة، وقال لي:

ـ يمكنك الاحتفاظ بها، إذا أردت.

«قلت شكرًا، واحتفظت بها، واستأذنت في أن أدخّن سيكارة أخرى من العلبة التي أمامي، فقال المحقّق كلود:

ـ تفضّل، وبسرور!

«تفضّلت، دخّنت بشراهة، انتظرت، دون انفعال، أن يبدأ التحقيق، لكن جرس الهاتف رنّ، فاستأذن المحقّق كلود وخرج، بعد أن أغلق

الباب وراءه.. بقينا، بو غدير وأنا، متقابلين، ينظر أحدنا إلى الآخر بغير كلام، مع ابتسامة مودّة وتشجيع، ارتسمت على وجه هذا الأخ العربيّ، المغاربي، الذي التقيته مصادفة، وفي أصعب الظروف التي مرّت علي في حياتي!

بعد لحظة صمت قال لي بو غدير:

ـ أنا من تونس، لكنني أعيش مع والديّ، منذ طفولتي، في باريس، وقد اكتسبت الجنسيّة الفرنسيّة لأن والدتي تونسيّة، ووالدي فرنسيّ.

أضاف:

ـ إنني عربيّ من ناحية الأمّ، ودمي عربيّ مثل كل المغاربة الذين يعيشون في فرنسا، وقد مات والدي وأنا صغير، فربّتني امّي على محبّة العرب، هؤلاء الذين هم في محنة، سواء كانوا في المغرب أو المشرق، بسبب الاحتلال، أو الانتداب الفرنسي، الذي يسعى لفرنستنا!

التزمت الصمت، كنت راغبًا أن أسمع، أن أعرف أكثر عن هذا الأخ العربيّ، الذي وضعتني الأقدار في طريقه، لكن بو غدير لم يرتح لصمتي، فسألني:

ـ هل تشكّ فيّ حقيقة؟

ابتسمت وقلت:

ـ ماذا ترى أنت؟

قال:

ـ أنت أحد اثنين: شكّاك كبير، أو داهية كبير!

أجبته:

ـ لا هذا ولا ذاك، كل ما في الأمر أنني خائف عليك، فاحذر أن تنكشف صلتك بي.

ـ وأنت؟

ـ أنا مصيري معروف، لا يفيد فيه الحذر أو الخوف، قصّتي طويلة، وأنا هنا لأنني حملت السلاح ضدّ الفرنسيين المحتلّين في سورية.

ـ لديّ سؤال محدّد، أنت حرّ في الإجابة عنه، أو عدم الإجابة: هل حقيقة أنت رئيس جماعة من الثوار، وأنّ لك صلة مع الشيخ صالح العلي، ومع ابراهيم هنانو، وأنّك تعرف أسرارًا خطيرة؟

ـ لا! هذا غير صحيح!

ـ التقارير التي لديهم تقول هذا!

ـ ومن كتب هذه التقارير؟

ابتسم بو غدير وقال:

ـ عملاؤهم من السوريين طبعًا!

ـ وكم يدفعون على التقرير؟

ـ لماذا؟

ـ لأنّ الذين كتبوها باعوهم بضاعة مغشوشة، وقد كبّروا المسألة، كي يكبر الأجر!

ـ ألم تكن ريّسًا؟

ـ كنت، ولكن في البحر!

ـ وفي الجبل؟

ـ حملت السلاح كغيري!

ـ وخاطرت بروحك لإطعام غيرك!

ـ هذا صحيح.. الفرنسيّون لديهم سفن شحن ضخمة، وقد احتكروا النقل، حتى بين المرافئ العربية، فتعطلّت مراكبنا الشراعيّة، وجاع البحارة وعائلاتهم!

ـ وأنت من أطعمتهم؟

ـ أنا قدّمت لهم يد المساعدة فقط!

ـ ولأنك فعلت ذلك فقد صرت محبوبًا، صرت ريسًا في البرّ أيضًا، ولذلك لحق بك الشباب إلى الجبل، وحملوا السلاح معك ضد الفرنسيّين!

ـ هذا لم يحصل!

ـ وبيننا؟

ـ لم يحصل أيضًا!

قال بو غدير وهو يتفرّسني:

ـ أنت حذر حتى معي، وهذا جيّد، كن حذرًا مع المحقّق كلود أيضًا، إنه ثعلب!

ـ أدركت ذلك!

ـ كيف؟

ـ من لطفه الزائد، التجارب علّمتني الحذر من اللطفاء أمثاله، لأنهم خبثاء غالبًا، وأنا أفضّل «تراك» عليه.

ـ ذاك الجلاّد!؟

ـ الذي كلّ ما فيه يقول «إنني جلاد!» أما كلود فإنه صفحة غير مقروءة!

ـ بالمناسبة، هل تقرأ وتكتب أنت؟

ـ بشكل لا بأس به.

ـ وتعرف الفرنسيّة؟

ـ أفهمها قليلاً.. كنت أعاشر البحّارة الفرنسيّين، ومنهم تعلّمت أشياء كثيرة، وفهمت لماذا نحن محتلّون، ولماذا نحن فقراء، وضرورة الكفاح في سبيل التحرّر والتقدّم.

فكر بو غدير قليلاً، ابتسم وقال:

ـ الآن فهمتك جيدًا، وفهمت صمودك، الوعي والقضية، والموت، وبعد ذلك، يصبح مقبولاً!

أضاف:

ـ تعرف لماذا أنا هنا؟

قلت بغير تردّد:

ـ أعرف!

ـ من أخبرك؟

ـ وعيي، استنتاجي بعد إلحاح المحقّق كلود على أن نتحدث، بماذا نتحدث؟ ليس حول المرأة الفرنسيّة، نبيلة كانت أم من شارع بيغال..

ـ هل تعرف شارع بيغال أنت؟

ضحكت وقلت:

ـ طبعًا لا! لكنني سمعت عنه، وسأزوره غدًا أو بعده، عندما تطلقون سراحي في مرسيليا!!

ـ تريد أن نطلق سراحك؟

ـ طبعًا لا! قل هذا، يا أخي، لمن طلبوا منك أن تجسّ نبضي.. ما هو السؤال الثاني؟

ـ أن تعرف أن مهزلة الإعدام ليست كلّ المسرحية.. إنها فصل منها فقط، فهل ستظلّ مصرًا على عدم الاعتراف؟

ـ قل لهم: نعم!

ـ إذن انتهت مهمّتي.. لم يبق إلاّ أن أشعل الضوء على الباب ويدخل المحقّق، هل أنت مستعدّ؟ ولكن دعني أقبّلك أولاً.

نهضنا، تعانقنا، كدت أبكي تأثّرًا، أنا الذي لم يتغرغر الدمع في عينيّ، أمام المشنقة، وأمام البنادق، ولما شدّ أحدنا على يد الآخر، قلت:

ـ شكرًا يا أخي، أشعل الضوء.

دخل المحقّق كلود، تسبقه ابتسامته الثعلبيّة، فلما جلس على

مكتبه، وضع بو غدير أمامه ورقة صغيرة، كتبها على عجل، فلما قرأها المحقّق طرأ تغيّر طفيف على ملامحه، لكنني لحظته وتظاهرت بأنني لم ألحظ شيئًا، فلما قدّم لي سيكارة وأشعلها، شكرته وقلت:

ـ أنا من الذين يأسرهم اللّطف!

قهقه المحقّق كلود وقال:

ـ أنا أيضًا مثلك، وهذا يعني أننا، الآن، صديقان، وسنتكلم بصراحة وحميميّة، موافق؟

هززت برأسي أن نعم. قال كلود:

ـ من عادتي، قبل الشروع في التحقيق، أن أزيح جانبًا كلّ التحقيقات السابقة، وهذا يعني أننا الآن في نقطة الصفر ومنها نبدأ.. ما هي قصّتك؟ قل فقط ما تريد أن تقوله، دون إكراه من أيّ نوع.

قلت:

ـ هل تسمح لي بسؤال؟

ابتسم كلود وقال:

ـ في العادة أنا من يسأل لا أنت! مع ذلك لا بأس، ما هو سؤالك؟

ـ هل تحبّ فرنسا؟

ضحك وقال:

ـ طبعًا!

قلت:

ـ وأنا أحبّ سورية!

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ التماثل!

ـ لم أفهم!

ـ بلى! فهمت! أنت تحبّ بلدك وأنا أحبّ بلدي، ولو كنت مكاني لفعلت نفس ما فعلته أنا، وكنت، في هذه الحال، تسمّي ما تفعله نضالاً في سبيل التحرير، وأنا مثلك تمامًا.

رازني، نظر إليّ بمكر، أدرك أن سؤالي كان ملغّمًا، وأن اللغم انفجر فيه، وأنه، الآن، في حرج.. لذلك راح ينقر على خشب مكتبه بأصابعه، ويفكّر في الوسيلة الناجعة لاستدراجي، دون أن يدعني أكتشف خبثه، وبعد أن رسم ابتسامة مبتسرة على شفتيه قال:

ـ سؤالك كان في محلّه تمامًا، وقد أجبتُ عنه بصراحة، وهذه بداية جيّدة، تعني أننا سنتفاهم بسهولة، ولكن المسألة ليست في أن كلاً منا يحبّ بلده، وأنه يناضل لتحرير هذا البلد، المسألة هي عن أيّ تحرير تتكلّم؟ هذا أولاً، وثانيًا لماذا نحن في سورية؟ وبأيّ مهمّة نقوم؟ وبتكليف ممن؟

قلت:

ـ أنتم في سورية تنفيذًا لمعاهدة سايكس ـ بيكو، التي تعرفها أنت كما يعرفها الجميع، بعد أن نشرتها الصحف، وكشفها، قبلاً، المسكوب، بعد ثورة أوكتوبر، وهذه المعاهدة تنصّ على تقاسم البلاد العربية، بين فرنسا وبريطانيا، وهذا ما تمّ فعلاً!

نهض عن مكتبه ودار حولي... يبدو انه لم يكن يتوقّع هذا الجواب، ولم يكن يخطر في باله أنني مطّلع على هذه المعاهدة، أو أنني سمعت بها، فأنا في نظره لست أكثر من قاطع طريق، كنت قبلاً أعمل في البحر، وبعد أن حملت السلاح قتلت لأجل النهب، ثم تحولّت إلى لصّ، يسرق تنكات الكاز من الباخرة الفرنسية الجانحة، بحجّة مساعدة الآخرين، الذين يسكنون حيّ الصاز (المستنقع)! فجأة سألني:

ـ سمعت بعصبة الأمم؟

ـ سمعت.

ـ ما رأيك فيها؟

باغتني السؤال.. انا أيضًا لم اكن أتوقّع الدخول في أمور السياسة، لكنني تذكّرت، بين جملة اشياء، ما كان يقال في الحيّ، على لسان بعض الذين تطاردهم السلطة، لأنهم مع بلاد المسكوب، ووجدتني أقول:

ـ عصبة الأمم جمعية أنشأتها الدول القويّة، التي انتصرت في الحرب على المانيا.

ـ وما رأيك بقراراتها؟

ـ قرارات لمصلحة الذين أوجدوها.

ـ وقرار الانتداب؟

ـ ما معنى الانتداب؟

ـ تسأل وأنت عربيّ، ومن المفروض أنك تفهم اللغة العربيّة.

ـ أنا إنسان بحّار ولست سياسيّاً، ولا أفهم لغة السياسة، أرجوك أن تشرح لي: ما معنى كلمة الانتداب؟

اتكأ المحقّق كلود بيديه الاثنتين على مكتبه، ونظر في عينيّ بعد أن مدّ رأسه نحوي، في حركة تهديديّة، مبطّنة بالنعومة والهدوء، وقال:

ـ انت، يا صالح، إنسان رائع حقّاً!

قلت:

ـ انا لا أستحقّ هذا الإطراء!

ـ هذا اكتشاف وليس إطراء.

ـ اكتشاف منذ متى!؟

أجاب مبتسمًا، مع نبرة حسم:

ـ منذ بدأت تضع أوراقك تحت الطاولة!

أضاف:

ـ انتهى التحقيق في هذه الجلسة، التي كانت للتعارف أصلاً، الجلسة الثانية بعد الظهر، وتذكّر أنني معجب بك جدًا!

قلت:

ـ شكرًا، سأتذكر كلماتك هذه مسرورًا.

ـ اذن نحن صديقان؟

ـ وبكل معنى الكلمة!

ـ ١٧ ـ

قالت كاترين الحلوة لصالح حزّوم:

ـ أنا أكاد لا أصدّق ما أسمع، هل مررت بكل هذا العذاب، وكانت لك القدرة على التحمّل؟

قال صالح:

ـ الانسان، مع الإرادة القويّة، له طاقةٌ لا تنفد على المقاومة.

ـ ومن أين لك هذه المعرفة، اذا لم تكن سياسيّاً كما تقول؟

ـ البحّار من أكثر الناس اطّلاعًا، إضافة إلى أنه كان معنا، في الجبل، رجل حقوقيّ وسياسيّ قدير.

ـ أين درس الحقوق وهو من حيّ الصاز (المستنقع)؟

ـ درس الحقوق في الآستانة، وكان من أسرة ميسورة، لا علاقة لها بحيّنا، وقد حمل السلاح، كغيره، بدافع وطنيّ.. أمثاله كانوا كثيرين في الجبل، وقد عشنا معًا كرفاق سلاح.

ـ وهل كنت أنت الريّس فعلاً؟

ـ كنت أقود المعارك، وأنظّم الكمائن، وكان هناك من يدرّب على

السلاح، وهناك، أيضًا، من يتولى الأمور السياسيّة، ويقوم بمهمة ضابط الارتباط بيننا وبين الثوّار الآخرين، في جبال القدموس، وفي أرياف حلب، أي مع جماعة الشيخ صالح العلي، وجماعة ابراهيم هنانو، كان التنسيق بيننا ضروريًا!

قال الوطواط:

ـ هناك أمر لم تذكره يا صالح، وهو أنّك كنت مغامرًا، ومتهوّرًا، ولا تتقيّد بتعليمات القيادة، لذلك رصدوك وقبضوا عليك.

قال صالح:

ـ هذا صحيح من ناحية واحدة، هي العمل لمساعدة الجياع في الحيّ، كانوا أهلي، وكنت ملزمًا بهم، ووجدت الطريقة الملائمة لمهاجمة الباخرة الجانحة، دون موافقة القيادة!

قالت البومة:

ـ وهكذا نلت جزاءك!

ـ نعم!

قال الغراب:

ـ كنت هناك، وكان القتلى، أحيانًا، يتساقطون، وكانت الجِيَفُ كثيرة، وكذلك الشوحات، ولم نكن نجوع في تلك الأيام، التي نتحسّر عليها الآن.

قالت السوسة:

ـ مصائب قوم..

أكمل الوطواط:

ـ عند قوم فوائد، وهذا جيّد، الحرب جيّدة، والسلم رديء، ما رأيك يا حليفي الغراب؟

قال الغراب:

ـ رأيي أنني جائع، وليس من جيفة هنا كما كنت أظن.. متى تخرج من حفرتك؟

ـ لتأكلني؟

ـ لأتفرّج على جمالك فقط!

ـ لماذا لا تأكل غيري؟

ـ لأن لحمك شهيّ، ولأنني أنتظر فرصتي!

قالت العنقاء:

ـ فرصتك لن تسنح أبدًا، تستطيع الانصراف..

ردّ الغراب:

ـ ليس قبل أن أعرف مصير صالح هذا، فقد يُقتل فجأة، وعندئذ تكون الوليمة دسمة!

قالت السوسة:

ـ وقاحة!

قال الغراب:

ـ أنت لا شأن لي معك.. لا يشبع الشوحة سوى الجيفة المحرزة،

لذلك نشكل مظلّة سوداء فوق رؤوس المتحاربين.. متى ستُعدم يا صالح؟

قالت كاترين:

ـ صالح لن يُعدم أبدًا، أليس كذلك يا حبيبي؟

قال صالح:

ـ بلى يا كاترين، ولكنني، فوق ذلك الطرّاد، تمنّيت أن أعدم وبأسرع ما يمكن!

ـ حتى بعد نجاتك من المشنقة والرصاص!؟

ـ حتى بعد نجاتي من هذا البلاء، لأن البلاء الأعظم كان ينتظرني، وكنت أعرف ذلك، وأفكّر فيه بعد عودتي من التحقيق إلى الزنزانة.. بو غدير قال لي من كوّتها:

ـ اغرقت نفسك يا أخي، أظهرت أكثر مما ينبغي من الذكاء، لماذا فعلت هذا؟ لو اكتفيت بالقول إنك واحد ممّن حملوا السلاح، لكان ذلك أفضل.. المحقّق كلود قال لي عنك: هذا رجل خطير جدًا، إنه سياسيّ، وعسكريّ، وقائد جماعة، ويخفي أسرارًا كثيرة، ينبغي انتزاعها منه بالحوار، باللّطف، وإلاّ لجأنا إلى التعذيب، وإلى القسوة..

سألت بو غدير:

ـ بماذا تنصحني:

أجاب:

ـ فات أوان النصيحة.. إنني هنا بتكليف من القيادة، ومهمّتي قذرة: إقناعك بالاعتراف!

قلت بنبرة حسم:

ـ ليس لديّ ما أعترف به.

سألني:

ـ هل هذا قولك الأخير؟

أجبت:

ـ بكل تأكيد!

ـ إذن كان الله في عونك، وأنا واثق من شجاعتك، ومن صمودك.. إلى اللقاء!

ـ إلى اللقاء يا أخي الذي لم تلده أمّي!

جلست في زنزانتي أفكّر، كنت لا مباليًا بالموت، أما التعذيب فشيء آخر، التعذيب رهيب، يحتاج إلى قدرة احتمال غير عاديّة، وعليّ، منذ الآن، أن أستعد له نفسيّاً، وقد أكون أخطأت في التحقيق، ولا بدّ من دفع الثمن، لكنني، من جهة أخرى، كنت أدافع لا عن نفسي فقط، وإنما عن وطني أيضًا، وقد نجحت في إفهام هذا المحقّق المتذاكي، أن الوطنيين السوريين، الذين يحملون السلاح، لا يقلّون ذكاء عنه، وأنهم يعرفون هذه الكذبة التي اسمها «عصبة الأمم»، ولماذا فرنسا في سورية، ويعرفون، أيضًا، ما هي القضية التي يحملون السلاح لأجلها، وأنهم بسطاء، من أبناء هذا الشعب، ومن

فئات مختلفة فيه، لكنهم جميعًا يدركون خدعة الانتداب، التي يختبئ الاحتلال في ثيابها!

في الساعة الخامسة بعد الظهر، كنت في مكتب المحقّق كلود، وكان معه بو غدير المترجم، ورجل في لباس مدنيّ، لم أعرف من هو، جاء ليحضر التحقيق ويأخذ فكرة عني على الأرجح، وقد لاحظت أنه جامد الملامح، ثاقب النظرات، وأنه لا يدخن، يضع رجلاً على رجل، في لا مبالاة تامّة، وهو يراقب بدقّة كلّ حركة تصدر عني، كأنما مهمّته سبر ما في نفسي، وتقدير الجانب السياسيّ من قضيّتي، والتفريق بين الصدق والكذب في أقوالي!

قدّم لي المحقّق كلود سيكارة، كنت أتمنى فنجانًا من القهوة وكأسًا من الماء، لم أطلب ذلك، كبتّ شهوتي، حولّت نظري عن المترجم بو غدير، راقبت من طرف خفي ذلك الرجل الذي لا يبتسم، لا يتحرّك في جلسته، لا يتكلّم مع أحد، كأنه تمثال من شمع، لم أخف منه، كرهته فقط، ابتسامة المحقّق هي نفسها، لطفه ذاته، سألني وهو يشعل سيكارة:

ـ هل ارتحت، هل نمت، هل من طلب خاصّ؟

قلت:

ـ شكرًا، كل شيء على ما يرام.

قال:

ـ انتهت جلسة ما قبل الظهر ونحن صديقان، آمل أن نكون كذلك الآن أيضًا، وأن نتكلم بصراحة وصدق، لأن هذا مريح لنا من كل الوجوه.

أضاف:

ـ قلت إنك اطّلعت على معاهدة سايكس بيكو، وأن عصبة الأمم هي جمعية الدول القوية المنتصرة، وأن مهمّتنا في سورية هي تكليف من عصبة الأمم، وغايتها الأخذ بأيدي السوريين وتأهيلهم لنيل الاستقلال ثم نرحل، ونحن نتفق معك في كل هذا، ونتفق مع السياسيين أمثالك إذا كان هذا رأيهم أيضًا، فهل يمكن تسميتهم أولاً، وكيفية الاتصال بهم ثانيًا؟

أجبت بهدوء وتأنٍ:

ـ أنا لم أقل شيئًا عن مهمّتكم في سوريّة، ولست سياسيّاً، ولا أعرف أيّ سياسيّ، لأنني مجرّد مواطن سوريّ حمل السلاح ضدكم لأنكم اعتديتم علينا.

قال وهو يبتسم:

ـ ألم نتفق، يا صديقي، على وضع الأوراق فوق الطاولة وليس تحتها؟

أجبته:

ـ أنا لا أفهم بلعبة الأوراق هذه، وما قلته هو الحقيقة.

ـ يبدو أن ذاكرتك ضعيفة، أو أنها ضعفت بسبب تلك المسرحية التي لا نوافق عليها، فحاول أن تتذكر ما قلت، وتعاون معنا لأن هذا في مصلحتك.

ـ مصلحتي أن أقول الحقيقة، وقد قلتها.

ـ لا بأس! سأفترض أنك قلت الحقيقة، لكنني أطلب مساعدتك في الإجابة عن بعض الأسئلة: مَنْ من السياسيين تعرف؟

ـ لا أحد!

ـ أنت تعرف الشيخ صالح العلي جيدًا، وقد قلت هذا سابقًا، فما رأيك فيه، من الناحية السياسيّة، وكيف يمكننا الاتصال به؟

ـ أنا سمعت بالشيخ صالح العلي فقط، ولم أره أبدًا.

ـ وابراهيم هنانو؟

ـ لا أعرفه إلا سماعًا!

ـ سافرتَ إلى تركيا، فمع من اجتمعت في كليكيا؟

ـ لم أسافر إلى تركيا، ولا أعرف كليكيا.

ـ لكنك تعرف اللغة التركيّة جيدًا، وأنت مفاوض بارع.

ـ أعرف اللغة التركية لأنني كنت في الجيش التركي، خلال السفر برلك، وهذا طبيعيّ.

ـ طبعًا! طبعًا، ولكن ما هي رتبتك؟

ـ مجرّد نفر!

ـ المفاوض لا يكون مجرد نفر! أنت فاوضت على صفقة سلاح، وتمت الموافقة، ووصل السلاح فعلاً، تحدّث عن كل ذلك اذا أردت.

ـ هل أتحدث عن شيء لا أعرفه؟

قال المحقّق:

ـ تذكّر جيدًا، وتحدّث عن الذي تعرفه، بقدر المستطاع!

أجبته:

ـ لا أعرف شيئًا عن كل ما تسأل عنه!

ـ كيف هذا؟ قلت إنك اطّلعت على معاهدة سايكس ـ بيكو، وتعرف، بدقّة، ما جاء فيها، هل تنكر؟

ـ لا أنكر!

ـ وتعرف، أيضًا، لماذا نحن في سورية، هل تنكر؟

ـ لا أنكر!

ـ كيف تكون على مثل هذا الاطلاع، ولا تعرف السياسة والسياسيين، وتقول إنك مجرّد رجل حمل السلاح ضدّنا؟ ألا تلاحظ التناقض الصارخ في أقوالك هذه؟

قلت بتأكيد:

ـ ليس هناك تناقض أبدًا، فأنا أقرأ وأكتب، ومن الطبيعيّ أن أكون مطلعًا، وإذا كانت غاية التحقيق تلفيق تهمة ما، وإلصاقها بي، فافعلوا، لأنني بين أيديكم، والأمر لا يحتاج إلى كل هذا اللفّ والدوران، لأنكم تعرفون أنني بحّار ولست رجل سياسة، وقد اعترفت، منذ البدء، أنني كنت في الجبل، وحملت السلاح ضدكم، فماذا تريدون أكثر؟

ـ أنت لم تعترف بشيء، نحن قبضنا عليك بالجرم المشهود، أنت لا تريد أن تعترف، مع أننا نتعامل كأصدقاء، لماذا لا تثق بصداقتي، وبأنني أريد لك الخير؟ هذا ليس تحقيقًا، التحقيق يكون بشكل آخر،

سل بو غدير، وهو عربيّ مثلك، يخبرك أن هذا مجرّد حوار، وبقلب مفتوح، قل إذن، حاورني، العمل السياسيّ مشروع تمامًا، فلماذا تتنكّر لمشروعية السياسة، وقد كنت، قبل الظهر، تتحدّث فيها ببراعة السياسيّ المحنّك، الذي اطلّع، من موقع مسؤوليّته، على كل الأمور التي تتعلّق بكم وبنا؟

قلت له:

ـ أعطني موقعًا مسؤولاً، وأنا أعطيك كلّ ما تريده عن هذه المسؤولية التي أتولاّها.

نهض المحقّق كلود عن مكتبه، دار حولي وقال:

ـ ما تقوله طريف جدًا، وذكيّ جدًا، تستحقّ عليه التهنئة.. هل تحسبني من ساسة بلدكم، لأعطيك منصبًا سياسيّاً؟ مثل هذا المنصب يؤخذ أخذًا، بناء على الجدارة وأنت جدير، وقد شغلت، حسب معلوماتنا، وكما ظهر من أقوالك، مثل هذا المنصب، ونحن نقدرك إذ نعتبرك سياسيّاً مسؤولاً، وكل ما نريده هو التفاوض معك، فلماذا ترفض؟ المسألة هي كالتالي: نفهم منك ما تريد، وتفهم منا ما نريده، ثم نطلق سراحك، لتذهب وتعرض مقترحاتنا، وكذلك جوابنا عن مطالبكم، على رجال السياسة في سورية، أمثال الشيخ صالح العلي، وابراهيم هنانو، وغيرهما، ماذا تقول؟

ـ أقول إنكم تعطونني صفة ليست لي، لأنني لست سياسيًا، وفي وسعكم أن تبلغوا مقترحاتكم عن طريق غيري، من الذين يتعاونون معكم.

ـ تعرف هؤلاء الذين يتعاونون معنا؟

ـ لا! أبدًا؟

ـ طيّب إذن، تعاونْ معنا تصبحْ من هؤلاء المتعاونين، فتحْظَ بثقتنا، وتتمتع بنفوذ يضعك في أعلى المناصب مستقبلا!

ـ لو كنت من الذين يتطلّعون إلى هذه المناصب، ولو كانت هذه المناصب كفيلة بتحقيق المطالب الوطنية، لما حملنا السلاح ضدكم، غيري وأنا.

التفت المحقّق كلود إلى الرجل الجالس صامتًا كأبي الهول وسأل:

ـ ما هي هذه المطالب الوطنيّة؟

ـ الاستقلال!

ضحك وقال:

ـ كيف نعطيكم الذي عندكم؟ أنتم مستقلّون فعلاً، لأن الحكومة حكومتكم، ورجالها من رجالكم، وهي التي تحكم لا نحن.

فكرت قليلاً، قرّرت المجازفة، قلت:

ـ الذي يحكم هو مندوبكم السامي، بواسطة مستشاريه، والحكومة التي تتحدّث عنها ألعوبة بين أيديكم، مهمّتها تنفيذ الأوامر الصادرة اليها، لا أكثر ولا أقلّ.

ـ تعرف هذا وتصرّ على أنك لا تفهم في السياسة؟

ـ أنا لم أقل إنني لا أفهم في السياسة، وإلا لماذا حملت السلاح

ضدكم؟ الشعب السوريّ شعب مسيّس، وهو، لذلك، يفهم، وأنا من هذا الشعب الذي يفهم، أما رجال السياسة فهم من الزعماء، وليسوا من البحّارة مثلي!

سألني بغتة:

ـ إلى أيّ من رجال السياسة هؤلاء تنتمي أنت؟

ـ لا أنتمي إلى أحد!

ـ والذين كانوا يحملون السلاح معك في الجبل؟

ـ أنا لم أسألهم عن انتماءاتهم الفكريّة والحزبيّة.

ـ لكنك كنت معهم، وتعرف، طبعًا، ماذا يريدون، فما هي شروطهم لإلقاء السلاح؟

قلت بحزم:

ـ لهم شرط واحد: أن ترحلوا عن سورية!

ـ كي يحل الإنكليز مكاننا؟

ـ الانكليز أعداؤنا أيضًا، ولن نسمح لهم، في حدود معرفتي، أن يحلّوا مكانكم.

ـ والأتراك؟

ـ هؤلاء نكرههم تاريخيًا، العثمانيون احتلّوا البلاد العربيّة خمسة قرون، وأنت تعرف مشانق جمال باشا السفّاح في دمشق وبيروت.

سألني في شيء من الضيق:

ـ بماذا تفسّر إذن تقديم الانكليز المال، والأتراك السلاح، لكم؟

ـ هذا ما تقوله أنت، وقولك يحتاج إلى إثبات!

ـ هذا يعرفه الجميع!

ـ قد يكون هذا ما سمع به الجميع، وأنا منهم، لكنّه يفتقر إلى الإثبات.

صاح المحقّق كلود لأول مرة، وهو يخبط على صحف فوق مكتبه:

ـ هذا ما تقوله الصحف أيضًا!

ـ هذه صحفكم!

ـ وهل تتّهم صحفنا بالكذب؟

ـ صحف كل بلد تتبنّى وجهة نظر بلدها.. هل تسمح لي بتدخين سيكارة؟

قال من فوره:

ـ التدخين ممنوع أثناء التحقيق!

ـ ولماذا كان مسموحًا في جلسة قبل الظهر؟ ثم لماذا تدخّن أنت؟

ـ قبل الظهر كنت غير الذي أنت الآن، أما لماذا أدخن أنا فهذا سؤال ليس من حقّك، ثم إنني أنا من يوجّه الأسئلة لا أنت.. ضع هذا في حسابك!

ساد الصمت للحظات، وراح المحقّق كلود يدور حولي، ثم انقضّ عليّ كباشق بهذا السؤال:

ـ لماذا حرقت الباخرة الفرنسية؟

ـ أنا لم أحرق أيّ باخرة.

ـ بلى! حرقت، وهناك شهود.

ـ شهود الزور كثيرون، وموجودون في كل مكان، وحتى على هذا الطرّاد، ولكن لا قيمة لشهادتهم.

ـ تطعن بشهادات شهود كانوا معك عند حرق الباخرة، قبل أن تسمعها؟ من أعطاك هذا الحق؟

قلت لا مباليًا، لأنني شعرت بالمؤامرة:

ـ أنا مَن أعطى هذا الحقّ لنفسه، والسبب في ذلك بسيط: الباخرة الفرنسيّة اشتعلت فيها النيران قبل دخولها مرفأ اسكندرونة، وقد أدخلت لحصر الحريق، ثم إطفائها بواسطة خراطيم المياه المحمولة على الزوارق، وهذا ما حدث فعلاً.

ـ وتؤكّد أيضًا؟

ـ ليس أنا من يؤكّد، إنّها سجلات الباخرة، وسجلات مديرية الميناء.

ـ وكيف اطّلعت عليها؟

ـ هذا شأني!

ـ أنت تكذب!

ـ عودوا إلى السجلات تعرفوا.

ـ أقول لك إنك تكذب!

ـ هذا اتّهام لا قيمة له، وهو لصالحي، لأنك، الآن، كشفت كلّ أوراقك، متناسيًا أقوالك عن الصداقة، التي هي خدعة مكشوفة، وهي قشور موز، أردت زحلقتي عليها.

صاح المحقّق كلود وقد انقلب من ثعلب إلى ذئب.

ـ انت وقح بأكثر مما كنت أتصور!

قلت:

ـ وبعد أن تصورت!؟

ـ تسخر!؟

ـ ولماذا لا، اذا كانت التهمة الموجهة اليّ بهذه السخافة؟

ضرب على المكتب بقبضته وعوى:

ـ التهمة ليست سخيفة، إنها حقيقية وثابتة، فقد حرقت الباخرة لأن لك مصلحة في حرقها، فهل تريد أن تعرف هذه المصلحة؟ إنها سرقة تنكات الكاز التي فيها، وقد ضبطت وأنت تسرقها، أي بالجرم المشهود..

اشعل سيكارة واضاف:

ـ انتهى التحقيق!

سألت دون اكتراث:

ـ وما بعد التحقيق؟

ـ هذا ستعرفه في أوانه.

قلت وأنا أنهض:

ـ في هذا أنت صادق جدًا!

ـ ١٨ ـ

استطاع بو غدير ايصال ورقة صغيرة إليّ جاء فيها: «غرقت.. انتبه!» قرأتها، أعدت قراءتها، أيقنت أنني غرقت فعلاً، قلت في نفسي «الآن صار غرقي حقيقياً، الذين حسبوا أنني غرقت في الباخرة الجانحة، على الشاطئ الجنوبي لاسكندرونة، سيبحثون عنّي دون أن يعثروا عليّ، ابني سعيد حزّوم سبّاح ماهر، يجيد الغطس، لكنّه أبدًا لن يهتدي إلى جثّتي، لأن هذه الجثّة ستدفن بعيدًا، وربما في قاع البحر، وهكذا تتحقّق أمنيتي: «في البحر ولدت، وفيه أدفن»!

قالت كاترين:

ـ أنت، الآن، في الأموات يا صالح، في نظر الناس جميعًا، الذين عرفوك، والذين سمعوا بك.

قلت:

ـ نعم يا كاترين! صالح حزوم مات، مُسخ حيّاً إلى دعبس الفتفوت، وهذا هو حكم القدر.

سألت:

ـ ألا نستطيع أن نغيّر أقدارنا يا صالح؟

قلت:

ـ بالارادة والعمل، حين تكون لنا إرادة قويّة، ونعمل وفق مجرى الزمن، نستطيع!

قال الوطواط:

ـ أنت عملت ضدّ مجرى الزمن، وبصورة مجانيّة، لماذا لم تعترف؟ «ليكن بعدي الطوفان» هكذا قال أحد ملوك فرنسا، وهو على حقّ، أما أنت فقد كنت على باطل، أردت أن تكون بطلاً، وهذا الزمن ليس زمن البطولات!

قالت العنقاء:

ـ صالح حزّوم كان بطلاً حقيقيّاً، وبرغم الزمن الرديء.. لماذا تزيّن له الخيانة؟

ـ لأن كلّنا يخون كلّنا!

ـ هذا غير صحيح، هناك، دائمًا، الذين لا يخونون، لا وطنهم، ولا شعبهم، ولا أنفسهم، وصالح حزّوم من هؤلاء.

قالت البومة:

ـ وما النفع؟

ـ النفع جاء مع الجلاء، الفرنسيون رحلوا، ولولا صالح وأمثاله لما رحلوا.

ـ هذا كلام فارغ، الفرنسيّون وعدوا بالرحيل، ونفّذوا وعدهم،

وكل الذين حملوا السلاح ضدّهم، سواء الذين ماتوا، أو الذين تعذّبوا، وكذلك الذين عاشوا في المنافي، نالوا جزاءهم دون أن ينتفعوا بشيء... هذا زمن النفعيّة، وتحتها تندرج كل العناوين، فلماذا، إذن، لا نكون أبناء زمننا، فننفع وننتفع؟

قالت السوسة:

ـ زمن صالح حزّوم كان غير هذا الزمن، وصالح كان ابن زمنه تمامًا، والكلام على النفعيّة تكرّر حتى الملل، حتى التقزّز، فلماذا العودة إلى الكلام عليه؟

قالت الأفعى:

ـ لأن كلّ واحد منّا يبشّر برسالته، والوطواط والبومة يبشّران برسالتهما، ومفادها الشرّ بكل أنواعه، ومن العبث ردعهما، ومن العبث «خطاب من لا يفهم»!

قال الغراب:

ـ إنني جائع، والجائع، كما يقولون، يسمع ببطنه، فهل من شيء يُؤكل هنا؟ أنا من أنصار الموت، وضد أنصار الدفن، والذين يقولون «إكرام الميت دفنه» على ضلال، على خطأ، لأن الدودة ليست أفضل من الشوحة، ولولا موت الكلاب والقطط والحمير والبغال لمتنا جوعًا، وقد ظننت أن صالح هذا سيموت، وليس من أحد يدفنه، لذلك جئت، لكنني أسمع هنا كلامًا غريبًا، عن المقاومة والبطولة والخير والشر، فبماذا ينفعني هذا الكلام؟ مع ذلك أنا مع الوطواط والبومة، ومع الحرب والقتل والشرّ، لأننا، نحن معشر الغربان، لولا هذه الآفات

لتنا جوعًا، وقد سمعت من يتكلم بينكم عن التضحية، فلماذا لا تخرج الأفعى مضحّية بنفسها لأجلي؟ ولماذا لم يغرق صالح هذا، فيلفظ البحر جثّته على الشاطئ، ونصنع نحن منها وليمة؟ أنتم جماعة لا خير فيكم، ولولا رغبتي في سماع بقيّة قصّة صالح، لغادرتكم غير مأسوف عليكم، لكن ماذا أفعل إذا كنت أحبّ سماع القصص، وخاصّة المشوّقة منها؟ قصة صالح مشوقة، وعيبها الوحيد أنه لا يموت في ختامها، لماذا لم تفعلها يا صالح وتموت؟ الموت أيّها «البطل»، أفضل خاتمة لقصص البطولة، أم أنني أهرف بما لا أعرف؟

قالت العنقاء:

ـ سمعتم ما قاله الغراب حول حبّه للقصص، فهل تحبّونها أنتم أيضًا؟

أجاب الجميع:

ـ نعم! نعم! نعم!

قالت كاترين:

ـ مؤسف! إنكم تحبّون القصص ولا تتأثّرون بها؟ إنها، بالنسبة اليكم، مسلّية، أما بالنسبة إلي..

قالت الأفعى مقاطعة:

ـ كل قصّة، بالنسبة لكلّ كائن، مسلّية ومفيدة في الوقت نفسه يا كاترين، الكلمة لا تضيع، وإلاّ لماذا كانت البدء؟ تكلّم يا صالح، يا من فتنتنا بقصّتك، قل لنا ماذا جرى بعد أن عدت إلى الزنزانة؟

قال صالح:

ـ كنت أظنّ أن الأطفال وحدهم يحبّون القصص، وها أنا أجد أن الكبار يحبّونها أيضًا، وكذلك الطيور والزواحف والحيوانات، وهذا من العجب!

قالت الأفعى:

ـ أنا كنت أوّل قصّة في الوجود، ومن الغريب، أيضًا، أنني كنت أوّل من عرف الخير من الشرّ، في عرف الناس، إلاّ أن صنيعي كان خيرًا لا شرّ فيه، فلولا «التفاحة» التي يطلقون عليها، ظلمًا، اسم «الثمرة المحرّمة» ما كانت اللّذة، ولا كان الألم، ما كانت المتعة الكبرى، والنعمة الكبرى، ما كان الحبّ، ألذّ ما في هذا الوجود، وما كان الشقاء فيه، الذي هو المطهّر الأعظم، ومنه يمرق الناس، بعد أن يغتسلوا من ذنوبهم، إلى فضاء المصالحة مع أنفسهم، التي تخلّصت من أوضارها، فرقّت، وشفّت، وأصبحت مرآة صقيلة، فيها يرون صورهم، الحسن منها والقبيح، وما كان، أيضًا، فرح الربّ الذي يشمل الجميع ببركته، وما كان، أخيرًا، الحمل والإنجاب، والسيرورة والصيرورة، حيث الذراري تتواصل، بفضل اقتران الرجل بالمرأة، وفي هذا الاقتران، الذي يتّحد فيه جسدان، قهر للموت وإحياء للحياة، ودون ذلك انقراض للنّسل، وإيقاف مجازيّ، لدورة الزمن التي لا تكفّ عن المسيل، ولقد يرغب بعضنا، وهو في قمّة السعادة، وفي ذروة النّشوة، لو أن سفينة العمر تلقي مرساتها، فتتحقّق أمنية الأماني، لكن سفينة العمر تمضي بنا، وحسنًا تفعل، فلو توقّفت

لكانت النقمة الأبديّة، لكان العذاب الذي لا ينتهي، بالنسبة للعجزة، للمقعدين، للمتعبين، وللمرضى الميئوس من شفائهم.. هذه القصّة، قصّة الحياة والموت وما بينهما، أنا، الأفعى، مَنْ صنعها، فكنت القاصّة الأولى، وكنت الحكيمة الأولى، والمكتشفة الأولى لنظريّة اللّذة والألم، هذه التي، بعد دهور من عمر الكون، جاء أبو بكر الرازي وادّعاها لنفسه!

قال الغراب للأفعى:

ـ ومع ذلك فإنّ الإنسان يعتبرك عدوته.

قالت الأفعى للغراب:

ـ هذا لأن الإنسان عدوّ نفسه، أو أن نفسه عدوّته، لا فرق!

ـ ومتى يزول هذا العداء؟

ـ ولماذا تريده أن يزول؟ إذا زال العداء زال الودّ، وما الحياة بغير مودّات؟

قالت العنقاء:

ـ العداء هو من أوصل صالح وكاترين إلى الوضع الذي هما فيه، فمتى سيكون الخلاص؟

قالت الأفعى:

ـ خلاصهما يتحقّق الآن عبر الكفاح، والكفاح هو الفرح رغم الألم، وإلاّ سقط الإنسان في الاستنقاع، فأصبح رخوًا، لزجًا، هشّاً، مائعًا لا يطاق! صالح حزّوم يعرف هذا، وقد خُيِّر فاختار، وكان اختياره صحيحًا: رفض الخيانة!

ـ الرفض إلى متى؟

ـ سليه!

قالت السوسة:

ـ صالح اكتشف السرّ وعمل به، وهذا السرّ بسيط جدًا، صعب جدًا، صائب جدًا: عدم تعجّل النّصر! ليس ثمة أقتل للانتصار من التسرّع في تحقيقه.. إنها حكمة الحياة، هذه التي اكتسبها صالح عبر تجاربه المرّة.. هل أنا مخطئة يا صالح؟ أعرف جوابك: أنت غير مخطئة يا سوسة، ولكن لماذا تصادرون حقّي في الكلام؟ إنّ قطع السياق في القصّة يغتال القصّة، يجعلها مملّة، وأنتم، وكذلك الناس، يضايقكم الملل، فلو انتظرتم قليلاً، لاستنتجتم كلّ ما قلتموه من دلالات القصّة نفسها، ولكان هذا أوقع في النفس وأجمل!

قالت الأفعى:

ـ أنت على حقّ، من الوجهة الفنيّة، في قولك هذا، لكننا هنا لنتعاون في صنع قصّة، لا لنسمع قصّة جاهزة! عفنا القصص الجاهزة، قصص الزواج والطلاق، والحماة والكنّة، والرجل المخلص والمرأة الخائنة وبالعكس، والمؤلف الذي يسرد قصّته ويسرد، دون أن يترك مجالاً للحوار، حتى بين شخصياته من البشر، فكيف بشخصياته من غير البشر!؟ هنا حديقة حيوانات، هنا «سرك» وكل واحد من الموجودين له موقف، له غاية، له لعبة، له كلمة، وكما أن لك يا صالح موقفًا وغاية وكلمة، تسعى لإثباتها كوجهة نظر، فإن للموجودين هنا وجهات نظر يتنافسون لإثباتها مثلك، وقد كان

واضحًا، ومتّفقًا عليه بغير اتفاق، أن هذه قصص داخل قصّة وفي وسع السامع الملول أن ينسحب فلا يسمع، وكذلك في وسع القارئ الملوّن أن يرمي بالكتاب فلا يقرأ، لكنّنا جميعًا سنستمع، وسنقرأ، وسنتدخّل، ونتحاور، ونناقش، من خلال قصّتك لا من خارجها، ولنا كل الحقّ في ذلك، لأن القصّة الغريبة كقصّتك وكاترين، لا يصحّ فيها السرد وحده، أو الحوار وحده، أو الكلام المفرد وحده، إنها قصة حب كبير، كنا نعرف ظاهرها، والآن نصغي بشغف لمعرفة باطنها، وهي، أيضًا، قصّة وطن، سمعنا ما يشبهها، لكنّنا لم نسمع مثيلها، وهي، أيضًا وأيضًا، قصّة إنسان وحيوان وطير وزواحف، في خلطة عجيبة، قلّما وجدنا لها قرينًا، والسؤال الغريب هو في بطلها، وحول بطلها: هل يكره نفسه حقيقة، أم يعبد نفسه حقيقة؟ الجواب لديك يا صالح، وهذا الجواب ملتبس حتى الآن، وفي يدك إيضاحه.. تكلّم إذا كنت لا ترغب في أن تتركنا في حيرة من أمرنا.. أنت الآن في الزنزانة، وبعد!؟

قال صالح:

ـ منذ وضعوا القيد في يدي، وأنا في مكتب المحقّق كلود، أدركت أن الريح المؤاتية، لم تعد مؤاتية، فلما قرأت الورقة التي سرّبها لي بو غدير، وفيها هذه العبارة: «لقد غرقت.. انتبه!» جلست في زنزانتي أفكّر في مصيري، أراجع كلماتي في التحقيق، أرى على جدران الزنزانة، ذلك الوجه الشمعيّ البارد، للرجل الذي حضر التحقيق، وظلّ مطبق الفم، وفي خاطري يرتسم الغيم الأسود، للأيام المقبلة، التي ستلد طروحًا غريبة، من رحم الليل الذي لا نجمة فيه، وريحه

تصفّر في أذني لحنًا شتائيًا، في ثناياه المطر والبرد، وأنا ضائع في متاهة النسيان، حيث المصير المجهول، الذي تتخبّط قدماي في رمله الحارّ، دون أن أعرف كيف الخروج من مأتم جنازتي، وأنا في تابوتي، المحمول على أكتاف أشباح أقزام، بين الحيّ والميت، وورائي كلب مطرق الرأس، تطوّع لتشييعي إلى قبر غربتي الكئيبة، البعيدة، التي لا رجعة منها أبدًا.

تمنّيت، في وحدتي الصمّاء، أن أبعث برسالة على ورقة مؤطّرة بالفحم، دون أن أكتب عليها حتى كلمة وداع، فالنعي الصامت أبلغ من الكلام، وبحثت في الظلمة، عن زجاجة ما فارغة، نسيها من كان هنا قبلي، كي أضع فيها الورقة غير المكتوبة، طالبًا من الحارس أن يلقي بها في البحر، ليحملها الموج إلى مدينتي، لكنّني سرعان ما تصوّرت أن الحارس سيعطيها إلى ذلك الرجل الكريه، فيشهرها في وجهي «تراك» صائحًا: «ما هذه الرسالة المشفّرة، المكتوبة بحبر سرّيّ!؟» وعندئذ أكون قد قدّمت عنقي للسيّاف، جرّاء تهوّر لا مبرّر له سوى الضعف المخزي، خوفًا من التعذيب المنتظر. «لا! صحت بأعلى صوتي كمن يفيق من كابوس بغيض، لا! لن أبعث برسائل وداع، لأنني سأعيش، وسأتحمّل، وأقاوم، حتى تتفجّر الروح من الجسد، كما يتبخّر الضباب من الحرارة».

طرق عليّ باب الزنزانة، أجفلت للحظة، ثم نهضت وقد تبدّد خوفي، قال لي الحارس من كوّة الباب:

ـ لماذا تصرخ؟

ـ أنا لا أصرخ، بل أغنّي!

ـ تغنّي وأنت تعوي؟

ـ بعض الغناء يكون عواء.

ـ هل أنت كلب!؟

تذكّرت ما جال في خاطري قبل أن أصرخ، تأكّدت أن ذلك كان حلم يقظة، وأن الكلب المشيّع هو ضغث حلمي، وأنه لم يبق لي سواه من صديق، فقلت للحارس:

ـ نعم! أنا كلب!

سألني:

ـ هل أنت مريض؟ هل هذا هذيان؟

قلت:

ـ لا أدري، أشعل لي هذه السيكارة اذا سمحت!

قال الحارس:

ـ أنت ممنوع من التدخين بأمر من تراك!

أضاف وهو يتلفّت:

ـ مع ذلك سأخاطر، إليك بالكبريت!

قال ذلك وأغلق كوّة الباب، جلست وأشعلت سيكارة، مججت دخانها نهمًا، تذكّرت أن الوجه الشمعيّ لذلك الرجل المقيت، المبهم المهمّة، هو السبب، عجبت أن يؤثّر فيّ وجه، بأكثر ممّا أثّرت أنشوطة المشنقة، قرّرت أن أخنق ذلك الرجل أو يخنقني، لأن مجرّد رؤيته

ثانية ستذهب بعقلي، إلا أنّ الرجل اختفى تمامًا، وعندما سألت عنه لم يعرفه أحد، حتّى خيّل إلي أنه ليس حقيقة، وإنما اختراع مخيّلة مريضة، كتبت نفسها على وهم رجل، لا على رجل من عظم ولحم، وقد ندمت، وأنّبت نفسي على هذا الهوان الذي صرت إليه، والذي إذا استمرّ سيؤدي بي إلى تهلكة الاستسلام. أشعلت سيكارة ثانية، رحت أرتّب أفكاري، أستعيد لحظات مسرحيّة الإعدام، شجاعتي خلال تلك المسرحيّة، قول بو غدير: «أنا واثق من شجاعتك وصمودك» عناقه لي كأخ، ارساله تلك الورقة التي يدعوني فيها إلى الحذر، حلم اليقظة وكابوسه والصراع، وشيئًا فشيئًا سيطرتُ على انفعالاتي، عدت صالح حزوم الذي كنته، الريّس المغامر الذي انتصر على الإعصار، المقاتل الذي حمل السلاح وهاجم مواقع الفرنسيين ومخافرهم الأمامية، البحّار الذي تجرأ على العدوّ في سبيل إنقاذ عائلات البحّارة من الجوع، الغطّاس الذي، في وضح النهار، نزل إلى عنابر الباخرة الجانحة، واستخرج منها تنكات الكاز، وهكذا امتلكت، من جديد، عزمي على المواجهة مهما تكن قاسية، وقد أراحني هذا العزم، وساعدني على النوم المشتهى في مثل حالتي.

لا أدري كم مضى من الليل، وكم من الوقت استغرقت في النوم، حين فُتح باب الزنزانة وأُشعل الضوء، فرأيت ما لم أكن أتوقّع رؤيته، ذلك الرجل الغامض، البارد الدم، ذا النظرات النافذة، والصمت القاتل، ومعه المترجم بو غدير، وهما يقفان على وصيد الزنزانة، دون كلام، دون حركة، ودون سؤال أو جواب. لبثنا متقابلين، وهو على باب الزنزانة وأنا داخلها، صامتين. كل منا يحاول اختراق ذهن

الآخر لمعرفة ما فيه.. بعد دقائق أشار الرجل إليّ أن اتبعني، وُضع القيد في يديّ وتبعته محروسًا حراسة مشدّدة، نزلنا درجًا بعد درج، درنا إلى اليسار، إلى اليمين، توقّفنا أمام باب، أخرج الرجل المخيف مفتاحًا أداره في القفل، فتح الباب، دخلنا، جلست حيث أشار، أخرج غليونه وراح يدخّن، مضى وقت أحسسته طويلاً جدًا، قبل أن ينهض ويدور حولي، ظلّ يدور ويدور حتى كاد أن يتلف أعصابي، وبو غدير جالس دون حراك، ينتظر مثلي ما سوف يكون، إلى أن تقدّم الرجل وأوقفني، ثم وجّه إليّ لكمة على الرأس، وأخرى في الصدر، وثالثة في البطن، ورابعة في أسفل البطن، وخامسة على الوجه، ترنّحت إثرها وانشلحت كشلوٍ على أحد المقاعد، فاوقفني ثانية ولطمني، وظلّ يلطمني والدماء تسيل من فمي، وحين تعب جلس وراء مكتبه وقال:

ـ هذا، الآن، يكفي، إلا إذا أصررت على الإنكار.

أشعل غليونه من جديد وسأل:

ـ تتكلّم أم لا؟

لم أتكلّم، قرّرت المقاومة حتى الموت، اعتزمت عدم التأوّه حتى لو قطّع لحمي، تذكّرت ذلك المناضل الذي أُخذ للتعذيب، فوضع بين أسنانه ورقة خضراء، ومشى ذهابًا وإيابًا بين صفّين من حَمَلة السياط، فلما انتهوا من تعذيبه، من جلده وهو عارٍ، أخرج الورقة الخضراء من فمه وأراها للجلّاد: كانت الورقة سليمة، لا أثر للأسنان عليها.

سألني:

ـ هل تعرف أتاتورك؟

أجبته بجفاء:

ـ لا!

ـ مع من أبرمت صفقة الأسلحة؟

ـ لم أبرم أيّ صفقة، ولا علم لي بمسألة السلاح، ولا من أين يأتي!

ـ ما هي الأسلحة التي تستعملونها، وفي أيّ بلد صُنعت؟

ـ الأسلحة مختلفة الأنواع، وبينها أسلحة فرنسيّة، صُنعت في فرنسا!

صاح:

ـ هذه أسلحة تسرقونها، أو تغنمونها، وأنا لا أسأل عنها.. لديكم أسلحة تركيّة وانكليزيّة، ما نوعها؟ ما عددها؟ ومن يدرّبكم عليها؟

ـ لا أعرف!

ـ هل معكم ضبّاط أتراك أو انكليز؟

ـ لا!

ـ وعند صالح العلي وابراهيم هنانو؟

ـ لا! في حدود علمي.

ـ قلت للمحقّق كلود أمس إنك غير سياسيّ، ولا تعرف أحدًا من السياسيين، صحيح أم لا؟

ـ صحيح.

ـ ماذا أنت إذن؟

ـ مجرّد رجل وطنيّ يحمل السلاح ضدكم.

ـ هذا جيّد، وأريد أن أصدقك، لكن من يحمل السلاح يعرف زملاءه، قادته، ونوع الأسلحة التي يحملونها، وما هو مصدرها، وأنت تزعم أنك لا تعرف شيئًا، فهل أنت صادق أم كاذب؟ إذا كنت صادقًا فقل لنا ما تعرف حول كل هذه الأمور، وإذا كنت كاذبًا فلماذا تكذب؟ وهل تظنّ أن كذبك ينطلي علينا؟ أنا لست المحقّق كلود، وهذا ما يجب أن تتذكّره، ولا بدّ أن تتذكّره الآن، هل تفهم؟ أريد الحقيقة كاملة!

فكّرت وسألت:

ـ أنت لستَ المحقّق كلود كما تقول، فمن أنت إذن؟

ردّ بحنق:

ـ هذا ليس من شأنك!

ـ نعم! من شأني، فالمُحقَّق معه لا بدّ أن يعرف، قانونًا، من الذي يحقّق معه!

ـ هذا في الحالات العاديّة، وليس في الحالات العُرْفيّة، التحقيق معك بموجب القانون العرفيّ!

ـ وحتى في ظلّ القانون العرفيّ، فإن وجود المحامي ضروريّ قانونًا! وهذا لا يحتاج إلى ذكاء! وكذلك لا يحتاج إلى ذكاء أن أعرف،

وهذا من حقّي، من أنت، فإذا كنت عسكريًا فليس من حقّك أن تضرب أسيرًا، وهذا منصوص عليه في ميثاق جنيف الخاصّ بالأسرى، وإذا كنت نائبًا عامًا فالنائب العام لا يضرب الذي يُحقّق معه، لأن القانون يمنع انتزاع الاعتراف بالتعذيب، أو بالتهديد به، وأنت لجأت إلى التعذيب قبل التحقيق، دون أن أعرف، أنا المُحقَّق معه، مَن الذي يعذّبني.

رازني قليلاً وقال:

ـ من أين لك هذه المعرفة بالقانون، وبميثاق جنيف الخاصّ بالأسرى، إذا كنت، كما تدّعي، رجلاً عاديّاً، بحّارًا، حمل السلاح بدافع وطنيّ فقط؟

قلت غير هيّاب الآن:

ـ لا عذر لمن لا يعرف القانون، هذه قاعدة فقهيّة، ولأنني بحّار فإنّني مطّلع بحكم عملي، فقد أوقفت في مرافئ عديدة، وحُقّق معي، وحوكمت أيضًا، بوجود محامٍ، لأن ريّس المركب، كقبطان الباخرة، يخطئ أحيانًا أخطاء بسيطة، غير مقصودة، ولا يشفع له جهله بقانون البلد الذي ارتكب الخطأ فيه.

ـ هذا جانب آخر، يتعلّق بقانون البحار، وأنا لا أسألك هل تعرف مثل هذا القانون أم لا، بل أسألك عن معرفتك بالقوانين والمواثيق الأخرى.

ـ المفروض في القبطان أن يعرف كلّ شيء، لأنه يحتاج إلى هذه المعرفة.

صاح بي:

ـ كفى ثرثرة، أجب عن أسئلتي!

قلت رابط الجأش:

ـ أجبت عنها كلّها، في جلسات التحقيق التي جرت معي، بشكل مخالف للقانون!

أخرج «بونيه» من درج مكتبه، لبسها في يده اليمنى بتأنٍّ، نهض ودار حولي، أخذ يتفرّس وجهي خفية، لم يجد ما كان ينتظره من رعب، أيقن أنني غير خائف، فعلاً كنت غير خائف، صرت في قلب الخوف ولم أعد أبالي. الرجل المجهول صار معلومًا، إنه «تراك» نسخة ثانية، جلّاد لا أكثر، أحد ضبّاط «البريفوتيه»، حضر جلسة التحقيق صامتًا، أراد التأثير عليّ بصمته، أثّر فعلاً، لم يحسن استخدام تأثيره. منذ بدأ بضربي زال هذا التأثير، جاءت النتيجة معكوسة، أدرك، كما أدركتُ، كلّ هذا، فلم يبق سوى التعذيب، وقد جرّب، بدوره، هذا الأسلوب ففشل، وأحنقه فشله فقرّر الإمعان فيه، عسى أن ينتزع منّي اعترافًا، مهما يكن بسيطًا فانه أفضل من لا شيء.

كان بو غدير يراقب ما يجري، يتألم لعذابي، يزداد ألمه لأنه عاجز عن مساعدتي، ولم يكن قادرًا، دون تعريض نفسه للشبهات، أن يفعل مع هذا الرجل ما فعله مع تراك، لأن هذا قام بمسرحيّة بائخة، كانت نتيجتها فشلاً مزريًا، وكان تنفيذ الإعدام الوهميّ مرفوضًا بكلّ المقاييس، ولو انتشر خبره لكانت فضيحة مدويّة! الوضع مع هذا

الذي يتصوّر نفسه نمرًا بنغاليًا يختلف، لكونه مفوّضًا من جهة، وشرسًا إلى أبعد حدود الشراسة من جهة ثانية، ولأن وجهه الكامد، وصمته البارد، والعبوس الذي هو طابعه العامّ، لا يدع مجالاً للكلام معه عن نتائج قسوته المفرطة، التي قد تؤدّي إلى الموت، وبو غدير يعرف أن بعضهم ماتوا من جرّاء تعذيبه، دون أن يُسأل، أو يُعاقب على فعلته، لأن الإنسان لا قيمة له الا بمقدار ما ينفعهم، باعترافه أو بتعاونه.

مرّة أخرى، وبصورة مقابلة، وقف هذا الوحش الذي لا يعرف اسمه الحقيقيّ سوى رؤسائه، فأمسكني من صدري بيديه الاثنتين، رافعًا إيّاي إلى أعلى، موجّهًا ضربة «بونيه» إلى أضلاعي، ثم إلى فكّي الذي تكسّر أكثر من ضرس فيه، وجرى الدم من فمي، وراح، وقد جُنّ من الغضب، يوجّه اللكمات إلى كل ناحية في جسمي، حتى تلاشيت وسقطت أرضًا، فداس ببوطه على صدري وقال:

ـ تتكلّم أم أقضي عليك؟

أجبته بحشرجة:

ـ اقضِ عليّ!

ـ دون أن تتكلّم؟ لا! لن أمنحك هذا الشرف!

ـ ١٩ ـ

قليل الشرف كان يتحدّث عن الشرف، كان بلا قلب بلا رحمة، وكان، كما قدرت، من كتيبة المرتزقة المسماة «الفرقة الأجنبية» LÉGION ÉTRANGÈRE، ومهمته التّعذيب، الضرب حتى الموت، القتل دون أن يرفّ له جفن، لذلك يتكتّمون على اسمه، يعطونه اسمًا حركيًا عند الضرورة، وقد سألني، بعد أن سقطت أرضًا، وداس بقوّة على صدري:

ـ ما رأيك بتراك؟

ـ ارفع أولاً رجلك عن صدري!

رفعها، حاولت النهوض فلم أفلح، اتّكأت على كوعيّ، رفعت رأسي، تمسّكت بكرسيّ كي أجلس على الأرض، كان الدم، النازف من حنكي المكسور والأضراس، قد بلّل ثيابي، كان ضلعي الأيمن يؤلمني، وكانت الرضوض والكدمات تنتشر على مساحة جسمي، مع ذلك لم أصرخ، بذلت جهدًا خارقًا كيلا أصرخ من الألم الذي لا يُحتمل، فأعاد السؤال:

ـ ما رأيك بتراك؟

قلت بحقد:

ـ جلاّد قذر، كيس من النفايات!

ـ والمحقّق كلود؟

ـ ثعلب حقير، يلف ويدور دون فائدة.

نظر في وجهي المدمّى قائلاً:

ـ وأنا!؟

قلت بغضب:

ـ جبان!

فوجئ بالجواب، أربدّ وجهي، اعتراهُ سعارٌ مكتوم، سأل بلؤم:

ـ أنا جبان!؟ ولماذا!؟

ـ لأنك ضربتني والقيد في يدي، كنت خائفًا مني!

قهقه بأعلى ما يستطيع، نظر إليّ وقال:

ـ أنت على حقّ! إبقاء القيد في اليدين خطأ! نعم خطأ!

دار نصف دورة حولي وسأل:

ـ ماذا كان في وسعك أن تفعل لو لم يكن القيد في يديك؟

ـ ربما لا شيء!

صاح بي:

ـ من المؤكّد لا شيء، أنا ملاكم محترف! ماذا تفعل معي؟

قلت وأنا أرتجف:

ـ لو كنت طليقًا، والخيزرانة في كفّي، لأريتك ماذا أفعل!

قال وهو يضحك:

ـ لم يفت الوقت!

ضغط الجرس فجاء الحاجب، أمره:

ـ فكّ قيد هذا السافل!

فكّ الحاجب القيد الذي كان يحزّ على مفصل يديّ، قال لي بعد انصراف الحاجب:

ـ ما رأيك إذا أتيتك بخيزرانة؟

صحت:

ـ الآن!؟ بعد أن تحطّمت!؟

أضفت:

ـ وجهك طُبع في ذاكرتي إلى الأبد، تأكّد أنني لن أنساك، وسأقتلك يومًا ما حتى لو كانت المشنقة بانتظاري!

التفت نحو بو غدير وقال:

ـ أتسمع؟ سيقتلني! ما رأيك؟

قال بو غدير:

ـ رأيي أن نكسب الوقت ونطلب الإسعاف!

ردّ عليه بانفعال:

ـ الاسعاف لماذا؟ ليأخذوه ويرموه في زنزانته!

ـ واذا مات؟

ـ ليمت!

ـ واذا كان بقاؤه حيًا يهمّ القيادة؟

ـ ومن هو حتى تهتمّ به القيادة؟

قال بو غدير بهدوء:

ـ من يعرف؟ هذا السؤال جاء متأخّرًا جدًا!

أضاف:

ـ اذا مات تحت التعذيب فقد نُسأل عنه، وإذا انتشر خبر تعذيبه حتى الموت والقيد في يديه، فستكون العواقب وخيمة، لماذا لم تفكّ القيد قبل أن تضربه هذا الضرب القاتل؟

ارتبك الرجل الغامض، فكّر بحراجة الموقف وأجاب:

ـ طلبوا منّي أن أجعله يعترف بأيّ شكل، وهذا ما فعلته أنا!

ـ لكنه لم يعترف، وقد يكون سياسيًا مهمًا، تُثار حوله مساءلة من قبل السوريين؟ فماذا تفعل القيادة عندئذ؟ تعترف بأنه مات تحت التعذيب؟ وإذا اعترفت فماذا يكون ردّ فعل السوريين؟ هذه..

قاطعه الرجل الغامض:

ـ أرجوك! لنتكلّم قليلاً في الغرفة المجاورة! وعلى انفراد.

خرجا من المكتب، اشتدّ الألم في ضلعي الأيمن، رحت أصرخ حتى أغمي عليّ، وبعد ذلك أفقت في قسم الاسعاف، وكان بو غدير وعسكريّ فرنسي برتبة كوماندان إلى جانبي، وجاء الطبيب بصور الأشعة، فلما رآها الكومندان صفر قائلاً:

ـ هذا فظيع، ريشتان مكسورتان في الضلع الأيمن، انخلاع في الفكّ الأسفل وانقلاع ضرسين كسرًا، مع جروح بأداة حادّة، وكدمات في كلّ أنحاء الجسم..

قال الطبيب الجرّاح ريشار:

ـ الأداة الحادّة المستعملة هي «البونيه» وقد غرزت نيوبها الحادّة عميقًا في اللحم، الوضع لا يبعث على الاطمئنان سيدي الكومندان، فبماذا تأمر؟

سأل الكومندان الملازم بو غدير، بعد أن أخذه جانبًا:

ـ ما رأيك؟

قال بو غدير:

ـ لا بدّ من إبلاغ القيادة في دمشق، والسؤال عما إذا كان المصاب من الشخصيات السياسيّة!

ـ وماذا قال هو عن نفسه؟

ـ إنه بحّار، وقد حمل السلاح ضدّنا كالاخرين.

ـ واعترافاته الأخرى؟

ـ ليس هناك اعترافات..

ـ وكيف جرى التحقيق معه؟ ومن أجراه؟ وبأيّ شكل؟

ـ بطريقة الإعدام الوهميّ، على يد المساعد أول تراك!

ـ هذا الجلاّد؟

ـ نعم سيدي!

ـ وأيضًا؟

روى بو غدير للكومندان كلّ ما جرى، وكان هذا يردّد لازمته: فظيع! فظيع! ثم استدعى الطبيب إلى مكتبه، وبقي بو غدير إلى جانبي، يحاول التخفيف عنّي قائلاً:

ـ ستشفى! اطمئنّ، ستشفى، أنت قويّ البنية بما يكفي للشفاء، وقد تنقل إلى سفينة مستشفى، حيث تعالج بالشكل اللازم..

ـ وبعد ذلك؟

ـ لا أدري!

ـ التحقيق من جديد؟

ـ ربما.. لكن لماذا التفكير بهذا الآن؟ المهمّ أن تُشفى!

ثم حدّثني الملازم بو غدير بما دار بينه وبين الكومندان، وطلب مني أن أكتم السرّ، قائلاً:

ـ لا تثق، اذا ما نقلت إلى سفينة مستشفى، بالمترجم الجديد، حتى لو كان عربيًا.. الفرنسيون يطلبون رأسك بتهم كثيرة، متنوّعة، بينها قتل بعض المدنيّين الفرنسيّين، الذي وشى بك كان نذلاً، وقد لفّق بحقّك العديد من التهم، وكل منها، اذا ما ثبتت، حكمها الإعدام، مهما تكن المحكمة نزيهة.. أنت في ورطة، نجّاك الله منها، والمهمّ شفاؤك، وإصرارك على موقفك.

قلت وأنا أمسك يد بو غدير بيدي:

ـ ما قلته، يا أخي، هو الصحيح، هو الحقيقة، لماذا لا يصدقّونني!؟ هل عليّ أن أعترف بأشياء لا أعرفها، ولم أفعلها؟

ـ أنت تتكلم اللغة التركية، فهل فاوضت فعلاً على صفقة الأسلحة مع الأتراك؟

ـ هذا لم يحصل!

ـ واشتركت بنقل السلاح؟

ـ ...

ـ لا بأس! تستطيع الإنكار!

ـ والشهود؟

ـ اطعن بشهادتهم! قل إنهم أعداؤك، وإنهم متعاونون مع المستشار في إسكندرونة، وهو الذي دفعهم لاتّهامك لأنهم من أزلامه.

ـ وهل ستكون هناك محكمة؟

ـ ربما!

ـ وهل أجد محاميًا يدافع عنّي؟

ـ محام مسخّر على الأرجح، ومن الفرنسيين بالتأكيد.

ـ وبماذا يفيدني مثل هذا المحامي؟

ـ قد يكون مخلصًا، ومن التقدميّين الذين هم ضدّ احتلال سورية، أي من اليسار الفرنسيّ.

ـ وهل يعقل أن ينتدبوا محاميًا يساريًا؟

ـ هذا من الصدف النادرة، ويتوقّف على المكان الذي ستجري فيه المحاكمة، إذا ما جرت!

ـ وماذا إذا لم أُحاكَم؟

ـ النفي!

ـ إلى أين؟

ـ إلى إحدى الجزر الفرنسية في المحيط.. كالعادة!

ـ وهل هناك منفيّون كثيرون؟

ـ طبعًا، ومن كل المستعمرات الفرنسيّة.

ـ شكرًا ومع السلامة!

قال بو غدير:

ـ سأعود لأراك، اذا ما سمحت الظروف!

ـ أرجو أن تسمح، وأن تحمل اليّ أخبارًا طيّبة!

ـ لا خبر طيّبًا، في الوقت الحاضر، سوى نقلك إلى سفينة مستشفى عسكريّة.

ـ تراني أشفى؟

ـ من كل بدّ.. والآن كفى، لا تجهد نفسك بالكلام بأكثر مما فعلت.. إلى لقاء.

ـ قريبًا، ومع السلامة؛ مرة أخرى.

أسعفوني، في مستوطف الطرّاد، بشكل مبدئيّ، ومن حسن الحظّ أن الطبيب الذي تولّى إسعافي كان له، إلى جانب كونه طبيبًا للأمراض الداخليّة، إلمام بتجبير الكسور، فعمل ما في وسعه لجبر كسر الريشتين في الضلع الأيمن، وتولّى طبيب آخر أمر الجروح والكدمات في جسمي، وأُبلغت، بعد أيام، أن الخطر زال، وأننا نقترب من سفينة المستشفى التي سأُنقل إليها.

لكن الكومندان جاء إليّ، بعد ظهر أحد الأيّام، ومعه المترجم بو غدير لإبلاغي أنني لن أنقل إلى سفينة المستشفى، وأن العلاج الذي أتلقّاه على الطرّاد يكفي، ولاحظت أن الحراسة شُدّدت عليّ، دون أن أفهم لذلك سببًا، إلا بعد نقلي إلى الزنزانة، حيث جاء بو غدير وقال لي:

ـ أنت، الآن، سجين عاديّ، وقد تخضع للتحقيق في ضوء المستجدّات، لأنك متّهم بقتل ثلاثة من المدنيّين الفرنسيّين، وسرقة السلاح من أحد المستودعات، ونقله إلى الثوار في جبال القدموس، أي إلى جماعة الشيخ صالح العلي.

دهشت لهذا التطوّر السيّئ في قضيتي، ولم أعرف السبب إلا بعد أيام، ومن بو غدير نفسه، الذي جاء اليّ قائلاً:

ـ نقل قضيّتك إلى القيادة الفرنسية في دمشق لم يكن لصالحك كما كنّا نأمل.

سألته:

ـ لماذا؟ وهل جاء جواب القيادة، وأفلت الذي عذّبني حتى الموت من العقاب؟

قال بو غدير:

ـ عن أيّ عقاب تتكلّم؟ القيادة تعتبرك أحد الأشقياء الذين يحملون السلاح، وينهبون، ويقطعون الطرق على القوافل العسكرية، للاستيلاء على الأسلحة والمؤن، وأنك مجرم قتلت ثلاثة من المدنيّين الفرنسيّين كما أخبرتُك سابقًا!

ـ وعلى أيّ شيء استندت القيادة في قرارها هذا، ومن الذي فبْرك هذه التّهم؟

قال بو غدير:

ـ كان التحقيق معك ينطلق من نقطة خاطئة، باعتبارك أحد السياسيّين، وعلى هذا الأساس رُفعت قضيّتك إلى القيادة، فجاء جوابها أنك لست من السياسيّين، ولا علاقة لك بالسياسة، وبالرجوع إلى مستشارية اسكندرونة تبيّن لها أن التّهم الموجّهة إليك هي التي ذكرتها لك، استنادًا إلى وشاية ذلك القذر، وإلى القبض عليك بالجرم المشهود وأنت تهمّ بسرقة الباخرة الفرنسيّة الجانحة.

أزعجتني هذه الأخبار السيّئة، وهذه التهم التي أنا بريء منها، فسألت بو غدير:

ـ والآن؟ ما العمل؟

قال بو غدير الموفد من قبل الطبيب، بذريعة تفقّد حالتي الصحيّة:

ـ لا أستطيع البقاء معك أكثر، لأنهم يراقبونني، ونصيحتي أن تصرّ على الإنكار، مهما كان نوع التحقيق، ومهما هدّدوك بالتعذيب، أو مهما عذّبوك فعلاً، وسيكون مصيرك، عندئذ، النفي، وهذا أفضل من الإعدام.

«نعم! قلت في نفسي، النفي أفضل من الإعدام، ولكن هل يمكن أن تلفّق ضدّي كل هذه التهم من قبل الواشي زيزون؟ كان، هذا النذل، يعمل على مركبي، وكنت أعطف عليه، وعندما كنت أبيع تنكات الكاز، كنت أرسل لعائلته نصيبها كالعائلات الأخرى، صدق من قال: «إذا أكرمت اللئيم زدته لؤمًا» الحقّ علي، كنت أطلعه على بعض

أسراري، وعلى بعض تحرّكاتي، ولم أكن أراعي الحذر في التعامل معه، أو أشكّ فيه فأكلّف من يرصد لي تردّده على بعض الخونة، المتعاونين مع أزلام المستشار الفرنسيّ.. الندم لا يفيد، والانتقام غير ممكن، إلا أن هذا الكلب سيدفع الثمن، وعليّ، بأي واسطة ممكنة، أن أحذّر جماعتي منه، وعندئذ سيحذفونه من الوجود!».

أضفت «أنت قليل التجربة يا صالح، وأنت معتدّ بجسارتك، وبقوّة ساعدك، وبكونك ريّسًا محبوبًا، قادرًا على تأديب السفلة، وكان هذا جيدًا في وقته، قبل أن أحمل السلاح، وأعتصم بالجبل، وأقاتل الفرنسيّين كالآخرين، أما بعد ذلك فقد جدّت أشياء لم تنتبه لها، وحتى لم تخطر لك على بال، وها أنت تدفع الثمن، وستدفعه طويلاً، وقد صدق بو غدير، عندما مرّر لك تلك القصاصة من ورق، وفيها «غرقت.. انتبه!» ولكن بعد ماذا؟ وما قيمة الانتباه الآن؟ المطلوب هو الصمود، وكيف أصمد وأنا على هذه الحال من الوجع، من الضعف الجسديّ، ومن التشتّت الفكري!؟»

بعد تفكير طويل، وأنا وحيد في زنزانتي، اهتديت إلى وسيلة ماكرة، رحت أصرخ عاليًا، واضعًا يدي على ضلعي الأيمن، متظاهرًا بوجع أليم، طالبًا من الحارس إبلاغ الطبيب، كي يأتي ويسعفني، وقد جازت الحيلة، فجاء الطبيب وجسّ مكان الألم، مستغربًا تجدّد الكسر، متسائلاً عما إذا كنت قد تعرّضت، ثانية، إلى الضرب، أو قمت بحركة عنيفة، وعلى الفور قرّر إعادتي إلى قسم الإسعاف، لإجراء اللازم، وأنا أصرخ، متلوّيًا من الألم، واضعًا يدي على ضلعي الأيمن، مكان الكسر تمامًا، والطبيب يقول لي:

ـ اهدأ، سيسكن الوجع ما إن أعطيك إبرة مسكّنة، وبعد ذلك نرى.

وضعوني على محمل، نقلوني إلى قسم الإسعاف، أعطاني الطبيب الإبرة المسكّنة، ومعها حبتان منوّمتان، فنمت طويلاً، ولما أفقت جاء بو غدير، وقال لي:

ـ الطبيب يشكّ في نكس الريشة اليسرى المكسورة، لذلك سيعيد التجبير، وعليك أن تتحمّل الألم قليلاً!

كان هذا، بالضبط، ما أريد، فالبقاء في المستوصف يعني تأجيل التحقيق، والتأجيل يتيح لي الوقت كي أتعافى وأتقوّى، لذلك طلبت، بواسطة بو غدير دواء مقوّياً، زاعمًا أنني في حال إنهاكٍ كامل، وصرت آكل بنهم، وأطلب المزيد من الطعام، والطبيب يقول لي:

ـ هذا مفيد جدًا لك، كل قدر ما تستطيع، وتناول الدواء المقوّي، والريشة المكسورة في ضلعك ستجبر، وتخرج سليمًا تمامًا هذه المرة.

في بداية الأسبوع الثاني لوجودي في المستوصف، اختلف الكومندان والطبيب بسببي: الكومندان، كرجل عسكريّ، طالب بإخراجي وإعادتي إلى الزنزانة، كان قد انقلب موقفه مني انقلابًا كاملاً، منذ وصول تقرير القيادة في دمشق، ومعرفته بأنني لست من السياسيّين، بل من «المجرمين» الذين يحملون السلاح ضدّ القوّات الفرنسيّة، وكان الطبيب ينظر إلى الموضوع من زاوية إنسانيّة، ويرى ضرورة بقائي إلى أن أشفى تمامًا، ومن حسن الحظّ أن كلمة الطبيب

كانت النافذة، لأن الموضوع يدخل في اختصاصه، وهو صاحب السلطة في هذا الموضوع، وهكذا بقيت أسبوعًا ثانيًا، كان مفيدًا جدًا لي من الناحية الجسديّة، إذ استعدت خلاله قواي بصورة كاملة تقريبًا، كما كان مفيدًا لي من الناحية النفسيّة، استعدت فيه توازني النفسيّ، فصرت قادرًا على التفكير، بتعقّل، في ما ينتظرني خلال التحقيق، وفي الردّ على الأسئلة التي ستوجّه إليّ، حول التّهم الباطلة التي يحاولون إثباتها عليّ، ولم أعد مباليًا، ما دام مصيري قد تقرّر، وهو النفي، إذا أنا صمدت للتعذيب بما يكفي للنجاة من الإعدام، ولم أعترف، صادقًا، بأيّ واقعة كاذبة، خاصّة مسألة قتل المدنيّين الفرنسيّين. ولقد تذكّرت، وأنا في المستوصف، وكذلك في الزنزانة، كل أحداث حياتي السابقة، من الطفولة إلى الرجولة، وتفحّصت، بدقّة، هذه الأحداث، وما فيها من صواب وخطأ، وتأمّلت حالي منذ قبضوا عليّ، وما استجدّ بعدي، وتساءلت مرارًا: هل أهلي، زوجتي وأولادي، بخير؟ وما كان تأثير القبض عليّ على أمي؟ وعلى كاترين؟ وعلى رفاقي حاملي السلاح؟ وعلى المقاومة؟ وهل جرت مفاوضات؟ وما هي نتيجتها؟ الاستقلال أم الاحتلال؟ وما هي أخبار الذين في الخارج، في الدنيا التي خرجت أنا منها!؟ وفي كل مرة كنت أضحك على حالي، لأنني أتناسى أن الجميع يعتبرونني ميتًا، بعد غرقي في تلك الباخرة الجانحة، التي كانت السبب في كل ما جرى لي.

في إحدى الليالي، بعد خروجي من المستوصف بأكثر من عشرة أيام، خيّل لي معها أنهم نسوني، طُرق على الباب بعد منتصف الليل، وما إن فُتح حتى وجدت المحقّق كلود ومعه بو غدير على العتبة،

ومعهما جنديّان، تقدّما فوضعا القيد في يديّ، وساقوني إلى مكتب التحقيق الذي كنت أعرفه. جلس المحقّق كلود، دون أن يبتسم، وراء مكتبه، بينما جلس بو غدير قبالتي، وكنت مرتاحًا، نوعًا ما، لأن كلود هو الذي سيحقّق معي، ولأن ذلك الرجل البغيض، صاحب القبضة الحديدية، غير موجود في المكتب. أشعل المحقق سيكارة، دون أن يعرض عليّ، كالسابق، أن أدخّن. كانت هذه علامة سيّئة، فالثعلب انقلب إلى ذئب، وبو غدير كان غيره أيضًا، يجلس عبوسًا، واضعًا رجلاً على رجل، دون أن ينظر إليّ، كأنه يتجاهل وجودي، او يحتاط لأمر لم أجد له تفسيرًا، سوى أن صلته بي كانت موضع ريبة، اذا لم تكن قد انكشفت، أو أنه يحاول، في عبوسه، أن يفهمني أن أحذر خلال التحقيق وأن أكون جدّيًا، متّزنًا، فلا أنجرف في التيّار الذي سيفتح المحقّق طاقة سيله عليّ.

بعد السيكارة الأولى، أشعل المحقّق سيكارة ثانية، فثالثة، وهو يقرأ في أوراق أمامه، إما لأنه يبحث عن نقطة ضعفي، فيهاجمني منها، أو لإطالة انتظاري، حتى أفقد توازني، وربما الاثنان معًا، وهذا ما رجح لديّ، عندما رفع رأسه عن الأوراق وقال:

ـ هذه المرة فكّوا يديك من القيد، وأنا لست ملاكمًا، ولا «بونيه» عندي، فهل هذا مريح بالنسبة إليك؟

هززت رأسي أن نعم، لكنني كنت أشتهي أن ادخّن سيكارة، ولأنه لم يقدّم، أو لم يعرض عليّ سيكارة، فقد كبتّ شهوتي، متوقّعًا أن ينقضّ عليّ بسؤاله الأول والأخطر في كلّ لحظة، ومن هذا السؤال أستنتج القضية المحورية في التحقيق. أنا، الآن، وبعد جواب القيادة

في دمشق، مجرم عاديّ في نظر هذا المحقّق أو غيره، لذلك فان عليّ الانتباه، والتركيز، والاختصار في الأجوبة ما أمكن، وأحسب أن هذا ما أراد بو غدير، بعبوسه، أن يلفتني إليه. وكما هي عادته، إنما بغير لطف، بغير ابتسامة مراوغة، نهض المحقّق كلود عن مكتبه، وجاء اليّ فرفع بيده رأسي إلى فوق بحركة مباغتة قائلاً:

ـ لماذا قتلت الفرنسيّين المدنيّين؟

نظرت في عينيه بقسوة وقلت:

ـ لماذا تفترض، سلفًا، أنني أنا الذي قتلهم؟

ـ لأن التّهمة ثابتة عليك!

ـ وما هي الأدلّة؟

ـ التقرير الذي بين يديّ!

ـ ومن الذي كتبه؟ وما قيمته إذا كان مجرّد وشاية كاذبة؟ هذه إحدى التهم التي لفّقها ضدّي عميلكم زيزون، لأنه عدوّي أولاً، ولأنه يقبض منكم، ويخدعكم بتقاريره التي لا أساس لها من الصحّة ثانيًا!

سأل متجهمًا:

ـ كيف عرفت أن زيزون هو الذي كتب التقرير؟

أجبته بحزم:

ـ لا يهمّ من كتب التقرير الذي بين يديك، لكنني متأكّد من أن زيزون هو الذي لفّق التّهمة التي فيه!

ـ أفهم من هذا أنك تنكر التّهمة الموجهة إليك؟

ـ التهمة باطلة أصلاً، ولا حاجة للإنكار.

ـ وما هي أدلّتك على أنها باطلة؟

ـ أنت رجل قانون وتعرف أن البيّنة على من ادّعى، فما هي البيّنة غير هذا التقرير الكاذب؟

صاح بي:

ـ اسمع! تكلّم بأدب! الذين كتبوا هذا التقرير رجال قانون أيضًا. وهم صادقون!

ـ ولو كانوا رجال قانون لأرفقوا مظاريف الرصاصات المستعملة في القتل، وطابقوا بينها وبين نوع الرصاص المستعمل في بندقيتي المحرّزة لديكم!

ـ ليس لدينا، هنا، أي رصاص محرّز، أو أي بندقيّة محرّزة!

ـ إذن لا أدلة، وهذا يثبت براءتي.

ـ أنت غير بريء، وسنجعلك تعترف بجريمتك!

ـ وما قيمة الاعتراف بغير أدلّة؟

ـ الاعتراف سيّد الأدلّة!

ـ ليس دائمًا! هناك اعتراف يُنتزع بالتعذيب، وهذا ليس له قيمة، وهناك اعتراف دافعه الرغبة بالموت، وهذا باطل أيضًا، اذا لم تتوفر له الأدلّة الجرمية. الأحكام، حين يكون هناك تحقيق عادل، وعندما تكون هنا محاكمة نزيهة، لا تُبنى على الأقوال وحدها، وإنما على الأدلّة، وعلى وجود أدوات الجريمة، وشهادات الشهود المقنعة للمحقّق وللقضاة أيضًا.. طبعًا أنا لا أشكّ بالتحقيق الجاري معي، ولكن التهديد مرفوض، إذا كانت غايته انتزاع الاعتراف.

قال المحقّق كلود:

ـ نحن في حالة حرب، وهناك أحكام عُرفية، ولا بدّ من اللجوء إلى الوسائل المعروفة في مثل هذه الظروف.

أجبت بهدوء وتصميم:

ـ الأحكام العرفية مفروضة في سورية، فأعيدوني إلى سورية إذا كنتم تريدون إخضاعي لها، أما ما عدا ذلك فإنه غير قانوني!

ضغط المحقّق كلود زرًا وقال:

ـ ستذهب الآن مع تراك، وهو يشرح لك، بأسلوبه الخاص، ما هو قانونيّ وما هو غير قانوني!

صحت:

ـ هذا ظلم، لا يليق بالعدالة الفرنسيّة!

ردّ بصوت عال:

ـ اخرس! العدالة الفرنسية نزيهة، ولا يستطيع أحد أن يشكّك في نزاهتها!

وقفت وأنا أصرخ:

ـ إني ألعن مثل هذه النزاهة، إذا كانت على هذه الشاكلة!!

أضفت:

ـ لا أنت، ولا تراك، ولا كلّ قوّة الاحتلال الفرنسيّ، بقادرة على إخافتي!

ـ إذن لماذا تصرخ؟

ـ احتجاجًا على الطريقة الحقيرة التي تلجأ إليها.. طريقة انتزاع الاعتراف بالتعذيب! تفو!

ـ ٢٠ ـ

قالت كاترين وهي تبكي:

ـ تعذيب مرة أخرى، وعلى يدي الجلاد «تراك»؟ كم تألّمت!؟ كم تحمّلت يا حبيبي!؟

قال صالح:

ـ لا تبكي يا كاترين، يا حبيبتي، كل ما جرى لي راح، صار من الماضي.. الذكريات وحدها تبقى، وهذه تترسّب أيضًا، السيّئ كالعكر، يبقى في القاع، والحسن، الصافي، يطفو على السطح، وعندما نتحدّث عن ذكرياتنا نقول: كان! وكان! ونحن كبرنا وكبرنا، شاب شعرنا، تقوّس ظهرنا، تهدّل، وترهّل لحمنا، ووحدها، الذكريات، لا تكبر، لا تشيخ، تظلّ شابة جديدة، طازجة، كأنّها حدثت البارحة!

ـ وهل هي نعمة أم نقمة، ذكرياتنا هذه؟

ـ أحد الكتّاب قال يومًا: «اللعنة على الذكريات، فقد قتلتني!»

ـ إذن علينا ألا نتذكّر، أن ننسى، وأن نعيش حياتنا، من جديد، كرة أخرى!

ـ أتمنى ذلك، لو أن ما مضى يعود: حياتنا وشبابنا!

قالت كاترين:

ـ وحبّنا!؟ هل مات حبّنا يا صالح!؟ لا أصدّق، الحبّ لا يموت!

ـ لكنه يشيخ مثلنا، ومن الأفضل له، ولنا أيضًا، أن يموت قبل أن يشيخ، حتى لا ينفتح الجرح بعد أن اندمل!

قالت العنقاء:

ـ أنا من هذا الرأي، لماذا علينا أن نفتح، كلما تذكّرنا، جرحًا صار في النسيان؟

قالت السوسة:

ـ لأن «الذكريات صدى السنين الحاكي»!

ـ لا أحب الصدى، فهو رجع للصُوت، وليس الصوت ذاته.. بماذا تنفع الحسرة؟

ـ بتجديد الإحساس، بإشعارنا أننا لا نزال نحيا، وأن علينا، ما دمنا نحيا، أن نكافح، والفرح في الكفاح يكون، وهذا من البدهيات.

ـ أي من الأشياء العاديّة، كالأكل والشرب والنوم لا أكثر! هذا يلائم الأحياء ـ الأموات، الذين يدبّون كالسلاحف، إلى أن يجدوا من يطمر جثثهم المتحركة بفعل الاستمرار.. لا! هذه حياة تدعو إلى السأم، وتفتقر إلى أبسط مقوّمات العيش: التجدّد عبر المغامرة، الإقدام باختراق المألوف، المتعارف عليه، الراكد كالماء الآسن! ما رأيك يا كاترين؟

ـ أنا معك يا عنقاء! الخارق هو الأفضل دائمًا!

قالت البومة:

ـ ها هو الخارق أمامكم، انظروا اليه تروا ما فعل الخارق به، وضعه على خازوق التعذيب!

قال الوطواط:

ـ كنت راغبًا عن الكلام حتى تنتهي قصّة صالح حزّوم، المخترعة من ألفها إلى يائها، لكن لي ملاحظة واحدة: لماذا أنتم ضدّ التعذيب وضدّ المعذِّبين؟ ولماذا الجلاّد مكروه منكم، مع أنه يساعد في تقليل عدد السكان الذين ضاقت بهم الأرض، ولم يعد الغذاء بكافٍ لإطعام أفواههم الجائعة؟ أنا مع «تراك»، ومع ذلك الرجل الملاكم، ومع المحقّق كلود الذي كشّر الآن عن أنيابه، وأتفهّم خوف هذه العائبة كاترين، عشيقة صالح حزّوم، إشفاقًا عليه، إلاّ أن الغراب ينتظر الجيفة، ينتظر ما يسدّ به رمقه، فهل نطيل انتظاره بهذا اللغو الفارغ عن الذكريات؟ هذا هو السؤال!

قالت الأفعى:

ـ سؤالك في محلّه أيّها الوطواط القبيح، وقلقك على الغراب الجائع في محلّه أيضًا، فلماذا لا تأتي إليه، وهو حليفك، كي يتسلّى بك قليلاً؟ ولماذا لا تخرج من جحرك، ما دمت مع العذاب والتعذيب، وأنا أعدك بأن لا أعذّبك، ولا ألدغك، بل أبتلعك على مهل، وبراحة تامّة؟ الساديّون موجودون في كل مكان مع الأسف، بين البشر وغير البشر، وأنت واحد منهم، لكن «تراك» الذي أنت معه، لن يحقّق نواياك الشرّيرة، فالضحيّة تجد غالبًا طريقة ما للانتقام من جلاّدها، ومن يُعذِّبْ يُعَذَّبْ،

وبشكل أكبر، عندما لا يجد سبيلاً إلى انتزاع الاعتراف المطلوب.. وتراك هذا لن ينتزع سوى أسنانه من الغيظ، لأن صالح لن يعترف، والمكتوب يُقرأ من عنوانه، وقد قرأنا نحن، من خلال ما سمعنا، العنوان والمتن، وبقيّة القصّة تأتي.. إلى أين أخذك تراك يا صالح؟

قال صالح:

ـ كنت أرغب في عدم مقاطعتي، إلا أنكم تتكلّمون لإثبات الوجود، كما لجأ «تراك» إلى أقسى أنواع التعذيب معي لإثبات وجوده، لكن ماذا كانت النتيجة؟ الخذلان! وهل كنتم تتوقّعون غير ذلك؟

قالت العنقاء:

ـ أبدًا!

قال صالح:

ـ حسنًا! وضعوا القيد في يدي وأخذوني إلى المسلخ!

صاحت كاترين رعبًا:

ـ إلى المسلخ!؟

قال صالح:

ـ نعم إلى المسلخ..

ـ مسلخ حقيقيّ؟

ـ قاعة ملوّثة أرضيّتها بالدم، تتدلّى من سقفها الحبال لأجل التشبيح، وعلى جدرانها كلّ أدوات السلخ والتقطيع التي لا تخطر على البال!

قالت كاترين فزعة:

ـ وماذا فعلوا فيك هناك؟

ـ قصّ عليّ «تراك» قصة شيلوك اليهوديّ، الذي طلب، مقابل دينه، قطعة من لحم المدين، وخيّرني تراك بين الاعتراف، وبين أن يفعل كما فعل شيلوك!

ـ وبماذا أجبته؟

قلت له:

ـ ولكن شيلوك تاجر يهوديّ!

قال مغضبًا:

ـ وما في ذلك؟ أنا يهوديّ أيضًا! ولكن هل أنت ضدّ الساميّة؟ مجرم ومعادٍ للساميّة؟

ـ لم أفهم، في البدء، ماذا يعني العداء للسامية، تعرفين يا كاترين، إنني قليل الاطلاّع على المصطلحات السياسيّة، لذلك لم أجب عن السؤال، قلت له: اسمع يا تراك! كلّ أدوات القطع والبتر، وكلّ وسائل التعذيب هذه، لن تجعلني أعترف بجريمة لم أرتكبها، تستطيع أن تفعل بي ما تشاء، لكن احذر: ستصل الأخبار إلى سورية، وتؤدّي إلى هياج عام، ولن تكون القيادة الفرنسيّة في دمشق راضية عندئذ، وستتحمّل المسؤوليّة أنت لا المحقّق كلود، خاصّة وأن هناك، ضدك، تقارير حول مسرحية الإعدام القذرة التي أخضعتني لها بشكل وحشيّ، دون أيّ نتيجة!

فكّر «تراك» بما قلت، تردّد أمام تحذيري، نجحت خطّة الهجوم

الذي هو خير وسيلة للدفاع، كما علّمنا المدرّب العسكري في الجبل، وبعد لحظات التردّد تراجع تراك، أمر بسوقي مكبّلاً بالقيود إلى السطح، وهناك أرغمني على الركوع، وأمسكني في رقبتي بقبضة قويّة، وراح يغطس رأسي في بركة من ماء البحر، حتى إذا شارفت على الاختناق، رفع رأسي وسألني:

ـ تعترف أم لا؟

وكنت أجيبه:

ـ أنا بريء، وليس عندي ما أعترف به!

ـ وكلما قلت ذلك كان يعود إلى تغطيس رأسي بالماء المالح، ويكرّر هو فعلته وأكرّر أنا جوابي، إلى أن تلاشت قواي، وفقدت القدرة على الكلام، فقال له بو غدير:

ـ كفى يا «تراك»! الرجل يموت، وإذا مات ستكون العاقبة وخيمة، انتبه!

وأمام هذا التنبيه أوقف «تراك» عملية التغطيس، فبطحوني على وجهي، وضغطوا على معدتي، حتى تقيّأت كلّ ما في داخلي من الماء المالح، وبعد ذلك حملوني ورموني في الزنزانة، وأنا بين الحياة والموت!

في منتصف الليلة التالية أخذوني إلى التحقيق من جديد، فحاول المحقّق كلود أن يلصق بي تهمة سرقة الأسلحة الفرنسيّة من أحد مخازن الذخيرة، لكنه لم يفلح، فلجأ إلى التّهديد، ولجأت إلى الصمت، قلت له:

ـ تستطيع أن تقول ما تريد، لكنّني لن أردّ عليك، الحوار انتهى، ولم يبق سوى الموت، فأمرْ بإطلاق الرصاص عليّ وينتهي الأمر!

ضحك ساخرًا وقال:

ـ لن أحقّق لك هذه الأمنية، لن أدعك تستريح، سترى الموت، وتعانيه، لكنك لن تموت، اعترف قبل فوات الأوان! قبل أن أرسلك إلى التعذيب، على يد رجل مدرّب، غير هذا الخرقة الذي اسمه «تراك».

اكتفيت بالتفّ عليه، فاحتقن غيظًا، شتمني، دار حولي وهو يشتم ويهدّد، لم أكترث بشتائمه وتهديداته، كنت أعرف أن هذه بضاعته الفاسدة، وما دمت طليق اليدين، فلن يجرؤ على الاقتراب مني، وبعد ساعتين من المحاولات الفاشلة والبائسة، ضغط الجرس، فجاء الحرس ووضعوا القيد في يدي، ودخل إنسان ضخم، عاري الجذع، مفتول العضلات، مشوّه الوجه قليلاً، ناداه باسم «سوريل»، وقال له شيئًا في زاوية المكتب، وبعد سوقي مكبّلاً، قال لي بو غدير هامسًا:

ـ هذا هو الفصل الأخير، سيجلدونك الآن، فتحمّل تَنْجُ!

أخذوني إلى السطح، طلبوا مني أن أخلع ثيابي حتى يصبح جذعي عاريًا، فعلت ذلك دون مقاومة، دون أن أنطق بحرف، ربطوا يديّ إلى أعلى عمود من الخشب، جاؤوا بالسياط، تناولها سوريل واحدًا واحدًا، هزّها بيمناه حتى ينتقي الأصلب من بينها، وبعد أن فرغ وانتقى سوطًا قويًا، مطاوعًا، لائقًا بمثلي، طلب مني أن أعطي ظهري له، ولا ألتفت إلى وراء، وانهال عليّ بالسوط جَلْدًا، أحسست معه أنّ لحمي يتناثر، وأن السوط يندف قطنًا لا جسمًا بشريًا، وأنه

يمزّق ظهري تمزيقًا شديدًا، فتشبّ النار حيث يقع السوط، وأنا أتأوّه رغمًا عني، كأنما فقدت إرادة السيطرة على نفسي، وكان سوريل يتوقّف، والمحقّق كلود يسأل:

ـ هل تعترف فنوقف الجلد؟

فأصيح:

ـ أعترف بماذا؟ أنا بريء، لم أقتل ولم أسرق!

وفورًا يأمر الجلاد بالمتابعة، حتى سال الدم من ظهري، وكدت ألفظ أنفاسي، وأصبحت شلوًا، يداه مربوطتان إلى أعلى العمود، وجسده يتلقّى السوط تلو السوط دون ردّة فعل، دون تأوّه، كأنما فقدت الإحساس، وعندئذ توقّف الجلد، وأخذوني إلى المستوصف شبه مغمى عليّ، وهناك مسحوا ظهري بدواء حارق كالنار، ثم دهنوه بمرهم، وأعادوني إلى الزنزانة، حيث نمت على وجهي، دون حراك، دون طعام، مع جرعات صغيرة من الماء، أبلّ بها شفتيّ وفمي وحلقي، ويأتي ممرّض كل يوم ليمسح ظهري بالسائل الناري، ويدهنه بالمرهم، وينصرف، دون أن يأبه أحد بحالي.

بعد حوالي أسبوع أنزلوني من الطرّاد إلى سفينة، نقلتني إلى جزيرة في المحيط قرب «غواديلو»، وهناك، في معسكر للجيش الفرنسيّ، وضعت في حبس انفراديّ، أفضل قليلاً من الزنزانة، مكثت فيه خمس سنوات، سُمح لي بعدها أن أختلط بالمنفيين، في عنبر كبير، مخصّص لأمثالي، ومع الأيام تعلّمت اللغة الفرنسيّة، كما تعلّمت شغل الصوف، كي أكسب ثمن السكائر، وبعض الحاجيات الضروريّة،

كالألبسة الداخليّة وغيرها، ولما أطلقوا سراحي، بعد عشرين عامًا، بقيت في الجزيرة، أعمل في الحدادة، كي أوفّر بعض المال الذي أحتاج إليه، عند عودتي إلى الوطن، بعد جلاء الفرنسيين بزمن ليس بالقصير.. هذه قصّتي.. وهي قصّة كل وطنيّ مناضل كما أعتقد!

قالت كاترين:

ـ آه! لَكَمْ تعذّبت يا صالح، أكاد لا أصدق أنك لا تزال حيّاً، بعد هذا العذاب الطويل، والزمن الطويل كله، ولكن لماذا تعيش وحيدًا، ومقنّعًا، كارهًا لنفسك هذا الكره!؟

قال صالح:

ـ وماذا أفعل؟ في الجزيرة، وخلال النفي الطويل، خفت أن أخضع، مرّة أخرى، للتحقيق، وكان أوّل ما فعلته تغيير اسمي.. فاسم صالح حزّوم، الذي جلب لي الويلات، لم يعد نافعًا، أو مقبولاً، مني على الأقل، وعندما استطعت أن أحصل على الجنسيّة الفرنسية، تسجّلت باسم دعبس الفتفوت، بذريعة أن اسم صالح هو اسمي الحَرَكيّ!

ـ ولماذا تقنّعت؟ هل فعلت هذا كي لا يعرفك أحد؟

ـ ومن بقي من أهلي، أو من أصحابي، حتّى يعرفني؟

قالت كاترين:

ـ لكنني، أنا، عرفتك!

قالت البومة:

ـ هذا لأنك ساحرة! ومن عالم الماء!

قال الوطواط:

ـ وخائنة، خنت الأب مع الابن!

سأل صالح:

ـ هل صحيح هذا يا كاترين؟

ـ صحيح مع الأسف، أردت الانتقام منك! جسديًا لا عاطفياً!

قال الوطواط:

ـ وما الفرق؟ الخيانة هي الخيانة، والانتقام هو الانتقام، وحسنًا فعلتِ، فالوفاء حكمة جوفاء، يتوكأ عليها العجزة! إنها، ببساطة، عكّاز الذين ليس لهم من يخونونه، ومن ينتقمون منه، فاذا وُجد هؤلاء، فإنّ الوفيّ لا يملك الجرأة على الفعل، أنت، يا كاترين، ملكت الجرأة وفعلتِ، فلك تهانيّ الخالصة!

قالت كاترين:

ـ ما فعلته كان سيئًا، والسيّئ لا يستحقّ التهنئة، وأنت تحاول خداعي يا وطواط، لأنك مع الشرّ، وتروّج له منذ التقينا في هذه القاعة، والفارق بيننا كبير، فأنت مع الظلام وأنا مع النور!

قهقه الوطواط وقال:

ـ أنتم جميعًا، باستثناء البومة، تخافون مصارحة انفسكم بالحقيقة، ليس لأن النور لم يكن لو لم تكن الظلمة، وإنما لأنكم تحتاجون الظلمة للتستّر بها على عيوبكم، ففي الظلمة تفعلون ما تخافون فعله في النور، وما تخافون فعله في العلن، وبذلك تفقدون كلّ مصداقيتكم! واحد فقط بين البشر، اجترأ على فعل ما يريد في

العلن، وهو شاعركم ابو نواس الذي قال: «ولا خير في اللّذات من دونها ستر!» إلا أنكم اعتبرتموه متهتّكًا، ولم تأخذوا بما أخذ به، لافتقاركم إلى شجاعته.. الظلمة نافعة لكم، وليس لي وحدي، فلماذا تلعنونها بأفواهكم، وتباركونها في سرائركم؟

قالت العنقاء:

ـ أنا سريرة صالح حزّوم، وأشهد أنه كان جريئًا، حين قال لكاترين، أمام زوجته وكل الحاضرين: «أنتِ!» وكانت هي فعلاً، إلى أن وقع الفراق!

قالت البومة:

ـ وأنا نفس صالح حزّوم، وأشهد أنه لم يكن جريئًا، ولم يكن متواضعًا، ولم يكن، ايضًا، كريمًا، كان، حياته كلها، متستّرًا على عيوبه، فهو سخيف كما اعترف في هذه القاعة، وهو ثرثار يفرض على مستمعيه بعض وقائعه التي يفاخر بها، وهو خوّاف يباهي بجسارته التي يفتقدها، وهو مرح، يكثر من الضحك، لا لأنه كذلك طبعًا، وإنما لأنه قرأ في إحدى الصحف أن الضحك يجلب العافية، وهو يحبّ المظاهر تحت ستار عدم الاكتراث بالشهرة، وهو مغرور يرى نفسه فوق الآخرين، وأحقّ من الآخرين، وأكثر فهمًا منهم، وأحدّهم ذكاء، وأوسعهم ثقافة، وأشدّهم وفاء، فاذا اختلى بي، أنا نفسه، واستعرض ما قال، وما فعل، وما اشتهى، وما رغب، وما حسد، تكشّفت له حقيقة ذاته، وندم ندمًا يفري أحشاءه، وقد عاهدني على التخلّص من هذه العيوب، إلا أنه، في الغد أو الذي بعده، سقط في هذه العيوب من جديد، ومن جديد ندم على سقوطه، وهكذا إلى

ما لانهاية.. تسألون، بعد، لماذا يكره نفسه!؟ أحسب أني أجبت، وبصراحة كاملة، دون رهبة أو رغبة، وسيّان، بعد ذلك، إن هو نفر منّي، أو قرّبني إليه، وهو لا يستحق كاترين الحلوة، هذه الفاضلة التي حمتني، وبراحتها مسّدت على ظهري، إلى أن ارتعشت، لبلوغي اللّذة بفعل أناملها الحارّة والجميلة!

صاحت كاترين:

ـ لا! صالح ليس هكذا، بل على النقيض من كل ما قالته هذه البومة التعيسة، وذلك الوطواط النتن، بقصد الوسْوسة والخَنْسنة، وقد ضاقت هذه القاعة، وضقنا معها ذرعًا، من محاولاتهما الشيطانيّة، ومن تدليسهما، وتمليسهما، حينًا، ومن قدحهما وذمّهما في كل الأحيان.. وقد اعترف الوطواط، دون خجل، ودون مداراة، أن له، ههنا، مهمّة، فما هي مهمّته؟ وما هي مهمّة حليفته البومة؟ زرع الشكّ، نشر الريبة، الإغراء بالقتل، تزيين الخيانة، تحبيذ الفساد والافساد، وبكلمة: رفض الفضيلة، الترويج للرذيلة، بكلّ الطرق والوسائل المتاحة، لأن صفة «الوسْواس الخنّاس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنّة والناس» تنطبق عليهما، وصدقت الآية الكريمة، وصدق الله العظيم.

قالت السوسة:

ـ هذا ردّ بليغ، وتعرية كاملة، لكل ما نفثه هذان اللعينان من سموم في هذه القاعة!

قالت الأفعى:

ـ وماذا كانت النتيجة؟ لا شيء! كلّ منا كشف، من خلال الحوار، عن دخيلة نفسه، والكشف، في ذاته، نفع لنا، لأنه أبان ما كان مخفياً.. الحكمة تقول «من يعرف نفسه يكن حكيمًا» الآن، وإلى حدّ ما، عرف كلّ واحد نفسه، وعرفنا، جميعًا، وإلى حدّ ما، نفوس بعضنا بعضًا، وفي هذا فائدة لنا.

قال صالح حزوم:

ـ أنا، بينكم، الأكثر استفادة.. فبعد رجوعي من المنفى، زرت الوطن العربيّ بلدًا بلدًا، وفي كل بلد رأيت وسمعت، ما رأيته وسمعته، هنا، لأن هذا العالم الصغير تجسيد للعالم الكبير، ولما كان الفساد قد عمّ، وكانت النفعيّة قد استشرت، أسفت لأنني عدت من المنفى! لا تفهموني خطأ، الوطن عزيز، غال، ومن لا يحب وطنه غير جدير بأن يكون مواطنًا، وقد كنت مواطنًا صالحًا، وسأبقى.. إلا أنني، وبشكل غريب، لا يكاد يصدّق، رأيت الناس مقنّعين، ولكل من هؤلاء الناس قناع يختلف عن الآخر، فاتخذت، مثلهم، قناعًا لنفسي، قد يختلف عن كل الأقنعة، الا أنه يتلاءم ومزاجي، واعتكفت في هذه القاعة، اقرأ وأكتب، وأتفرّج على هذا العالم كشاهد عليه، وبصورة إيجابية، وهذا دوري المستطاع، في هذا الزمن الرديء!

«صالح حزّوم الذي تعرفونه انتهى، مات، حلّ مكانه دعبس الفتفوت، وبقناع أيضًا، ولأنني، في هذا العمر المتقدّم، لم أعد نافعًا لشيء، سوى التأمّل في داخلي، وفي ما حولي، فقد اكتشفت الكثير من عيوبي، ورددت عيوبي إلى نفسي، لسبب بسيط هو: أن هذه النفس طالبتني، في كل مكان وزمان، بالتنازل لها، والتنازل للنفس

خطير، لأنه يقود إلى الاستسلام، وهذا وزر لم أقترفه، رغم عذاباتي وآلامي، فكيف اقترفه الآن، وأنا مسافر قريبًا، في رحلة اللاعودة؟ إن الكفاح ضدّ النفس، ومجاهدتها، هما العاصم من التردّي، أكثر فأكثر، في حمأة اللامبالاة، ولأنني مواطن في وطن، وابن لهذا الشعب، شعبي الحبيب، فإنني لا أرضى أن أكون لامباليًا بمصيره، وبوجوده، وبحياة وطني التي أريدها أفضل، وأنبل، وأكثر جمالاً وخيرًا، شرفًا وعزّة، قوة ورفعة مكانة، فإنني أكتب ما يمليه عليّ واجبي وضميري، عسى أن أسهم، ولو قليلاً، بما يسهم به الآخرون، الشرفاء من الناس، وهم كثر في هذه الحياة، وكل حياة، في كل أنحاء هذا العالم الصغير الكبير معًا.

أضاف:

ـ هل عرفتم الآن، لماذا أكره نفسي؟ أعطيني، يا كاترين، يا حبيبتي، قناعي، وتقنّعي أنتِ أيضًا، فزمننا هذا زمن الأقنعة، ولا مندوحة عن ذلك.

في هذه اللحظة اقتحم القاعة صقر، وراح يحوّم في فضائها، مصفّقًا بجناحيه، وللحال اختفى، أو اختبأ، جميع من كان فيها، فنظر دعبس الفتفوت إلى كاترين، عروس البحر، وقال:

ـ هل رأيت ما تفعل القوّة!؟

وبعد لحظة صمت، أخذ يدها وقبّلها، احتواها بين يديه، ناظرًا في عينيها نظرة وداع! كانت دموعه، الآن، تتحيّر في مآقيه، وهو يحاول أن يتماسك، أن يكون الريّس الذي كانه يومًا، دون أن يفلح في

استعادة ما فات، ودون أن ينجح في نسيان ما فات أيضًا، وكي يختصر لحظة الفراق الأليمة، قال بصوت متهدّج:

ـ لقد ضيّعتك وضيّعت نفسي يا كاترين، فهل أستحق، في هذه الوقفة التي قد لا تُستعاد، غفرانك عما ارتكبت من خطأ في حقّك، حين أرغمتك على الرحيل، وبذلك حكمت على حبّنا الكبير حكمًا جائرًا، قاسيًا، قاضيًا، لا رحمة فيه؟

قالت كاترين:

ـ كلانا أخطأ في حقّ الآخر، وكلانا تعذّب من أجل الآخر، وعندما التقينا أخيرًا، كان سهم القدر أسبق، وحكم القضاء أنفذ، فكان لقاؤنا وداعًا، وكان الوداع لقاءً، إنما بغير أمل في أن يكون أحدنا للآخر، مرة أخرى.. لقد مات صالح حزّوم الذي عرفته وماتت كاترين الحلوة التي عرفتها، فماذا بعد الموت يا ترى!؟

ـ انتهت ـ

بودابست فجر ٣ أيلول ١٩٩٦

عنوان المؤلف:

دمشق ص.ب. ٣٠٣٩٣ هاتف ٥١١٥٣٢٢ سورية

DAMASCUS SYRIA P.O.BOX 30393 TEL: 5115322

مؤلّفات حنّا مينة

المصابيح الزرق
الشراع والعاصفة
الثلج يأتي من النافذة
الشمس في يوم غائم
الياطر
بقايا صور
المستنقع
القطاف
الأبنوسة البيضاء
المرصد
حكاية بحّار
الدقل
المرفأ البعيد
الربيع والخريف
مأساة ديمتريو
حمامة زرقاء في السحب
نهاية رجل شجاع
الولاعة
فوق الجبل وتحت الثلج
الرّحيل عند الغروب
النجوم تحاكم القمر
القمر في المحاق
المرأة ذات الثوب الأسود
حدث في بيتاخو
عروس الموجة السوداء
المغامرة الأخيرة
الرجل الذي يكره نفسه
الفم الكرزي
حارة الشحادين
صراع امرأتين
ناظم حكمت: السجن، المرأة، الحياة
ناظم حكمت ثائرًا
هواجس في التجربة الروائية
كيف حملتُ القلم؟
البحر والسفينة... وهي!

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

علي مولا